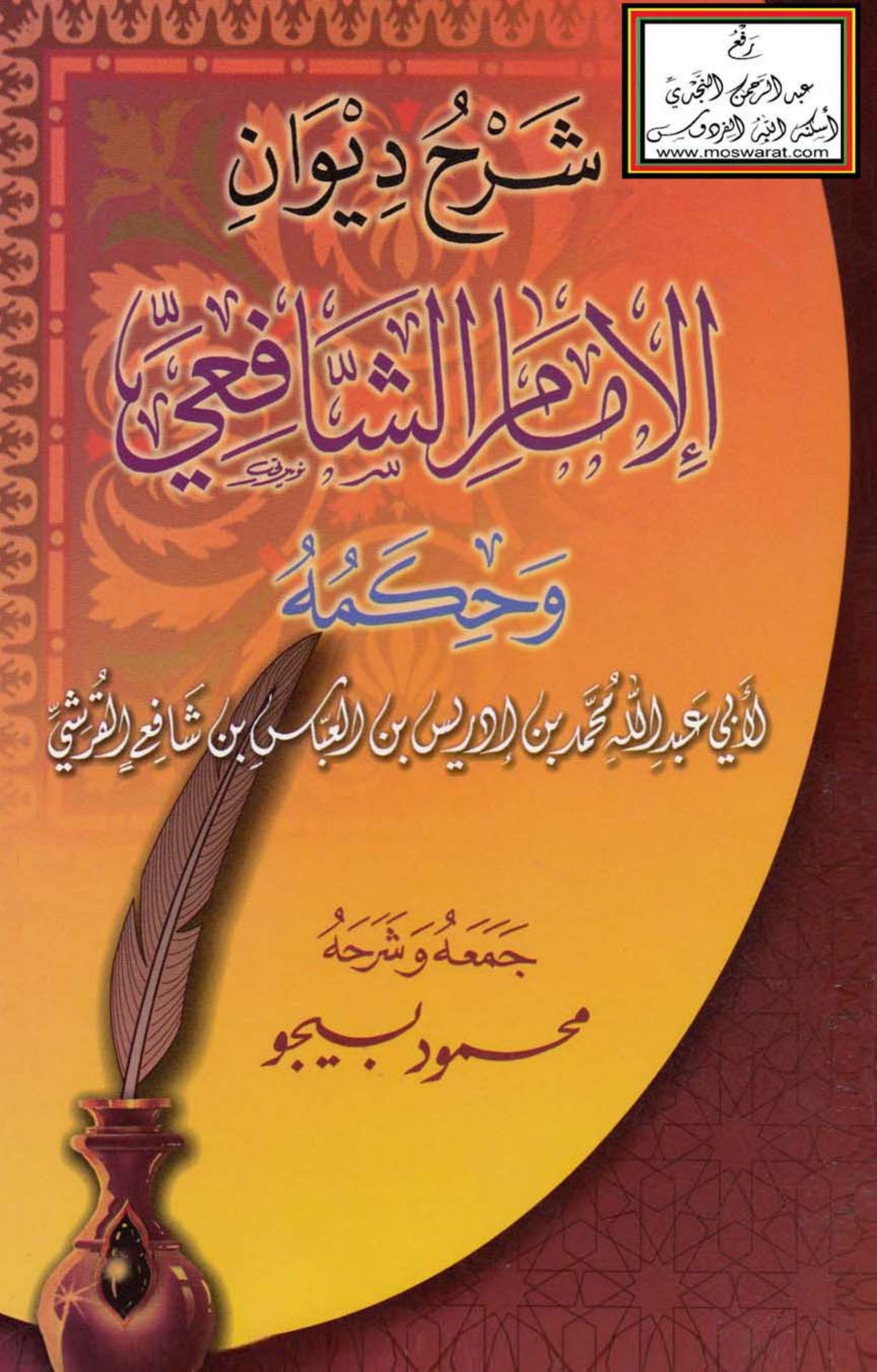
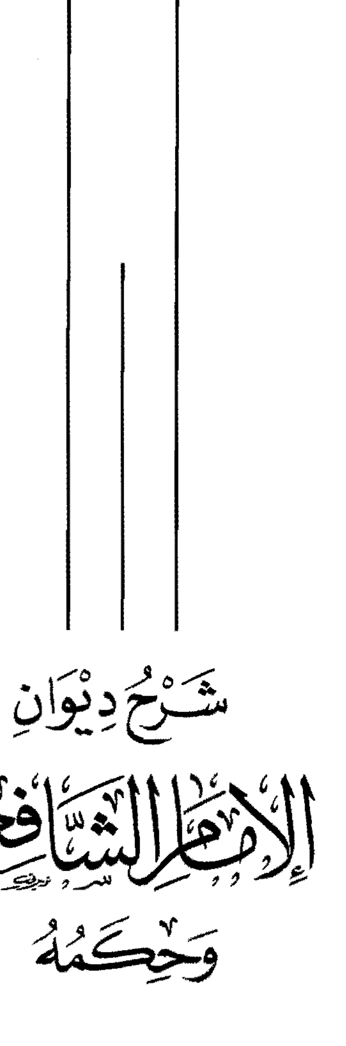


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
شرح ديوان
الإمام الشافعي
وحكمه
لأبي عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن شافع القرشي
جمعه وشرحه
محمود بيجو


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



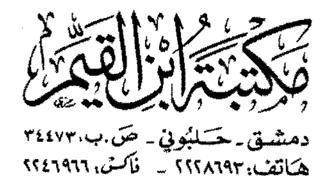
شرح ديوان الإمام الشافعي وحكمه

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٩م

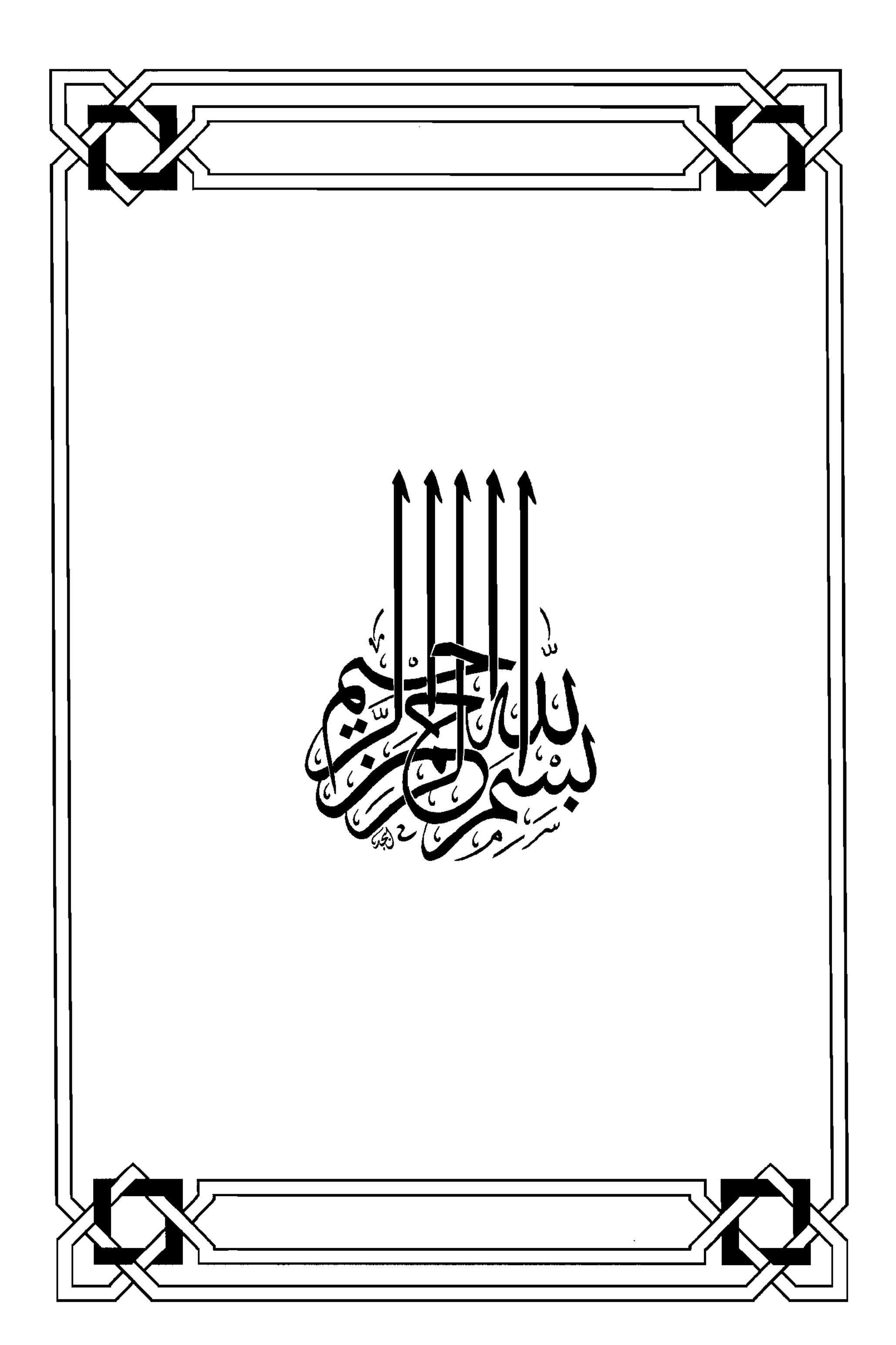




شَرْحُ دِيْوَانِ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ وَحِكَمُهُ

لأبي عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن شافع القرشي

جَمَعَهُ وَشَرَحَهُ
محمود بيجو


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الإمام الشافعي:

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن شافع القرشي.

ولد في مدينة غزة سنة خمسين ومئة للهجرة، ويبدو أن أباه إدريس ابن العباس الهاشمي كان قد اضطر إلى هذه المدينة النائية عن موطن قريش طلباً للرزق والمعاش، غير أنه توفي وابنه لما يزل في المهد، فرجعت أمُّه الأزدية إلى مستقر قرابة في مكة، وهو ابن سنتين.

وما إن نما عوده بعض النمو حتى أسلمته والدته الحانية إلى الكتَّاب، إلا أنها لم تكن تملك أجرةً تعطيها لشيخه، وهنا بدأت أحاسيس الفتى الناشئ الموهوب تنفتح ليشق سبيل المجد بإخلاص العاملين وجهاد الطالبين، فكان كلما انشغل المعلم خَلَفَهُ الإمام الشافعي على التلامذة، جاعلاً هذه النوبة بمثابة أجر يسديه إليه، وتخبرنا الروايات أنَّ مؤدبه قد رضي منه هذا الأجر رضاء تاماً.

ولم يطو الغلام اليتيم من عمره سبع سنين حتى استظهر القرآن، ثم شرع في مرحلة علمية ثانية، منذ هذا الوقت المبكر، فكان يجلس على مقربة من أجلَّة العلماء ليحفظ ما استطاع من أحاديث رسول الله ﷺ، ولم

يلبث أن استهوته حكمة النبوَّة، فصار يكتبها على ما يستطيع توفيره من قطع خزف أو دف أو كرب خيل أو أكتاف جمال أو ظهور أوراق كان يطلبها من دواوين الحكومة، حتى ملأ من ذلك جرة قديمة كانت لدى والدته.

وعلى عادة من كانوا يتبدون لنهل الفصاحة من منابعها العذبة الصافية ضرب محمد بن إدريس في بوادي هذيل وغيرها من أمهات القبائل التي لم يشب لسانها لحن ولا رطانة، وهنالك جمع كثيراً من لغتها وأشعارها. ولكن عين الله التي عوضته حنو الأبوة أزجت إليه من يهديه سبيل ما هو مهيأ له من أول المشوار. وقد حكى الشافعي قصة اتجاهه إلى الدراسات الفقهية فقال: «لما رجعت أنشد الأشعار وأذكر الآداب والأخبار وأيام العرب، مرَّ بي رجل من الزبيدي فقال لي: يا أبا عبد الله؛ عزَّ عليَّ ألا يكون مع هذه الفصاحة والذكاء فقه، فتكون قد سُدت أهل زمانك» وبذلك استيقظت ميوله التي كان استجاب لها منذ ختم القرآن وجمع طائفة من الأحاديث.

وكان في مكة أمثال سفيان بن عيينة ومسلم بن خالد الزنجي فتردد عليهما يغرف من علوم الدين غُرُفاً طيبة، وكان اسم مالك بن أنس قد ذاع في كل مكان، فاستعار الشافعي كتابه الموطأ من رجل مكي وحفظه في تسع ليال ظاهراً، ولم يلبث أن قصد إليه ولما يتجاوز اثنتي عشرة سنة، وقد انكب على معينه ينهل ويستزيد ويدفعه إعجاب مالك بذكائه إلى الإمعان في اهتمامه العلمي، ويروى أن إمام دار الهجرة قال عن الشافعي: «إن يك أحد يفلح فهذا الغلام». وقال أيضاً: «ما أتاني قرشي أفهم من هذا الفتى، يعني الشافعي» وقد حفظ له تلميذه البَرُّ فضله، وظل يقول بعد أن بلغ ما بلغ: «مالك معلمي وأستاذي، ومنه تعلمنا العلم، وما أحد أمَنُّ عليَّ من مالك، وجعلت مالكاً حجة فيما بيني وبين الله».

وفي هذه الفترة مرَّ بالمدينة والٍ على اليمن فكلمه بعض القرشيين

بشأن الشافعي لعله يجد له عملاً عنده، فقبل منهم، وصحبه معه وكلَّفه بوظيفة بسيطة، فقام بها، فأسلم إليه أخرى، فنهض بعبئها، وكان يأتي المعتمرون من اليمن إلى مكة لزيارة بيت الله الحرام، فكانت أمه تتحرى أخباره منهم فيثنون عليه، ويبدو أنه كان يذهب بين الفينة والفينة إلى مكة ليلقى والدته، كما كان يقابل شيوخه الذين تتلمذ على أيديهم من قبل ويأخذ عنهم من جديد، وما إن بلغ من العمر خمس عشرة سنة حتى قال له مسلم بن خالد ـ شيخه ـ: «أفتِ، فقد آن لك أن تفتي»، كما بلغ في هذه السن منزلة كان يملي فيها من حفظه من الموطأ على الحجاج المصريين الذين كانوا يقدمون على مالك بعد أن يؤدوا الفريضة، وهو ما قرَّب إلى ذهنه فكرة الذهاب إلى ديارهم فيما بعد. وربما أحسَّ الشافعي من نفسه مقدرة على الحِجاج فإذا به ـ في إحدى لقاءاته لمالك ـ يراجعه ويناظره وينزلق في شعائر المراهقين أو بعض المراهقين من المبالغة في المراء والإكثار منه، فقال له مالك: «فإن قيل قلنا؛ فاقصد هنا وأشار بيده إلى جهة العراق، إشارة إلى أصحاب أبي حنيفة لأنهم أهل نظر وجدال» فخرج المفتي الناشئ من عند شيخه مغضباً لأول مرة وقصد العراق ولقي محمد بن الحسن وأخذ عنه، ولم يكتف بالذهاب إلى العراق، كما أشار عليه أستاذه، بل ضرب أيضاً إلى بلاد فارس والمناطق القاصية يلقى أئمة العلم ويكسب من معارفهم حتى صار ابن إحدى وعشرين سنة، ثم عاد إلى العراق وكان الرشيد قد استُخلف منذ سنة سبعين ومئة، فأكرمه وولاه الصدقات بنجران، لكن مودته المتمكنة الوفية لإمام دار الهجرة قد عرَّجت به شطر المدينة المنورة ليراه وقد اغتنى بعد أن تركه فقيراً، ومن ذلك الحين جعل أستاذه يبعث إليه كل عام من هداياه إلى أن لبى مالك نداء ربه سنة تسع وسبعين ومئة.

وخبر تولِّيه صدقات نجران وهو ابن إحدى وعشرين سنة، أي عام

إحدى وسبعين ومئة، ينفي الروايات التي تجعل زيارته لبغداد مرتين فحسب، إحداهما سنة خمس وتسعين ومئة، والثانية سنة ثمان وتسعين ومئة، فهو قد قصد إليها سنة إحدى وسبعين ومئة أو قبلها كما رأينا، وقصد إليها سنة خمس وسبعين ومئة وسنة ثمان وسبعين ومئة، واقتيد إليها سنة أربع وثمانين ومئة، لاتهامه بمؤازرة خارجي أو علوي كان يريد خلع الرشيد، وذلك عندما تسلم الشافعي صدقات نجران باليمن، غير أن براءته ظهرت، فعفا عنه أمير المؤمنين.

وتهمته تدفع بدورها ما يقال من أن محمد بن الحسن وأبا يوسف قد كادا له عند الرشيد وأوغرا صدره عليه، وليس مثل هذه الأقوال في حقيقتها إلا كمثل الذي لا يقدر أن يمدح امرأً دون أن ينال سواه بمذمة، وكأن دنيا الصلاح لا تسع من الناس إلا فرداً واحداً! فالمصادر تنبئ أن محمد بن إدريس كان يُجِلُّ محمد بن الحسن ويقول فيه: «ما رأت عيناي مثل محمد بن الحسن ولم تلد النساء في زمانه مثله»، وأن محمد بن الحسن ـ من جهته ـ قد ألان له قلب الخليفة وشفع له عنده، وعزم عليه أن ينزل في داره فكانت تلك فرصة جيدة استطاع الشافعي أن ينسخ فيها كثيراً من مصنفات الحنفية، ويبذل على النساخ في سبيل ما تبقّى من أعطية الرشيد بعد أن نثر قسماً منها على بوّابيه.

وأيضاً فإنه يروي عن أبي حسان الزيادي أنه قال: «ما رأيت محمد بن الحسن يعظم أحداً من أهل العلم تعظيمه للشافعي، ولقد جاءه يوماً فلقيه وقد ركب محمد بن الحسن، فرجع محمد إلى منزله وخلا به يومه إلى الليل».

ويعود الشافعي إلى مكة المكرمة وقد نضجت ثقافته وتبحر إلى أبعد غاية في فقه الرأي إضافة إلى فقه الحديث، وصار يفيض على حلق الدارسين في البيت الحرام، وعلى الحجاج القادمين من كل فجٍّ عميق،

حتى عام (١٩٥ هـ) حيث ذهب إلى بغداد وأقام بها حولين يدرس ويصنف، ثم رجع فترة قليلة إلى أم القرى وسرعان ما انقلب إلى العاصمة العباسية سنة (١٩٨ هـ)، فأقام فيها أشهراً معدودات على تبرم منه بأهل الكلام هواة المِراء الذي لم يعد يلقى الإفراط منه أيَّ حظ بعدما استوى له علم نادر وحكمة بالغة، فاتَّجه إلى أرض الكنانة وهو يقول:

لقد أصبحت نفسي تتوق إلى مصر ومن دونها أرض المهامه والقفر
فوالله ما أدري أللفوز والغنى أُساق إليها أم أُساق إلى قبري

وتذكر المصادر أن الشافعي قد لقي في مصر إكراماً واسعاً، وأنه كان «محبَّباً إلى الخاص والعام لعلمه وفقهه وحسن كلامه وأدبه وحلمه»، وأنه قد سار ذكره في البلدان وقصده الناس من الشام واليمن والعراق وسائر الأقطار للتفقه عليه والرواية عنه وسماع كتبه، وأنه على زهادته في التقرب إلى الولاة كان مقدماً عند العباس بن عبد الله والسري بن الحكم البلخي من الأمراء على مصر في الفترة التي عاش فيها. وقد تمكن الإمام الشافعي في مصر أن يستكمل أبحاثه ويتابع تأليفه الذي بدأه من قبل، نافذاً إلى آرائه الجديدة التي عدَّل فيها شيئاً من أحكامه التي استنبطها في الحجاز أو العراق، قاصداً فيها على الحقيقة ما استطاع، ولبث يدرِّس ويؤلف حتى وفاته سنة (٢٠٤ هـ)، فدفن في القرافة الصغرى قرب جبل المقطم، ولا يزال قبره إلى اليوم في شارع الإمام الشافعي في مسجد حمل اسمه، وأساس هذا المسجد مدرسة أقامها صلاح الدين الأيوبي بجوار قبر الشافعي سنة (٥٧٢ هـ)، ليفقه الدارسون على مذهب هذا الإمام الكبير، ثم أنشأ لها السلطان الكامل محمد بن العادل قبة خشبية مغطاة بالرصاص سنة (٦٠٨ هـ) ثم جدد الخديوي توفيق سنة (١٣٠٩ هـ) مسجد الإمام الشافعي على النحو الذي نراه عليه اليوم.

ومعنى ما تقدم أنه لا يتعذر على الباحثين أن يحددوا الخطوط العريضة

لحياة هذا الإمام الفذ، كما أنهم لا يلقون مشقة في تحديد السير المتعلقة بوقائع حياته، كما قال هفننك، وذلك إذا ما قارنوا الروايات الكثيرة التي عرضت لها، واستقصوها بدقة.

وقد ترك الشافعي من بعده ثلاثة أولاد: أبا عثمان محمداً الذي كان قاضياً في مدينة حلب، وفاطمة، وزينب، وتوفي ابن آخر له يدعى الحسن وهو طفل، وكذلك ترك ذكراً حسناً في مجالات الأخلاق العالية والصفات النبيلة والعلم والشعر.

فكل التراجم تؤكد تقوى هذا العالم الجليل وأنه لم تعرف له كبوة لا في شباب ولا كهولة، وأنه قال لمن أشار إليه بمجالسة الوالي ليكسب منه: «من لا تعزه التقوى فلا عزَّ له ولقد ولدت بغزة، وربيت في الحجاز، وما عندنا قوت ليلة، وما بتنا جياعاً قط».

وأنه لما سمع الحارث بن لبيد يتلو من القرآن قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥ ـ ٣٦]. تغيَّر لونه واقشعر جلده، وأنه لم يحلف بالله لا صادقاً ولا كاذباً، وأنه كان ماراً في السوق فسمع رجلاً يسفه على رجل من أهل العلم فقال لأصحابه: «نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به، فإن المستمع شريك القائل، وإن السفيه لينظر إلى أخبث شيء في إنائه فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم، ولو ردَّت كلمة السفيه لسعد رادُّها كما شقي بها قائلها».

وكان الإمام التقي يختم القرآن كتاب الله كل ليلة ختمة، فإذا كان شهر رمضان ختمه في اليوم مرتين، ويروي الحسن الكرابيسيُّ أنه بات مع الشافعي غير ليلة «فكان يصلي نحواً من ثلث الليل، فما رأيته يزيد على خمسين آية، فإذا أكثر فمئة، وكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل الله تعالى

لنفسه ولجميع المسلمين والمؤمنين، ولا يمر بآية عذاب إلا تعوَّذ فيها وسأل الله النجاة لنفسه و للمؤمنين».

وكان الشافعي رحمه الله عفّاً زاهداً في متاع الدنيا يقول عن نفسه: «ما شبعت منذ ست عشرة سنة، لأن الشبع يثقل البدن ويقسي القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة»، وكذلك كان يقول: «من ادَّعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها في قلبه فقد كذب». ويقول: «من غلبته شدة الشهوة للدنيا لزمته العبودية لأهلها، ومن رضي بالقنوع زال عنه الخضوع»، ويقول: «التواضع يورث المحبة والقناعة تورث الراحة».

وكان عدلاً لطيفاً كريماً شجاعاً ذكياً مخلصاً في علمه لا يبغي من ورائه شهرة ولا رياء، يقول: «ما ناظرت أحداً فأحببت أن يخطئ».

ويقول: «وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم على ألاّ ينسب إليَّ منه حرف».

ويقول: «من لم يصن نفسه لم ينفعه علمه».

وتصور الروايات الإمام الشافعي رجلاً مديد القامة، سائل الخدين، قليل لحم الوجه، خفيف العارضين، طويل العنق، آدم، يخضب لحيته، حسن الصوت، كريم الوجه، عظيم العقل، أليف السَّمت، مهيباً، فصيحاً.

وتذكر تلك الروايات أن الشافعي لم يكن في الطراز الأوَّل من الفقهاء والمحدثين فحسب، بل أيضاً كان عالماً بكلام الصحابة وآثارهم، واختلاف أقاويل العلماء، والتفسير، والقراءات، والأنساب، والتاريخ، والطب، والرمي، وكان صادق الفراسة، صافي النفس، نافذ البصيرة، وكان حجة في اللغة عند ابن هشام وثعلب والأزهري، وحجة في النحو

عند المازني، وقد قرأ عليه الأصمعي أشعار هذيل وديوان الشنفرى، وكان يروي إضافة إلى ذلك لثلاثمئة شاعر مجنون ولثلاثين آخرين أساميهم عمرو، فضلاً عن العقلاء وسوى العمرين من الشعراء، ومن هنا قال أحمد بن حنبل قوله الحق: «ما أحد مسَّ بيده محبرة ولا قلماً إلا وللشافعي في رقبته منَّة»، وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «ما رأيت رجلاً قطُّ أكمل من الشافعي».

وبديهي أن يكون الفقه رأس علومه التي حذقها، ومن يرجع إلى تاريخ الإمام الشافعي وسيرة حياته يجده لا يعد نفسه لهذا الأمر بحفظ القرآن الكريم منذ نعومة أظفاره فحسب، بل بجمعه كثيراً من الأحاديث النبوية في صغره وبعد صغره، وبالتمكن اللغوي، وعلوم الدين المختلفة كآثار الصحابة وخلاف العلماء والتفسيرات والقراءات مما مر بنا من قريب، وبالتبحر في الناسخ والمنسوخ والعام والخاص، والوقف والابتداء، ونحو ذلك من البحوث الإسلامية.

أضف إلى ذلك أنه استوعب استيعاباً شاملاً لمدارس الفقه في عصره، على اختلاف مناحيها، فدرس فقه مالك منذ يفاعته، وأخذ فقه أبي حنيفة عن محمد ابن الحسن، وانتهى إليه فقه الأوزاعي من طريق شيخه عمرو بن أبي سلمة، واطلع على فقه الليث بن سعد بوساطة يحيى بن حسان، ووقف على دراسات الشيعة وبحوث المعتزلة في هذا اللون من العلم، إضافة إلى بحوث أهل السنة ودراساتهم، وتتلمذ لعلماء مكيين ومدنيين، كما تتلمذ لآخرين يمانيين وعراقيين، وخلص من كل ذلك إلى منحى وسط بين مناهج أهل المدينة ومناهج أهل العراق، فهو لا يتجاوز نصاً قرآنياً أو نبوياً ثابتاً، ما وجد ذلك، ويروى أنه لما قدم بيت المقدس فصلى فيه وقال: سلوني عما شئتم أخبركم من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

وكذلك كان يقول: «إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلت».

ومن شعره في هذه الطريقة قوله:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة إلا الحديث وإلا الفقه في الدين
العلم ما كان فيه: قال حدثنا وما سوى ذاك وسواس الشياطين

ولعل ذلك مدعاة تسمية البغداديين له بناصر الحديث، ولعله أيضاً سر ميله عن أهل الكلام وكراهته المعتزلة وقوله فيهم: «حكمي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويحملوا على الإبل ويطاف بهم في العشائر والقبائل، يقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ بالكلام».

وقوله كذلك: «لو رأيت صاحب بدعة يمشي على الهواء ما قبلته».

ومع ذلك فهو يعمل بالقياس والاستدلال وتفريع المسائل من أصولها، عندما لا يجد النص القرآني أو النبوي، ويأخذ بالإجماع وآثار الصحابة التي لم يختلفوا فيها، ويتحرى ما قرب من الكتاب والسنة أو رجحه القياس فيما اختلفوا فيه منها.

وأغلب الظن أن استقرار الشافعي على هذا المنهج في دراساته قد تعاقبت عليه مرحلتان، إذ من المعروف أنه كان حتى عام مئة وأربعة وثمانين يتبع مسلك الإمام مالك، غير أنه لما اطلع على أهل الرأي في العراق أعاد النظر في بعض أحكام فقيه المدينة، ويمكن أن نعد ذلك مرحلة أولى استمر عليها حتى مجيئه إلى مصر سنة تسع وتسعين ومئة، وهنالك عمق مجراه في سبيلها، وقد أبان هو عن ذلك فقال: «إنما رجعت إلى أقوالي الجديدة أي لما دخلت مصر بلغني أن بالمغرب قلنسوة من قلانس مالك يستسقى بها الغيث، فخفت أن يتمادى الزمان ويعتقد فيه

ما اعتقد في المسيح، فأظهرت خلافه ليعلم الناس أنَّه إمام مجتهد يخطئ ويصيب» وهذه مرحلة ثانية.

وتبتدئ طرائق الشافعي في البحث الفقهي وأحكامه التي نفذ إليها في مصنفاته القيمة التي تجاوزت مئة وثلاثة عشر مؤلفاً في الفقه والحديث والتفسير والأدب... وقد ذكر ابن النديم منها ما ينيف على مئة وخمسة كتب قال فيها الجاحظ: «نظرت في كتب الشافعي فإذا هي درٌّ منظوم لم أر أحسن تأليفاً منه».

ومما في أيدينا من هذه المؤلفات كتاب «الرسالة» الذي صنفه استجابة لعبد الرحمن بن المهدي الفقيه العراقي الذي «التمس من الإمام الشافعي وهو شاب أن يضع له كتاباً يذكر فيه شرائط الاستدلال بالقرآن والسنة والإجماع والقياس وبيان الناسخ والمنسوخ ومراتب العموم والخصوص، فوضع الشافعي كتاب الرسالة وبعثها إليه». ومن المؤكد أن الإمام الشافعي قد رجع فيها بصره ـ على عادته في تحكيك آثاره ـ وعدَّل فيها إلى أن استوت على هذا النحو الرائق المعجب، وقد قام الأستاذ القاضي أحمد محمد شاكر بتحقيقها في سفر ضخم قال في مقدمته: «إن أبواب الكتاب ومسائله التي عرض الشافعي فيها للكلام على حديث الواحد والحجة فيه، وإلى شروط صحة الحديث، وعدالة الرواة، ورد الخبر المرسل والمنقطع، إلى غير ذلك، أدق وأعلى ما كتب العلماء في أصول الحديث، بل إن المتفقه في علوم الحديث يفهم أنَّ ما كُتِبَ بعده إنما هو فروع وعالة عليه».

وتبدو الظاهرة الأخيرة أيضاً في المصدر الأساسي لدراسة فقه الإمام الشافعي وهو كتاب الأم الذي كتبه في العراق أوَّلاً وعرف باسم كتاب الحجة أو كتاب المبسوط، ثم نقِّح في مصر، وهو من كلامه كما كانت الرسالة من كلامه، إلا أن فيه بعض التعليقات أو التنبيهات التي أضافها

الربيع بن سليمان المرادي المتوفى سنة (٢٧٠ هـ) صاحب الشافعي وراوي كتبه، وهي تعليقات وتنبيهات غير خافية ولا يصعب ميزها. وقد طبع هذا المصنف الضخم في مصر ملحقاً به كتاب الرسالة الذي استغرق الجزء الأول من أجزائه السبعة، ومضافاً إلى هامشه كتاب مسند الشافعي وكتاب اختلاف الحديث له. وليس بعيداً أن تكون بعض أبحاث هذه المجموعة المطبوعة مما ألَّفه الشافعي مفصولاً عن هذا الكتاب، ثم جاء النساخ فضموها إليه، وذلك مثل كتاب اختلاف مالك والشافعي وكتاب سير الأوزاعي في الجزء السابع.

ويدور كتاب الأم حول فقه الإمام محمد بن إدريس، والأحكام الشرعية التي أدى إليها اجتهاده، وفيه بعض أصول الفقه، سوى الرسالة.

وأسلوب الشافعي في الأم، كما في الرسالة، مسترسل متلاحق الفكر ويفصل المعاني دون تكلف ولا التواء.

ومن مؤلفات الشافعي (كتاب السنن) في الحديث النبوي، وهو مرويٌّ عن صاحبه إسماعيل بن يحيى المزني المتوفى سنة (٢٦٤ هـ) وكثرته الغالبة أحاديث مرفوعة إلى رسول الله ﷺ، وفيه إلى ذلك موقوفات للصحابة ومقاطيع يمثلها الشافعي نفسه، وهو مرتب على أبواب الفقه.

وكما ترك الإمام الشافعي مجموعة من الأشعار مفرقة في بطون كتب الفقه والحديث والأدب والتراجم، وهي مجموعة تسلك في الشعر الديني الذي يهتف بالخير وينمي نوازع الإنسان الصالحة المتسامية لتزداد وتقوى، ويدعو إلى مجاهدة ما فيه من ميول وأهواء ورغائب تنتهي به ـ إن تولاها ـ إلى الانحدار والارتكاس والهبوط، ومن هنا كانت الحكمة أوَّل أغراض الشافعي في قريضه.

وتدور الحكمة حول التأمل والتفكّر وما يكون وراءه من اعتبار

بالتجارب العريضة، وما يستخلص منها من أمثال ناطقة وقواعد هادية، وما يدفع ذلك إليه من زهد ونصائح وأخلاق.

فهو يتبصر في معاده المحتوم هل هو جنة هنية أو نار متلظية؟ فإن من يدري هول ذلك اليوم ليذرف الدمع تلو الدمع، بل يبكي الدم بدل الدمع، ويقطع الليل تفكيراً وذكراً، ويقل الكلام فيما سوى الذكر:

فيا ليت شعري هل أصير لجنَّة ... فأهْنا، وإمَّا للسَّعير فأندما
فَلِلَّهِ دَرُّ العارِفِ النَّدْبِ إنَّهُ ... تَفيضُ لِفَرطِ الوَجدِ أجفانُهُ دَما
يُقيمُ إذا ما اللَّيلُ مَدَّ ظَلامَهُ ... عَلى نَفسِهِ من شِدَّةِ الخَوفِ مَأْتَما
فَصيحاً إذا ما كانَ في ذِكرِ رَبِّهِ ... وَفيما سِواهُ في الوَرى كانَ معجِما

ذلك المصير هو المهيب الرهيب، وهو ما يخالف مألوف الشدائد في هذه الفانية خلافاً كبيراً، الدنيا زائلة قصيرة وإنّ أيامها لآتية على كل نعيم فيها وكل ضنك وجائحة:

فعواقبُ مكروهِ الأمورِ جبارُ ... وأيّام شرٍّ لا تدومُ قِصارُ
وليسَ بباقٍ بؤسُها ونعيمها ... إذا كرَّ ليلٌ ثمَّ كرَّ نهارُ

فكم من طاغ في هذه الحياة قد أسرف في بغيه ثم انتكس فجأة وأحاطت به هموم ثقال ومصائب فادحة، فكانت هذه بتلك جزاء مقسطاً وثواباً غير جائر:

تحكَّموا فاستطالوا في تحكُّمهم ... عما قليل كأنَّ الحُكْمَ لم يكنِ
لو أَنْصفوا أُنصِفوا؛ لكن بَغَوْا فبغى ... عليهم الدَّهرُ بالأحزانِ والمحنِ
فأصبحوا ولسان الحال ينشدهم ... هذا بذاك ولا عتبٌ على الزمن

وكان هذا التفكر الطويل يدفع الإمام الشافعي إلى التبصُّر في تجارب الحياة الواسعة، واستشراف عِبرها الواعية وقواعدها الحكيمة المصطفاة. ومن تلك العبر أن من غير الإصابة الراشدة أن يوهب الإنسان الخير ثم لا ينفقه في سبيل الله ليكسب ثواب مولاه وشكور الناس، أو لا يقطف

ثمار ما أوتيه من الحظ العجيب الذي يقرب المستبعد ويحل المعضلات، ولا تستغرب أن يورق يابس العيدان إذا أصاب محظوظاً، ولا تستغرب أن يطير من يد المحروم ما كان يريد أن يبلَّ به ظمأه، وما ذلك لقلة حيلة المحروم ولا خفة عقله، بل لأن الإنسان إما أن ينال فكراً مبصراً أو غنى باذخاً ولكنهما ليسا يجتمعان معاً في يده، وهذا ما يدعو أولي الأحلام والعزائم أن يتمنوا لو أن لهم على نعمهم العقلية وخصائصهم المعنوية سعة في المال، وهذا ما يدعو أيضاً إلى الإيمان بالقضاء الحق المهيمن:

إنَّ الَّذي رُزِقَ اليَسَارَ وَلَمْ يصبْ ... حمداً ولا أجْراً لَغيرُ موفَّقِ
فالجدُّ يدني كلَّ أَمْرٍ شَاسع ... والجدَّ يَفْتَحُ كُلَّ بابٍ مغلقِ
فإذا سَمِعْتَ بِأَنَّ مجدوداً حوى ... عوداً فأثمر في يديه فصَدِّقِ
وإذا سَمِعْتَ بِأَنَّ مجذوذاً أتى ... ماءً ليشربَهُ فَغَاضَ فَحَقِّقِ
لَو كان بالحِيَلِ الغِنَى لَوَجَدْتَني ... بأجَلِّ أسبابِ السَّمَاءِ تَعَلّقي
لكنَّ مَنْ رُزِقَ الحجا حُرِمَ الغنى ... ضِدان مُفْتَرِقَان أيَّ تَفَرُّقِ
وَمِنَ الدَّلِيْلِ على القضاءِ وكونهِ ... بؤسُ اللَّبيبِ وَطيبُ عيشِ الأحمقِ
وأحقُّ خَلْق الله بِالْهمِّ امرؤٌ ... ذو هِمَّةٍ يَبْلَى بعيشٍ ضيِّقِ

وعلى نحو هذه الخواطر التي تعتري المرء في بعض الأحيان يؤكد الشافعي أن أحداً لا ينال حكمة ولا يحوز معرفة إذا كان يفني عمره وهو يسعى وراء القوت وسدِّ رمق عيلته، أو كان مشغول الفكر مرهقاً بالهموم، وإن لقمان الحكيم الذائع الصيت لو كان ابتلي بالفقر وأُثقل بالأهل والولد لما أوتي شيئاً مما أوتي، ولما قدر أن يميز التبن من البقل:

لا يدركُ الحكمةَ مَنْ عمرُهُ ... يكدحُ في مصلحةِ الأَهْلِ
وَلاَ يَنَالُ العلمَ إلاَّ فتىً ... خالٍ مِنَ الأَفْكَارِ وَالشُّغْلِ
لَوْ أَنَّ لُقْمَانَ الحكيمَ الَّذيْ ... سَارَتْ بِهِ الرُّكْبَانُ بِالفَضْلِ
بُلِيَ بِفَقْرٍ وَعِيالٍ لَمَا ... فَرَّق بَيْنَ التِّبْنِ وَالبَقْلِ

ومن القواعد التي اجتباها الإمام الشافعي ألا يلتفت إلى سفه الحمقى ولا خصام الجاهلين، وبذلك يقمع الشر عنه ويصون عرضه:

قالوا سَكَتَّ وَقَدْ خُوْصِمْتَ قُلْتُ لهم ... إِنَّ الجَـوَابَ لِبَـابِ الشَّـرِّ مفتـاحُ
والصَّمْتُ عَنْ جَاهِلٍ أَوْ أَحْمَقٍ كَرَمٌ ... وفِيْهِ أَيْضَاً لِصَوْنِ العِرْضِ إِصْلاَحُ

وقد يسلك مع هؤلاء ـ لاتقاء سفههم ـ طريقة غريبة، فيماشيهم على حمقهم حتى يُظَنَّ منهم، وما هو منهم، وإنه لمعاقلهم لو كانوا يعقلون:

وَأَنـزلَنـي طُـولُ النَّـوى دَارَ غـربـة ... إذا شِئتُ لاقيتُ امرءاً لا أُشاكِلُهُ
أُحَـامِقُـهُ حَتَّـى يُقَـالَ سَجِيَّـةٌ ... وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلٍ لَكُنْتُ أُعَاقِلُهُ

إن إفاضة العلم على أمثال أولئك تفريط به وإضاعة له، لأن غراسه لا تثمر في تربتهم أبداً، وما أشبه من يبذر علمه فيهم بمن يبني العمارة ثم يهدمها بيديه:

فَمَـنْ حَـوى العِلْـمَ ثُـمَّ أَوْدَعَـهُ ... بِجَهْلِـهِ غَيْـرَ أَهْلِـهِ ظَلَمَـه
وَكَـانَ كَـالْمُبتنـي البِنَـاءَ إِذَا ... تـمَّ لَـهُ مَـا أَرَادَهُ هَـدمَـهْ

حقاً إن العلماء والسفهاء لعلى طرفي نقيض، فهؤلاء لا يقيمون لعارف وزناً ولا يقدرون له علماً، بل يلجُّون في مخالفة مقالاته ما استطاعوا، وهو من جانبه يسأم عشرتهم، ويتجانب مجالسهم، ولا يحظيهم من لدنه أي ميل أو تبجيل:

ومنـزلـةُ السَّفيـهِ مـن الفقيـهِ ... كَمنـزلـةِ الفقيـهِ مِـنَ السَّفيـهِ
فهـذا زاهـدٌ فـي عِلْـمِ هَـذا ... وهـذا فيـه أزهـدُ منـهُ فيـهِ
إِذَا غلـبَ الشَّقـاءُ علـى سفيـهٍ ... تنطَّـعَ فـي مخـالفـةِ الفقيـهِ

ومن القواعد التي استخلصها الشافعي: أن أحداً لا يسلم من ألسنة الناس، أو سفهاء الناس، حتى المصطفى ﷺ! إنَّ هؤلاء إذا رأوك صامتاً رموك بالبكامة، وإذا وجدوك فصيحاً اتهموك بالثرثرة، وإذا ألفوك صائم

نهار قائم ليل قذفوك بالرياء، فاضرب عن أقوال أولئك صفحاً ولا تلتفت إليهم أيّ التفاتة، ولا تخش إلا الله عزَّ وجلَّ وحده:

وَمَا أَحَدٌ مِنْ ألسنِ النَّاسِ سَالماً ... وَلَو أنَّهُ ذَاكَ النَّبِيُّ المطهَّرُ
فإنْ كَانَ سِكِّيتاً يقولون أَبْكَمُ ... وإنْ كانَ مِنطيقاً يقولونَ أَهْذَرُ
وإنْ كَانَ صَوَّاماً وبالليل قائماً ... يقولون زرّاق يرائي ويمكرُ[1]

ومما كان يعاملهم به الإمام الحكيم في بعض الأحيان أن يستقبل ترهاتهم على مرارتها ـ بوجه بش، وكأنها مدعاة حبور لا أحزان، كل ذلك مجانبة للشر، وحسماً لأسبابه:

ولقد أسمعُ القولَ الَّذي كادَ كُلَّما ... تُذَكِّرنيهِ النَّفسُ قلبي يَصَدَّعُ
وأُبدي لمن أبداهُ مِنّي بَشَاشَةً ... كأنّي مسرورٌ بِما منهُ أسمعُ
وما ذاكَ مِنْ عُجبٍ بِهِ غيرَ أنَّني ... أرى تركَ بعضَ الشَّرّ للشَّرّ أقطعُ

ومن حكم الشافعي الخابرة أنَّ الصديق من ينصر أخاه حين الشدة ويؤازره فيها:

صديقٌ ليس ينفعُ يوم بأسٍ ... قَريبٌ مِن عدوٍّ فِي القياسِ
ولا يُبغَى الصَّديق بكلِّ عصرٍ ... ولا الإخوانُ إلا للتَّأسِّي

وكثيراً ما كانت تحول هذه القواعد الفكرية إلى ضرب من الأمثال السائرة والعبر الجامعة، ومن هذا الطراز أنَّ من الشقاء أن يحب المرء من لا يحبه، وأن يحرص هو على خيره، بينما الآخر يبغي ضره:

ومِنَ الشَّقاوةِ أنْ تُحبَّ ... ومَنْ تُحبُّ يُحبُّ غيرَك
أو أنْ تُريدَ الخيرَ للإنسانِ ... وهو يريدُ ضَيرَك

وهذا آخر يريد صادقاً أن ينفع فإذا به يضر:

رام نفعاً فضرَّ مِنْ غيرِ قَصدٍ ... ومِنَ البر ما يكونُ عُقوقاً

---

(١) الهادر: الساقط، الزُّرق: الكذب.

وهذا طبيب يعالج مرضاه وهو نفسه سقيم، فكيف يكحل العيون من لا يبصر؟!

جاءَ الطبيبُ يَجُسُّنِي فجسستُه   فإذا الطبيبُ لما بِهِ مِنْ حالْ
وغدا يُعالجُني بِطُولِ سِقامِهِ   ومِن العجائبِ أعمشٌ كحَّالْ

ويبين الشافعي أن على الطالب المجد أن يكدح ويجد ويدأب، وإلا ما تحقق له مطمح ولا حاز من المجد شيئاً:

بقَدرِ الكَدِّ تُكتَسَبُ المعالي   ومَنْ طلبَ العُلا سَهِرَ اللَّيالي
وَمَنْ رامَ العُلا من غيرِ كَدٍّ   أَضَاعَ العُمرَ في طلبِ المُحالِ
ترومُ العزَّ ثُمَّ تنامُ ليلاً   يغوصُ البحرَ مَنْ طَلَبَ اللآلي

غير أن العمل والأخذ بالسبب لا يكفي وحده فإن ثمة توفيقاً وقَدَراً، وإن العُقاب على قوّته يطعم الجيف النتنة، وإن الذباب على قلة شأنه لينال أشهى ضروب العسل:

أَكَلَ العُقابُ بِقوَّة جِيَفَ الفَلا   وجنى الذُّبابُ الشَّهدَ وهو ضعيفُ

ومن هذا اللون من خلاصات الحكمة عند الشافعي أن الإنسان هو القيم على أسراره، فإن هو أفشاها إلى أحد سواه كان ذلك أدعى إلى نشرها لا كتمها.

إذا المرءُ أفشى سِرَّه بلسانِهِ   ولامَ عَلَيْهِ غيرهُ فَهُوَ أَحْمَقُ
إذا ضاق صدرُ المرءِ عَنْ سِرِّ نفْسِهِ   فصدرُ الَّذي يُستَودَعُ السرَّ أضيقُ

ومن ذلك تصويره لحال الغريب عن أهله وبلده، فإنه يظل في قلق ووحشة واشتياق:

إنَّ الغَرِيْبَ لَهُ مَخَافَةُ سارقٍ   وخضوعُ مديونٍ وذِلَّةُ وامِقِ
وإذَا تَذَكَّرَ أهلَهُ وبلادَهُ   ففؤادُهُ كَجَنَاحِ طيْرٍ خافقِ

كل ذلك كان يدفع الشافعي إلى زهادة عفيفة ونظرة مرفوعة تأبى

التهالك على أبواب الحكام الذين إذا غضبوا بغوا وإذا لم يغضبوا إذا هم يسأمون، فالإمام الحكيم يستغني بالله عن مَنِّهم والتزلف إليهم:

إنَّ الملـوكَ بَـلاء حَيْثمـا حَلُّـوا فَـلاَ يكُـنْ لـكَ فـي أبـوابِهـم ظـلُّ
مـاذا تُـؤمِّـلُ مِـن قـومٍ إذا غضبـوا جاروا عليكَ وإنْ أرضَيتَهم مَلُّوا
فاستغنِ بالله عن أبوابهم كرماً إنَّ الـوقـوفَ عَلَـى أَبْـوَابِهـم ذُلُّ

إنَّ القلة المدقعة لمَوتٌ موروود وهلاك مرٌّ مذاقه، لكن ذل الضراعة ليس بأقل من ذاك إيلاماً، إيثار الفناء مع شرف الكرامة خيرٌ من إهانة النفس بِذُلِّ السؤال:

لـذلُّ السـؤالِ وهـولُ الممـاتِ كـلاهُ وجـدنـاهُ طعمـاً وَبِيـلا
فَـإن كـان لا بُـدَّ إحـداهمـا فمشياً إلى الموتِ مشياً جميلا

إن الرضا بأيسر أكلة، والكفاية بأقل شربة، خير من شراهة الحرص، أو إراقة ماء الوجه على عَتَب اللئام:

أُقْسِـمُ بِـاللهِ لَـرضْـخُ النَّـوى وشُـرْبُ مـاءِ القُلُـبِ المـالحـه
أحسـنُ بـالإنسـانِ مِـنْ حـرصـهِ ومِـنْ سـؤالِ الأوجُـه الكـالحـه

أجل أن يطعم المرء خبز الشعير مأدوماً بملح محض، وأن يضرب في أرض الله إلى أي مكان يكسب فيه رزقه، ويصون كرامته؛ خير له من أن يخفض رأسه لأحد إلا لمولاه اللطيف الخبير:

كُلْ بِملحِ الجريشِ خبزَ الشَّعيرِ واعتقـبْ للنَّجـاةِ ظهـرَ البعيـرِ
وَجبِ المهمهَ المخُوفَ إلى طنـ ـجةَ أو خلفَهـا إلـى الـدُّردُورِ
وصُنِ الوَجْهَ أَنْ يذلَّ وأن يخضـ ـعَ إلا إلـى اللَّطيـفِ الخبيـرِ

وواضح من خطاب الشافعي أنه لا يعف عن الدنيا ومطامعها فحسب، بل أيضاً يدعو لذلك وينصح به، يقول في موضع آخر:

لا تـأسَ فـي الـدُّنيـا على فـائتٍ وَعِنْـدَكَ الإسْـلامُ وَالعَـافِيـه
إنْ فَـاتَ أَمْـرٌ كُنْـتَ تَسْعَـى لَـهُ ففيهِمـا مِـنْ فَـائِـتٍ كَـافيـه

ويعود تارة ثالثة فيعظ الزهاد باتقاء الشبهات، ومجانبة المرء لما لا يعنيه وتطهير نيته في كل أمر فيقول:

عُمْـدَةُ الخَيْـرِ عِنْـدَنـا كَلِمَـاتٌ   أربـعٌ قـالهـنَّ خيـرُ البـريَّـه
اتَّـق الشُّبهـات وازهَـدْ وَدَعْ مَـا   لَيْـسَ يَعْنِيْـكَ وَاعْمَلَـنَّ بنيَّـه

ومما هدي إليه الشافعي ألا يبذل الإنسان مواعظه لمن لا يرغب فيها، ذلك أنه لن يحمد عليها من جهة، ولن تنفع المنصوح الراغب عنها من جهة أخرى:

لا تُعطِيـنَّ الـرَّأيَ مَـنْ لا يُـريـدهُ   فَلا أنْتَ مَحْمُودٌ وَلا الرَّأيُ نافعُه

ومن مواعظه لطلبة العلم أن يصبروا على ما قد يرونه من أساتذتهم من جفاء في بعض الأحيان، فإن ذلك الصبر على مرارته خير من البقاء في عماية الجهل طول العمر، ويوصي الشافعي بالحرص على هذه الفضيلة منذ غضاضة الأعواد، ويبين أن العلم والتقوى هما الحياة بل لبُّ الحياة:

تَصَبَّر عَلَى مُرِّ الجفا مِنْ مُعلِّمٍ   فـإنَّ رُسـوبَ العِلْـمِ فِـيْ نَفَـرَاتِـهِ
وَمَنْ لَمْ يَذُقْ ذُلَّ التَّعَلُّمِ سَاعَةً   تَجَـرَّعَ ذُلَّ الجهـلِ طُـولَ حَيَـاتِـهِ
وَمَـنْ فَـاتَـهُ التَّعليْـمُ وَقْـتَ شَبَـابِـهِ   فَكَبِّـر عَلَيْـهِ أَرْبَعَـاً لِـوَفَـاتِـهِ
حَيَـاةُ الفَتَـى وَاللهِ بِـالعِلْـمِ وَالتُّقَـى   إذَا لَـمْ يَكُـوْنَـا لاَ اعتِبَـارَ لِـذَاتِـهِ

والناظر في شعر الإمام الشافعي يجد إيثار العلم من محامد الأخلاق التي أخذ بها نفسه ودعا إليها سواه، فذلك مكرمة رافعة، وخصلة نافعة، وهو وسيلة السعادة والفقه والاستبصار:

رأيـتُ العِلْـمَ صَـاحِبُـهُ كَـرِيْـمٌ   وَلَـوْ وَلَـدَتْـهُ آبَـاءٌ لِئَـامُ
وَلَيْـسَ يَـزَالُ يَـرْفَعُـهُ إلـى أَنْ   يُعظِّـمَ أَمْـرَهُ القَـومُ الكِـرَامُ
وَيَتَّبِعُـوْنَـهُ فِـيْ كُـلِّ حَـالٍ   كَـرَاعِـيْ الضَّـأنِ تَتْبعُـهُ السَّـوَامُ
فَلَـوْلا العِلْـمُ مَـا سَعِـدَتْ رِجَـالٌ   وَلاَ عُـرِفَ الحَـلالُ وَلاَ الحَـرامُ

وتكثر دعوة الشافعي إلى هذا الخلق المحمود والتماسه، ذلك أنه يجلو عن القلوب رين الجهالة، ويعين على فهم الدِّين، وبراءة النفس من مذمة الجهل، والهرم عليها، وينصح أبو عبد الله بلزوم رواة العلم، ويعيد كما كان يبدي أن من أعظم منافع المعرفة أنها تهيء الأنفس للرَّشاد واستيعاب ما نزل به الوحي:

مَعَ العِلْمِ فاسلُكْ حَيْثُما سَلكَ العِلْمُ   وَعَنْهُ فَسائِلْ كُلَّ مَنْ عِنْدَهُ فَهْمُ
ففيهِ جَلاءٌ للقُلُوبِ مِنَ الْعَمَى   وَعَوْنٌ عَلَى الدِّيْنِ الَّذي أَمْرُهُ حَتْمُ
فإنِّي رَأَيْتُ الجهلَ يَزْرِيْ بِأَهْلِهِ   وَذو العِلْمِ فِيْ الأَقْوَامِ يَرْفَعُهُ العِلْمُ
فأيُّ رَجَاءٍ فِيْ امرئٍ شابَ رَأْسُهُ   وَأَفْنَى شَبَابَاً وَهُوَ مستعجمٌ فَدْمُ
وَهَلْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ أَقبحَ مَنْظَرَاً   مِنَ الشَّيْبِ لاَ عِلْمٌ لَدَيه وَلاَ حلمُ
وَخَالِطْ رواةَ العِلْمِ وَاصحَبْ خِيَارَهُمْ   فَصُحْبَتُهُمْ نَفْعٌ وَخلطَتُهُمْ غُنْمُ
وَلاَ تَعدون عَيناكَ عنهمْ فإنهم   نجومُ هدىً مَا مِثلهمْ فِي الورى نجمُ
فَواللهِ لَولا العلمُ مَا فَصَحَ الهُدَى   وَلاَ لاَحَ مِنْ غَيْبِ السَّماءِ لَنَا رَسْمُ

ومن الأخلاق التي أعلى من شأنها إلى أبعد غاية حبُّ السخاء فهو يتلهف على مال يجود به على المعسرين من ذوي المروءة لكيلا يتألم إذا التمسوا نواله فاعتذر لقلة ذات يده:

يا لهفَ نفسي على مالٍ أفرِّقُهُ   عَلَى المقلِّينَ مِنْ أهلِ المروءاتِ
إنَّ اعتذاري إلى من جاء يسألني   ما ليس عندي مِنْ إحدى المصيباتِ

ويدعو كانز المال أن ينفقه على نفسه ليتنعم، وعلى غيره ليحتسب الأجر، وبذلك لا يكون كمن لا يسخو إلا إبان النزع حيث لا يجديه الوهب كثيراً:

يا جَامِعَ المالِ تَرْجو أَنْ تَفوزَ بِهِ   كُلْ مَا أكلت وقدِّمْ للموازينِ
وَلا تكن كالَّذي قد قال إذ حضرتْ   وفاتُه: ثلث مالي للمساكينِ

ومن محامد الأخلاق في شعر الشافعي فضيلة العفو، فهو يصفح عمن

وقع في النيل منه، من أجل ألا يردى أحد من أمة محمد ﷺ، في سبيل وزر منوط به يوم الحساب:

مَنْ نالَ منّي أو علقتُ بِذمَّتهْ أبرأتُهُ للهِ شاكرَ مِنَّتِهْ

أأُرى مُعَوِّق مؤمنٍ يومَ الجزا أو أَنْ أسوءَ محمداً في أمتهْ؟

إن خيراً من مؤاخذة هؤلاء المؤمنين أن يلتفت كلٌّ إلى نفسه لتزداد تقوى إلى تقواها، فيكون مثله في ذلك مثل السقيم الذي تلهيه آلامه عن أسقام سواه:

والمرءُ إن كانَ عاقلاً وَرِعاً يشغلُهُ عَنْ عيوبِهم وَرَعُهْ

كَمَا العليلُ السَّقيمُ يَشْغلُه عَنْ وَجَعِ النَّاسِ وجعهْ

هكذا سبيل التقوى، خلق صفوح وإحسان وضيء، وهجران لكل سيئة:

فَدَعْ عَنْكَ سوءات الأمورِ فَإِنَّهَا حَرَامٌ عَلَى نَفْسِ التَّقِيِّ ارتِكَابُهَا

وَأَحْسِنْ إلى الأحرارِ تَمْلِكْ رقابهمْ فخيرُ تجاراتِ الكرامِ اكتسابُها

ومع الحكمة ـ أكبر أغراض الشافعي في قريضه ـ كان له شعر في الصداقة والفخر والمدح والهجاء. ومما احتفظت له المصادر في الصداقة بيتان كتبهما إلى محمد بن الحسن لما اتُّهم بممالأته على الرشيد، يقول:

لستُ أدري ما حيلتي غيرَ أَنِّي أرتجي مِنْ جميلِ جاهِكَ صُنْعا

والفتى إنْ أَرَادَ نفعَ صديقٍ فهو يدري في أمرِهِ كَيْفَ يَسْعَى

ولما أعانه على إثبات براءته وفسح له في مكتبته حتى ينسخ أئمة كتب الأحناف لذلك العهد، حدث أن تأخر في إحدى المرات عن تعجيل إعارته له لبعض المصنفات فأنفذ الشافعي إليه:

قل للَّذي لم ترَ عينا مَن رآهُ مثلَهُ

وَمَنْ كَأنَّ مَنْ رآهُ قَدْ رَأى مَنْ قبلهُ

العلمُ ينهى أهلَهُ أن يمنعوهُ أهلَهُ

فبعث إليه بتلك المصنفات.

ومن آثار الشافعي في هذا الشأن بيتان قالهما في محمد بن عبد الحكم، وكان من أحب إخوانه في مصر إليه، وكان قد اعتلَّ:

مَرِضَ الحبيبُ فَعدتُه فَمرضتُ مِنْ حَذَري عَلَيْهِ
فَأتَى الحبيبُ يعودُني فَبَرِئتُ مِنْ نَظَرِيْ إليهِ

ومن شعر أبي عبدالله في الفخر بيتان يذكر فيهما ما وعاه من العلم النافع الذي يصحبه أينما حل، يقول:

علمي معي حيثما يمَّمت ينفعُني قلبي وعاءٌ له لا بطنُ صندوقِ
إنْ كُنتُ في البيتِ كانَ العِلْمُ فيه أو كُنْتُ في السُّوقِ كَانَ العلمُ فِي السُّوقِ

وأيضاً كان يفتخر بحب آل البيت فيقول:

يا راكباً قِفْ بالمحصَّب مِنْ مِنىً واهتفْ بقاعِدِ خيفها والناهضِ
سحَراً إذا فاضَ الحجيجُ إلى منىً فيضاً كملتطم الفُرَاتِ الفائضِ
إن كان رفضاً حُبُّ آل محمَّدٍ فليشهدِ الثَّقلانِ أنِّي رافضي

وواضح أن الشافعي يعبر عن حبه كأي مسلم لأهل البيت، إلا أن هذا لا يخول أحداً أن يسلكه في الروافض أو الشيعة، كما صنع بعض الدارسين، فأقوالهم مردودة وليست تقوم على أي دليل، ذلك أن الشافعي لم يكن يتبرأ من الشيخين أبي بكر وعمر، فَعْلَة المغالين الرافضين، بل كان يقدِّرهما إلى أبعد غاية ويقول: «أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضوان الله عليهم». وكان يصحح إمامتهم جميعاً، وكان كثير الطعن في الرافضية، وقد أثرت عنه أبيات يبين فدامة ـ قلة الفهم والحماقة ـ من إذا رآه يذكر علياً حشره مع أتباعه المغالين فيه، ومن إذا ألفاه يمدح أبا بكر سلكه في الناصبية الذين يبغضون الإمام أبا الحسن، وكل ذلك أحكام جائرة وأفهام مائلة هو منها براء:

إذا نحن فضَّلنا عليّاً فإنَّنا روافِضُ بالتَّفضيلِ عندَ ذوي الجَهْلِ

وفضلُ أبي بكرٍ إذا ما ذكرتُهُ رُميتُ بنُصْبٍ عِنْدَ ذكري للفضلِ
فَلا زلتُ ذَا رفضٍ ونصبٍ كلاهما بِحُبَّيهِمَا حتى أوسَّدَ في الرَّمْلِ

ويزيد ما تقدم وضوحاً أننا نجد الشافعي في مديحه يقدر الخلفاء الأربعة الراشدين جميعاً فيقول:

شهدتُ بأنَّ الله لا ربَّ غيرُهُ وأشهدُ أنَ البعثَ حَقٌّ وأخلصُ
وأنَّ أبا بكرٍ خليفةُ ربِّهِ وكان أبو حفص على الخيرِ يحرصُ
وأُشْهِدُ ربي أنَّ عثمانَ فاضلٌ وأنَّ عَليَّاً فضلُهُ متخصِّصُ
أئمةُ قوم يُهتدى بهداهُمُ لحا الله مَنْ إيَّاهُمُ يَتَنَقَّصُ
فما لعُتاةٍ يشهدونَ سفاهةً وما لسفيهٍ لا يحيصُ ويحرصُ

ومما بقي من أشعاره في الهجاء بيتان يحمل فيهما على المفرطين بالرأي الذين لا يتحرون ما في قضاياهم من حديث نبوي، يقول:

لَمْ يَبْرَحِ النَّاسُ حَتَّى أَحْدَثوا بِدَعَاً فِيْ الدِّينِ بالرَّأيِ لَمْ يُبعثْ بها الرُّسلُ
حَتَّى استخفَّ بحقِّ اللهِ أكثرُهم وَفي الَّذي حُمّلوا مِنْ حقِّهِ شُغُلُ

وكذلك يحمل على أولي الأثرة الذين أنطقتهم الدراهم بعد طول سكوت فيقول:

وأنطقتِ الدَّرَاهِمُ بَعْدَ صَمْتٍ أُنَاسَاً بَعْدَ أَنْ كَانُوا سُكُوتا
فَمَا عَطَفُوا عَلَى أَحَدٍ بِفَضْلٍ وَلا عَرَفوا لمكرُمةٍ ثبوتا

ولعله اتضح من الأمثلة الكثيرة المتقدمة من شعر الشافعي أنه شعر حسن بصورة عامة، ويكاد دائماً يحوز فضيلة المعنى الشريف والفكرة العفيفة، وتلك إحدى المقومات الأساسية لكل فن يبتغي لنفسه الإعزاز والتقدير والسمو، ولا بأس أن أسوق الآن هذا النموذج مثلاً للسمات الغالبة على قريضه، يقول في الفقر:

ماذا يخبِّر ضيفُ بيتكَ أهلَهُ إنْ سيلَ كَيْفَ معادُه ومعاجُهُ؟
أيقولُ جاوزتُ الفراتَ ولَمْ أَنَلْ ريّاً لديهِ وَقَدْ طَغَتْ أَمْوَاجُهُ؟

ورقيتُ في درجِ العُلا فتضايقتْ عَمَّا أريد شعابُه وفجاجُهُ
ولتخبرنَّ خَصَاصَتي بِتملُّقي وَالماءُ يخبرُ عن قذاهُ زُجاجُهُ

فهو يتمنى المقدرة على أسباب الكرم، وذلك معنى سام وأمنية وضيئة، وهو في إيراده على هذه الشاكلة ليس بسطحي الطريقة داني المأخذ، وإن لم يكن في الوقت نفسه سحيق الغور بديع المسلك، ودائماً يجمع في الشعر مع شرف معناه الطرافة والدقة، وفي الأبيات حسرة عاطفية مؤثرة ورجاء صادقاً، وفيها تشبيه الكريم، وتصوير الأمواج الطاغية، والعلا المرفوع الدرجات، والسبل المتضايقة، والخصاصة المخبرة ، والزجاج الحاكي، وهي صور بديعة وإن كان بعضها خافت الروح.

والعبارات قوية و الألفاظ جزلة والتدفق عادي والتراكيب مألوفة.

إلا أن في شعر الشافعي في بعض الأحيان إبداعاً ظاهراً وجمالاً ألقاً، يقول في تربية النفس واختيار الصديق:

صُنِ النَّفْسَ وَاحمِلْها عَلَى مَا يزينُها تَعِشْ سَالِمَاً وَالقولُ فِيْكَ جَمِيْلُ
وَلاَ تُولِيَنَّ النَّاسَ إلا تجمُّلاً نَبَا بِكَ دَهْرٌ أَوْ جَفَاكَ خَلِيْلُ
وَإِنْ ضَاقَ رِزْقُ اليَوْمِ فاصْبِرِ إلى غَدٍ عَسَى نَكَباتُ الدَّهرِ عَنْكَ تَزُولُ
وَلاَ خَيْرَ فِيْ ودِّ امرِئٍ مُتلوِّنٍ إذَا الرِّيحُ مَالَتْ مَالَ حَيْثُ تَمِيْلُ

فمعانيه فاضلة تقوِّم النفس وتحلِّق بها في آفاق عالية صيِّنة، وتنجو بها من مصاحبة المنافق المقيت، وتزدان الأبيات بصورة النفس المحمولة على ما يزين ويرقي، وبتجسيم المصائب والأرزاق، وكشف الألوان المتقلبة لذي الوجهين أو الوجوه، وميلانه مع الريح التي يجعلها الإمام الشافعي مما يميل، ويكني بها عن الظروف والأحوال. والألفاظ رقيقة، والتراكيب محكمة، والسياق منساب، والقافية تتماشى معه في اتفاق وانسجام ، فيقول:

النَّاسُ بالنَّاسِ مادامَ الحياةُ بهمْ والسَّعد لا شكَّ تاراتٌ وهبَّاتُ
وَأَفضلُ النَّاسِ مَا بَينَ الوَرَى رَجُلٌ تُقضى على يده للنَّاس حاجاتُ
لاَ تَمْنَعَنَّ يَدَ المعْرُوفِ عَنْ أَحَدٍ مَا دُمْتَ مُقْتَدِراً فَالسَّعدُ تَارَاتُ
واشكر فضائلَ صُنْعِ اللهِ إذ جُعِلَتْ إلَيْكَ لا لَكَ عِنْدَ النَّاسِ حَاجَاتُ
قَدْ مَاتَ قَومٌ وَمَا مَاتَتْ مَكَارِمُهُمْ وَعَاشَ قَوْمٌ وَهُمْ في النَّاسِ أَمْوَاتُ

ويلفت في النص أن: (لا شك) عبارة غير مألوفة في ميدان الشعر، إلا أنها قد جاءت هاهنا حسنة الموقع منسجمة مع السياق، وكذلك العطف بـ (لا) ابتغاء قصر المعنى على ما سبقها من عوائد النثر لا الشعر، لكنَّ قصرها في البيت الرابع لتذكير المخاطب بما أوتيه من فضائل صنع الله، وانسجامها مع تراكيب البيت، ذلك جنَّبها أن تكون ناشزة أو غريبة، ويلفت نظرنا أيضاً تجسيم السعد فهو يهبّ هبوباً، وتجسيم المعروف فها هي ذي يده، وتشخيص المكارم فتلك هي حية، وتصوير الأشحة فهاهم أولاء ميِّتون على الرغم من أنهم يحسبون على الأحياء، وقد أحكم الروي الهامس (التاء) فكان مع القافية خاتمة طبعية لا متكلفة ولا مقسورة كما كان مناسباً للنصيحة الحكيمة التي تهمس ولا تشهر.

وانظر تقاسيمه الموسيقية المتتابعة المتدفقة التي تلائم سرعة الهبوب وعجلة الاغتنام وتوالي الخفقان في قوله:

إذا هَبَّتْ رياحُكَ فَاغْتَنِمْهَا فَعُقْبَى كُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونُ
وَلاَ تَغفلْ عَنِ الإِحْسَانِ فِيْهَا فَلاَ تَدري السُّكونُ مَتَى يَكُونُ

وانظر السياق المنسجم السلس المتلاحق في قوله:

نَعيبُ زَمَانَنَا والعَيْبُ فِيْنَا وَمَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا
وَنَهْجُو ذَا الزَّمَانَ بِغَيْرِ ذنبٍ وَلَوْ نَطَقَ الزَّمَانُ بِهِ هَجَانَا
وَلَيْس الذِّئبُ يَأْكُلُ لَحْمَ ذِئبٍ وَيَأْكُلُ بَعْضُنَا بَعْضَاً عِيَانَا

وانظر هذه التقاسيم المعنوية المفصلة:

إذا رُمْتَ أَنْ تَحْيَا سَلِيْمَاً مِنَ الرَّدَى ... وَ دِينُكَ مَوْفُورٌ وَعِرْضُكَ صَيِّنُ
لسانَكَ لاَ تَذكُرْ بِهِ عَوْرَةَ امرئٍ ... فَكُلُّكَ عَوْرَاتٌ ولِلنَّاسِ أَلْسُنُ
وَعَيْنُكَ إِنْ أَبدَتْ إِلَيْكَ مَعَايباً ... فَدَعْهَا وَقُلْ يَا عَيْنُ للنَّاسِ أَعْيُنُ
وعَاشرْ بمعْروفٍ وسَامِحْ مَنِ اعْتَدَى ... وَفَارِقْ وَلَكنْ بالتي هِيَ أَحْسَنُ

وإلى جانب مثل هذه الأمثلة من الإبداع الفني الذي يفوق مألوف شعره كان ثمة مواضع أخرى يهبط فيها قريضه عن هذا المألوف، فمرة نجد فيه نزعة نثرية خالية من النبض الشاعري الحيّ على جلال معانيها فيقول:

فسادٌ كبيرٌ عَالِمٌ مُتَهتِّكٌ ... وَأَكْبَرُ مِنْهُ جَاهِلٌ مُتَنَسِّكُ
هُمَا فِتْنَةٌ في العالمينَ عَظِيْمَةٌ ... لمنْ بِهِمَا في دينِهِ يتمسَّكُ

ومرة يجنح إلى عرض قضايا فقهية محدودة ثم يمعن أحياناً فيها حتى تشبه الألغاز، ويروى أن رجلاً جاء برقعة إليه مكتوب فيها:

رجلٌ مَاتَ وَخَلَّف رَجلاً ... ابنَ عمٍّ ابنِ أخي عمٍّ أبيهِ

فأجاب الشافعي في الحال:

صَارَ مَالُ المتَوفَّى كَامِلاً ... بِاجتماعِ القولِ لاَ مريةَ فِيْهِ
لِلَّذي أخبرتَ عنْه أنَّه ... ابنُ عمٍّ ابنِ أخي عمٍّ أَبِيْهِ

والرجل الوارث هو والد المتوفى، والقصة تدل على ذكاء الشافعي رحمه الله وسرعة بديهته، ولعل من الواضح أنه قد اضطر إلى هذا اللغز اضطراراً ومن هنا ندر في شعره أشباهه.

على أن المؤكد أن لأيدي النساخ آثاراً واضحة في الطراز الأخير من شعره، ذلك أن النقاد القدماء أبانوا تقدمه في هذا الفن من القول، فذكر المبرد أن الشافعي كان من أشعر الناس، وشهد ابن العماد أنه كان مع جلالة قدره شاعراً مفلقاً مطبوعاً، وأبان أبو الفؤاد وعمر ابن الوردي أن

أشعاره فائقة، وأشار اليافعي من ناحية أخرى أن له من الأشعار ما يخرج عن حيز الانحصار، مع أن ما في أيدينا منها لا يتجاوز خمسمئة بيت.

والمصادر الكثيرة المستفيضة التي روت مقطوعاته الشعرية وقصائده، والتي ذكرت مجموعة منها في الهوامش في ديوانه، وافتخاره بحيازة هذه الموهبة الفنية وقوله: (الشعر كلام؛ فحسنه حسن وقبيحه قبيح)، كل ذلك يرجح أن ما ينسب من أن الشعر يزري بالعلماء أو أنه لا يكاد يجود شعر القرشيين، لأن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ وأن قوله: (لو كنت اليوم ممن يقول الشعر لرثيت المروءة) إن هي إلا أحكام أصدرها أول عمره ثم عدل عنها.

طبعات الديوان وعملي فيه:

لقد طبع ديوان الشافعي رضي الله عنه لأول مرة في مصر سنة ١٣٢١ هـ وهو عبارة عن مجموعة مختارة من المخطوط الذي وضعه (أحمد بن أحمد العجمي) وقد اختار هذه المجموعة الأستاذ محمد مصطفى الشاذلي، ولكني لم أعثر على هذا المختار رغم البحث الشديد، ثم عثرت على نسخة مطبوعة في القاهرة بمصر سنة ١٣٢٩ هـ وهي طبعة جمعها الأستاذ محمد إبراهيم هيبة وقد ذكر في مقدمة الديوان أنه جمع هذه الأشعار من بطون الكتب، وبعد ذلك توالت طبعات الديوان أغلبها شعبية، ولكن المتفحص لهذه الطبعات يجدها خالية من البحث عن مصدر هذه الأشعار وعزوها إلى مصادرها، فقررت أن أبحث في أصل هذا الشعر وعزوه إلى مصادره ولكن من أين أبدأ؟ فالطبعات كلها خالية من التأكد من مصدر هذا الشعر، فوجدت أن الطريق الوحيد للتأكد من صحة هذا الشعر هو الرجوع إلى الكتب التي ألفت في حياته، كمناقب الشافعي للبيهقي، ومناقب الشافعي للفخر الرازي، وتوالي التأسيس لابن حجر العسقلاني، وآداب الشافعي ومناقبه للرازي، والكتب التي ترجمت له كطبقات

الشافعية للسبكي، والأسنوي، والأسماء واللغات للنووي، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وفوات الوفيات، والبداية والنهاية لابن كثير، ومعجم الأدباء لياقوت ، وقد وقعت على شعر غير مطبوع في جميع الطبعات، وهو موجود في هذه الكتب، فتعجبت كيف غاب هذا الشعر كله عن هؤلاء الذين قاموا بطبع الديوان، فتأكدت أن الطبعات كلها نسخ مصورة بعضها عن بعض، ولم يكلف أحد من أصحاب هذه الطبعات نفسه جهداً أو بحثاً عن هذا الشعر، علماً بأن الذي ظفرت به يساوي ثلث الشعر المطبوع تقريباً، ومن فاته منه فقد فاته خيره، ولما انتهيت من البحث في الكتب التي ألفت في حياته، أو ترجمت له، وجمعت الشعر الذي ورد فيه؛ تابعت البحث في أمهات كتب الأدب كالأغاني، والعقد الفريد، والبيان والتبيين، والحيوان، وزهر الآداب، وعيون الأخبار، وأمالي القالي، وغيرها كثير، وقد أثبتُّ المصادر التي أخذت منها هذا الشعر في الحواشي فما كان صحيح النسبة مقطوع بصحته أثبته، والذي نسب إلى غيره ذكرت المصادر التي نسبت الأبيات للشافعي والمصادر التي ذكرتها لغيره، وأما الأبيات التي لم أقع على مصادرها فتركتها دون إشارة، وهكذا تجمَّع لدينا ثلاثة أنماط:

١ ـ قسم مقطوع بصحته للإمام الشافعي رضي الله عنه.

٢ ـ قسم مشكوك بصحته منسوب له ولغيره.

٣ ـ قسم لم أعثر على مصدر له رغم هذا البحث.

ثم تابعت عملي بإتمام الجزء الثاني من العمل وهو جمع حكم الإمام الشافعي رضي الله عنه المنثورة، لأن محور شعر الشافعي الحكمة، وهذه الحكم المنثورة قمت بجمعها من نفس الكتب التي جمعت منها شعره.

وقد ضبطت الأبيات بالشكل الكامل، وشرحتها شرحاً مفصلاً وافياً،

وهكذا جاء الكتاب جامعاً لحكم الإمام الشافعي رضي الله عنه الشعرية والنثرية، وأرجو أن أكون قد خدمت هذا الديوان لما فيه من فوائد جمة، ويكفي أنه لإمامنا الشافعي رضي الله عنه وأرضاه.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

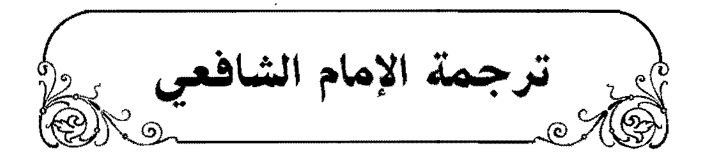
كتبه

محمود بيجو

دمشق ٦/ ربيع الثاني/ ١٤٢٩ هـ

١٢/ نيسان/ ٢٠٠٨ م

* * *



ترجمة الإمام الشافعي

هو محمد بن إدريس، قرشي من جهة الأب، يلتقي مع النبي ﷺ في عبد مناف؛ وقد روى الجرجاني (وهو من الحنفية) عن أصحاب مالك أن شافعاً جد الشافعي والذي ينسب إليه لم يكن قرشي الأصل، وإنما كان مولى لأبي لهب، وعلى ذلك يكون الشافعي مولى، ولكن قوله هذا لم يقره عليه علماء الأنساب، والظاهر أنه حمله على ذلك العصبية المذهبية فالصحيح أنه قرشي، والراجح أن أمه أزدية، والأزد من اليمن؛ وكان أبوه خرج في حاجة إلى الشام فولدت له الشافعي بغزة أو عسقلان سنة (١٥٠)، ثم مات أبوه فحملته أمه إلى مكة وهو ابن سنتين، وقد نشأ فقيراً كما حدَّث هو عن نفسه. رُوي عنه أنه قال: «كنت يتيماً في حجر أمي ولم يكن لها مال، وكان المعلم يرضى من أمي أن أخلفه إذا قام، فلما جمعت القرآن دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء فأحفظ الحديث أو المسألة، وكانت دارنا في شعب الخيف، فكنت أكتب في العظم، فإذا كثر طرحته في جرّة عظيمة» وفي رواية: «لم يكن لي مال فكنت أطلب العلم في الحداثة، فأذهب إلى الديوان فأستوهب منهم الظهور فأكتب فيها»؛ قال: «خرجت من مكة فلزمت هذيلاً بالبادية أتعلم كلامها وآخذ اللغة وكانت أفصح العرب»، وقد أفادته الإقامة في البادية مع قرشيته معرفة واسعة باللغة والشعر، أعانته على تفهم معاني القرآن والسنة فنراه يستشهد

على أن السعي معناه العمل في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]. يقول زهير:

سَعَى بعدَهُمْ قومٌ لكَي يدْرِكُوهُمُوا   فلم يفْعلُوا ولَمْ يُلِيمُوا ولم يأْلُوا

وبأن السر معناه الجماع في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥]. بأبيات لامرئ القيس وجرير الخ. كما أفادته قوة في التعبير وعربية رصينة في الأسلوب وذوقاً دقيقاً، حتى لقد قرأ عليه رجل فلحن، فقال له الشافعي «أضرستني»؛ وقد رُوي أن الأصمعي أخذ عنه شعر الهذليين وشعر الشنفرى، ثم اتجه إلى الحديث والفقه، فأخذ في مكة عن سفيان بن عيينة ومسلم بن خالد الزنجي، وحفظ الموطأ ثم رحل إلى مالك في المدينة وسمع منه الموطأ، وأخذ عنه فقهه، ولازمه إلى أن مات مالك سنة (١٧٩) ثم خرج إلى اليمن، وقد ذكر في رحلته إليها أسباب كثيرة أقربها: أن والي اليمن جاء مكة فكلمه بعض القرشيين أن يأخذ الشافعي ويوليه بعض الأعمال، ففعل وولاه بعض الأعمال، ثم اتهم بالتشيع وامتحن؛ والروايات كذلك مختلفة: هل اتهم هذه التهمة وهو باليمن أو بعد أن عاد إلى الحجاز؛ فإن ابن عبد البرِّ يروي أنه اتهم بالتشيع والميل إلى مبايعة علوي وهو بالحجاز، وابن حجر يروي روايات مختلفة كلها متفقة على أنه اتهم بذلك وهو في اليمن، والكل متفقون على النتيجة، وهي أنه حمل في هذه التهمة إلى هارون الرشيد، فنفى الشافعي التهمة وعفا عنه الرشيد، وكان ذلك نحو سنة (١٨٤)، وسن الشافعي نحو أربع وثلاثين سنة، ثم قدم بغداد سنة (١٩٥) وأقام بها سنتين ثم رجع إلى مكة، ثم قدم إلى بغداد سنة (١٩٨) فأقام فيها أشهراً، ثم خرج منها إلى مصر سنة (١٩٩)، وظل بها إلى أن مات سنة (٢٠٤). وفي أثناء إقامته بالعراق اتصل بمحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة وأخذ عنه فقه العراقيين، قال ابن حجر: «انتهت رياسة الفقه بالمدينة إلى

مالك بن أنس، رحل إليه (الشافعي) ولازمه وأخذ عنه، وانتهت رياسة الفقه بالعراق إلى أبي حنيفة، فأخذ (الشافعي) عن صاحبه محمد بن الحسن جملاً ليس فيها شيء إلا وقد سمعه عليه فاجتمع له علم أهل الرأي، وعلم أهل الحديث، فتصرف في ذلك حتى أصَّل الأصول، وقعّد القواعد، وأذعن له الموافق والمخالف، واشتهر أمره وعلا ذكره، وارتفع قدره حتى صار منه ما صار».

وقد خلف لنا الشافعي في كتاب الأم وصيته التي أوصى بها قبل أن يموت بسنة، فتاريخها صفر سنة (٢٠٣) يقول فيها: «هذا كتاب كتبه محمد بن إدريس ابن العباس الشافعي في صحة منه وجواز من أمره، أن الله رزق أبا الحسن (ابن الشافعي) مالاً فأخذ منه محمد بن إدريس من مال ابنه أربعمائة ديناراً جياداً صحاحاً مثاقيل وضمنها محمد بن إدريس لابنه» وفي هذه الوصية تصدق على ابنه بثلاثة أعبد كان يملكها الشافعي ووصيف أشقر خصي يقال له صالح، ووصيف نوبي خباز يقال له بلال، وعبد فراني، وتصدق بأمة شقراء كانت له ـ وفي هذه الوصية أيضاً تصدق بحلية، وقد عددها في الوصية ـ وتصدق بمنزلين له في مكة وقفهما على ابنه، ثم من بعده لأولاد ابنه الذكور والإناث الخ.

وله وصية أخرى في شعبان من هذه السنة، أوصى فيها بماله وقسمه أسهماً، وبيّن ما يفعل بعبيده وجواريه، وما يعطون من ماله، وما يعطى لفقراء آل شافع.

وهذه الوصايا تدل على أن حالته المالية في مصر كانت لا بأس بها، وإن لم تبلغ درجة الغنى.

وأما صفاته العقلية واللسانية فيكاد المؤرخون يجمعون على عذوبة منطقه، وحسن بيانه وذكائه، وقدرته الفائقة على الجدل، وقوته في التفكير، ومهارته في الاستنباط.

إذن ثقافته ثقافة في اللغة والأدب وهي واسعة، وثقافة في الحديث، فقد رحل في طلبه إلى بلاد كثيرة، وثقافة في الفقه على نمط مدرسة الحجاز، وثقافة في الرأي على نمط مدرسة العراق، وثقافة اجتماعية من مشاهدته لحياة البدو في البادية، والحضارة الأولية في الحجاز واليمن، والحضارة المعقدة المركبة في العراق ومصر، وحياة الفقراء من البدو والزهاد من المحدّثين، ومن أخذوا بحظهم من الدنيا كمحمد بن الحسن الشيباني في العراق، وابن عبد الحكم في مصر، ورؤية لأنماط من الحياة الاجتماعية والاقتصادية مختلفة، تتطلب أنواعاً من التشريع مختلفة، فالمصريون يتعاملون أنواعاً من المعاملات لا يتعاملها أهل العراق، والمصريون والعراقيون يشتركون أحياناً فيما لا يشترك معهم فيه الحجازيون، ونظام الري للنيل في مصر غير نظام دجلة والفرات في العراق، وذلك يستتبع اختلافاً في الخراج وما إليه، وكلاهما يختلف في ذلك عن بلاد لا تعرف أنهاراً كالحجاز؛ كل هذا وأمثاله كان له أثر كبير في تكوين مذهب الشافعي، فإن نحن أردنا أن نخطط رسماً بيانيّاً لمدرسته كما فعلنا من قبل كان هذا يسيراً سهلاً :

وكان الشافعي في أول أمره يعد نفسه تلميذاً لمالك، ومتبعاً لمذهبه وتعاليمه وأحد رجال مدرسته، وما زال كذلك إلى سنة (١٩٥) حيث قدم بغداد قدمته الثانية، فهناك بلغ مبلغ مؤسس مذهب يدعو إليه، والظاهر أن أقوى ما أثر فيه اتصاله في قدمته الأولى بأصحاب أبي حنيفة واستفادته من كتب محمد وعلمه بطريقة أهل العراق، فقد رأى من غير شك أن طريقتهم لا يحسن أخذها كلها، ولا تركها كلها، فعندهم القياس وهو منهج صحيح، ولكنه في نظره ليس على إطلاقه بل لا بد أن يتأخر عن الأحاديث الصحيحة حتى ما كان منها خبر آحاد، وعندهم طريقة التفريع، وتوليد المسائل الكثيرة من أصولها، وهي طريقة جيدة، وعندهم الجدل

والاستدلال بالعدالة والمصلحة، وإلحاق الشبيه بالشبيه، وما بين الأشياء من فروق وموافقات، والمناظرة في ذلك وتأليف الحجج، وقد رأى ذلك حسناً، ورأى في نفسه استعداداً جيداً للدخول في هذا الباب والتفوق فيه، فاقتبس من ذلك أحسنه، وأضافه إلى ثروته الحجازية من اللغة والأدب أولاً، والحديث وإجماع أهل المدينة وطريقة الحجازيين في الاستنباط ثانياً.

هاتان الناحيتان قد استفاد منهما الشافعي، وألف بينهما بشخصيته، فأخرج مذهباً جديداً ودعا إليه في العراق سنة (١٩٥)، وتبعه عليه بعض أصحابه البغداديين مثل أبي عليّ الحسين بن علي الكرابيسي، وكان من مشاهير علماء العراق، وله مصنفات كثيرة مات سنة (٢٥٦)؛ ومثل أبي ثور الكلبي، وقد صحب الشافعي في بغداد وأخذ عنه، وألف في مسائل الاختلاف بين مالك والشافعي، وكان أميل إلى الشافعي في كتبه، وكأبي علي الزعفراني، كان يقرأ كتب الشافعي التي ألفها قبل قدومه مصر. ولكن يظهر أن الشافعي لم يجد لمذهبه في العراق نجاحاً كبيراً لمزاحمة الحنفية له، ولما لهم من جاه وسلطان وقوة، فتحول إلى مصر. قال الزعفراني: لما أراد الشافعي الخروج إلى مصر أنشد لنفسه:

أخيَّ أرى نفسي تتوق إلى مصر ... ومن دونها أرض المهامه والقفر
فوالله ما أدري أللفوز والغنى ... أساق إليها أم أساق إلى قبري

قال الزعفراني: فوالله لقد سيق إليهما جميعاً؛ وسأل الشافعي الربيع عن أهل مصر قبل أن يرحل إليهم، فقال له الربيع: هما فرقتان فرقة مالت إلى قول مالك وناضلت عنه، وفرقة مالت إلى قول أبي حنيفة وناضلت عنه، فقال الشافعي: أرجو أن أقدم مصر إن شاء الله فآتيهم بشيء أشغلهم به عن القولين جميعاً؛ قال الربيع: ففعل ذلك والله حين دخل مصر. وقد أقام بمصر نحو أربع سنوات أملى فيها كثيراً من كتبه.

منحاه في الاجتهاد: لعل خير ما يلخص مسلكه ما ذكره هو إذ قال: «الأصل قرآن وسنة، فإن لم يكن فقياس عليهما، وإذا اتصل الحديث عن رسول الله ﷺ وصح الإسناد منه فهو سنة، والإجماع أكبر من الخبر المفرد والحديث على ظاهره، وإذا احتمل معاني فما أشبه منها ظاهره أولاها به، وإذا تكافأت الأحاديث فأصحها إسناداً أولاها، وليس المنقطع بشيء ما عدا منقطع ابن المسيب، ولا يقاس أصل على أصل، ولا يقال للأصل لِمَ وكيف، وإنما يقال للفرع لِمَ، فإذا صح قياسه على الأصل صح وقامت به الحجة».

أظهر مزايا الشافعي أنه على أثر ما رأى من صور مختلفة للتشريع، وتباين بين نمط الحجازيين والعراقيين، وما كان له من الجدل ومناظرات بين هؤلاء وهؤلاء، عمد إلى أن يحدد موقفه تحديداً دقيقاً أمام هؤلاء وهؤلاء، رأى موقف الحجازيين إزاء الحديث غير موقف العراقيين، فسأل نفسه: ما موقفه؟ ورأى موقف الحجازيين إزاء القياس والاستحسان غير موقف العراقيين، فأراد أن يتعرف موقفه في ذلك؛ ورأى مثل هذا في إجماع أهل المدينة وإجماع العلماء عامة، فحاول أن يضبط ذلك؛ كل هذا نقله من الفروع إلى الأصول، وهذه من غير شك خطوة جديدة في التفكير، فإذا فرغ من وضع خطة في أصل هاجم مخالفها، لا فرق عنده بين أن يكون مخالفه حجازياً أو عراقياً، ولا فرق بين أن يكون أستاذه الذي أخذ عنه العلم، أو إنساناً لا يعرفه.

ولنسق لذلك بعض الأمثلة: فقد فكر في الحديث ورأى نفسه أمام جماعة ينكرون الأخذ بالحديث بتاتاً، وجماعة يعملون به بشروط طويلة، وجماعة يعملون به في سهولة، فوضع له خطة خلاصتها: أنه إذا حدث ثقة عن ثقة عن رسول الله ﷺ ولم يكن هناك حديث يخالفه عمل به، فإذا كانت هناك أحاديث مختلفة نظر: هل فيها ناسخ ومنسوخ، كأن يتأخر

أحدها في الزمن، ويثبت بدليلٍ أن الحديث الأخير نسخ ما قبله فيعمل بالناسخ فإن لم يكن ناسخ ولا منسوخ نظر في أوثق الروايات وأمعنها في الصحة فعمل بها، فإن تكافأت عرضها على أصول القرآن والسنة الثابتة وعمل بما كان من الأحاديث أقرب إلى ذلك ، وإذا ثبت الحديث عن رسول الله ﷺ لا يترك هذا الحديث لأي قياس ولا لأي رأي ولا لأي أثر يروى عن صحابي كائناً من كان، أو تابعي كائناً من كان.

فلما وصل إلى هذا الأصل استعرض موقف الحجازيين والعراقيين فرأى في كليهما مخالفة له فهاجمها، هاجم مالكاً وانتقده لأنه ترك أحياناً حديثاً صحيحاً لقول واحد من الصحابة أو التابعين أو لرأي نفسه، وكان أشد نقد موجَّه منه لمالك أنه ترك قول ابن عباس في مسألة إلى قول عكرمة، مع أن مالكاً يسيء القول في عكرمة، ولا يرى لأحد أن يقبل حديثه، قال الشافعي: «والعجب أن يقول في عكرمة ما يقول، ثم يحتاج إلى شيء من علمه يوافق قوله فيسميه مرة ويسكت عنه أخرى».

وهاجم بهذا المبدأ أيضاً العراقيين، لأنهم يشترطون في الحديث أن يكون مشهوراً، يقدمون القياس على خبر الآحاد وإن صح سنده، وأنكر عليهم تركهم لبعض السنن لأنها غير مشهورة، وعلمهم بأحاديث لم تصح عند علماء الحديث بدعوى أنها مشهورة، ومن أمثلة ذلك أيضاً أنه وقف في القياس موقفاً وسطاً لم يتشدد فيه تشدد مالك، ولم يتوسع فيه توسع أبي حنيفة، فهو يقول: «إن جهة العلم الكتاب والسنة والإجماع والآثار، ثم القياس عليها. . . ولا يقيس إلا من جمع الآلة التي له القياس بها، وهي العلم بأحكام كتاب الله عزَّ وجلَّ، فرضه وأدبه وناسخه ومنسوخه، وعامه وخاصه. . . ولا يجوز لأحد أن يقيس حتى يكون عالماً بما مضى قبله من السنن وأقاويل السلف، وإجماع الناس واختلافهم، ولسان العرب، ولا يكون له أن يقيس حتى يكون صحيح العقل، وحتى يفرق بين

المشتبه، ولا يعجل بالقول به دون التثبت، ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه، لأنه قد يتنبه بالاستماع لترك الغفلة، ويزداد به تثبتاً فيما اعتقد من الصواب، وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده والإنصاف من نفسه حتى يعرف من أين قال ما يقول وترك ما يترك».

وهو على هذا الأساس قد أنكر الاستحسان وهاجم القائلين به، ويظهر من مجموع قوله أنه يعني بالاستحسان مجرد الرأي من غير أن يكون مستنداً إلى أصل شرعي، وشبّه المستحسِن في أثناء كلامه بالتاجر يقدر للشيء ثمناً من غير أن يدخل السوق ويعرف أسعار اليوم، فتقديره لا ينبني على أساس، كذلك الفقيه يستحسن من غير أن يرجع في استحسانه إلى أصول الشريعة، ولذلك هاجم مالكاً في قوله بالمصالح المرسلة، وهاجم الحنفية في قولهم بالاستحسان.

وهكذا سار الشافعي على هذا المنوال، حدد موقفه بقواعد، وهو عمل ـ فيما نعلم ـ لم يسبق إليه؛ وقد كان لرحلته إلى المدينة ومكة واليمن والعراق مراراً ومصر أثراً في اتساع ثروته في الحديث، فلم يقتصر على الحديث الشائع في الحجاز كما فعل مالك، بل ضم إليه كثيراً من الحديث الشائع في هذه البلدان الأخرى، وهذه الرحلات كذلك جعلته لا يتعصب لأهل المدينة، ولا يعترف بالحجة التي جعلها مالك أصلاً من أصول مذهبه وهي إجماع أهل المدينة، فنقد مالكاً في هذا نقداً قوياً، وذكر أن مالكاً كان يقول بالإجماع، على حين أنه نفسه يروي أحاديث ضد الإجماع، فيقول مالك: «إن الناس أجمعوا على أن لا سجدة في سورة الحج إلا مرة واحدة، مع أنه يروي عن عمر وابن عمر أنهما سجدا في سورة الحج مرتين الخ..».

لم يسلم الشافعي من تهجم بعض العلماء عليه في حديثه كابن معين، فقد أكثر فيه القول، وقال فيه ابن عبد الحكم: إنه كان يروي عن الكذابين

والبدعيين، فروى عن إبراهيم بن يحيى مع أنه كان قدرياً، وروى عن إسماعيل بن علية مع أنه طعن فيه، وقالوا: إن البخاري ومسلماً لم يرويا عنه شيئاً في صحيحيهما، ولولا أنه كان ضعيفاً في الرواية لرويا عنه، وأن مذهبه أن المراسيل ليس بحجة، وقد ملأ كتبه من قوله أخبرنا الثقة، أخبرني من لا أتهمه.. الخ، وقد دافع أصحاب الشافعي عن هذه الأقوال دفاعاً شديداً، ومع هذا كله فقد كان الشافعي أقرب للمحدثين وهم إليه أميل، ولئن فاقه بعضهم في معرفة الحديث وأسانيده ورجاله فقد فاقهم بفقهه في الحديث، حتى روي عنه أنه قال لأحمد بن حنبل: أنتم أعلم بالأخبار الصحاح منا، فإذا كان خبر صحيح فأعلمني حتى أذهب إليه. كان المحدثون أميل إلى الشافعي لأنه توسع في استعمال الحديث والاستدلال به أكثر مما فعل مالك وأبو حنيفة، وحدّ من الرأي والقياس وضيق سلطتهما، ولذلك كان من أنصاره أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وغيرهما من كبار المحدثين، كما أنه كان أقرب إلى نفوس الحنفية من المحدثين وفقهائهم، لأنه لم ينكر القياس جملة، بل قال به وقعّد له القواعد، حتى لقد عدل بعض فقهاء العراق عن مذهب أبي حنيفة إلى مذهبه؛ ولعل هذا الموقف ـ وهو تقريبه وجهة النظر بين المدرستين: مدرسة الحجاز ومدرسة العراق، وانتخابه ما رأى الحق في كلتيهما ـ هو أوضح ظاهرة في مدرسة الشافعي.

قال الرازي: «إن الناس كانوا قبل الشافعي فريقان: أصحاب الحديث وأصحاب الرأي، أما أصحاب الحديث فكانوا عاجزين عن المناظرة والمجادلة، عاجزين عن تزييف طريق أصحاب الرأي، فما كان يحصل بسببهم قوة في الدين ونصرة الكتاب والسنة؛ وأما أصحاب الرأي فكان سعيهم وجهدهم مصروفاً إلى تقرير ما استنبطوه برأيهم ورتبوه بفكرهم... (فجاء الشافعي) وكان عارفاً بالنصوص من القرآن والأخبار،

وكان عارفاً بأصول الفقه وشرائط الاستدلال. . . وكان قوياً في المناظرة والجدل. . . فرجع عن قول أصحاب الرأي أكثر أنصارهم وأتباعهم».

آثار الشافعي: من أهم ما وصل إلينا من عمل الشافعي رسالته في أصول الفقه، رواها عنه تلميذه المصري الربيع بن سليمان المرادي، وقد تكلم فيها فيما يحتاج إليه المجتهد إزاء القرآن من العام والخاص، والناسخ والمنسوخ، وتكلم في موقف المجتهد من الحديث وناسخه ومنسوخه، وما كان فيه من اختلاف وما يقبل منه وما لا يقبل، ثم تكلم في الإجماع، وأن (من قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم، ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم)، ثم تكلم في إثبات القياس والاجتهاد، وحيث يجب القياس وحيث لا يجب، ومن له أن يقيس، ومن ليس له، ونَقَد الاستحسان وردّ على القائلين به؛ وهو بهذا أول من وضع خطة في البحث في أصول الفقه جرى عليه كل من أتى بعده من علماء المذاهب الأخرى؛ قال الرازي: «واعلم أن نسبة الشافعي إلى علم الأصول كنسبة ارسططاليس إلى علم المنطق، وكنسبة الخليل بن أحمد إلى علم العروض، وذلك لأن الناس كانوا قبل ارسططاليس يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة، لكن (ما) كان عندهم قانون مخلص في كيفية ترتيب الحدود والبراهين، فلا جرم كانت كلماتهم مشوشة ومضطربة. فإن مجرد الطبع إذ لم يستعن بالقانون الكلي قلما أفلح، فلما رأى أرسططاليس ذلك اعتزل عن الناس مدة مديدة واستخرج علم المنطق ووضع الخلق بسببه قانوناً كلياً يرجع إليه في معرفة ترتيب الحدود والبراهين، وكذلك الشعراء كانوا قبل الخليل بن أحمد ينظمون أشعاراً، وكان اعتمادهم على مجرد الطبع، فاستخرج الخليل علم العروض فكان ذلك قانوناً كلياً في معرفة مصالح الشعر ومفاسده، فكذلك ـ هاهنا الناس كانوا قبل الإمام الشافعي يتكلمون

في مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعترضون، ولكن ما كان لهم قانون كلي مرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة، وفي كيفية معارضاتها وترجيحاتها، فاستنبط الشافعي رحمه الله أصول الفقه، ووضع للخلق قانوناً كلياً يرجع إليه في معرفة مراتب أدلة الشرع، فثبت أن نسبة الشافعي إلى علم الشرع كنسبة أرسططاليس إلى علم العقل. . واعلم أن الشافعي صنف كتاب الرسالة ببغداد، ولما رجع إلى مصر أعاد تصنيف كتاب الرسالة، وفي كل واحد منهما علم كثير، والناس وإن أطنبوا بعد ذلك في علم أصول الفقه إلا أن كلهم عيال على الشافعي فيه، لأنه هو الذي فتح هذا الباب، والسبق لمن سبق».

نعم روى ابن النديم أن محمد بن الحسن ألف كتاباً في أصول الفقه، ولكن لم يصل إلينا هذا الكتاب حتى نستطيع أن نقارن بينه وبين رسالة الشافعي، ونعلم ماذا استفاد الشافعي من أصول محمد وماذا اخترع من نفسه؛ وقد كان هناك طريقان أمام مخترع أصول الفقه: الأول أن يضع القواعد التي تعين المجتهد على استنباط الأحكام من مصادر التشريع، وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس؛ والثاني استخراج القواعد العامة الفقهية لكل باب من أبواب الفقه، ومناقشتها وتطبيق الفروع عليها، فيستنتج ـ مثلاً ـ قواعد البيع العامة، أو قواعد الإيجار، ويحددها ويبين مسلك التطبيق عليها، وكلا الطريقين يصح أن يسمى أصول الفقه، وقد سلك الثاني الفرنج على النحو الذي تراه في أصول الشرائع لبنتام ومن حذا حذوه؛ وقد اختار الشافعي الطريق الأول وألهمه ذلك ما كان من الجدل القوي بين المحدِّثين والفقهاء من جانب، وفقهاء العراق وفقهاء الحجاز من جانب آخر. فاضطره هذا الخلاف أن يضع القواعد التي رأى أنها تحسمه؛ أضف إلى ذلك أن الطريق الثاني أكثر ما ينمو في التشريع الوضعي الذي يعتمد على النظريات العقلية الطليقة وتعديلها وفق ما يجدّ

من نظريات فلسفية وآراء مدنية، على أن هذا الضرب قد اتجه إليه بعض المسلمين بعد كما ترى في الأشباه والنظائر لابن نجيم وإن لم يسر طويلاً.

وليس تعرضه لأصول الفقه مقتصراً على رسالته في الأصول، بل تعرض له أيضاً في مواضع كثيرة من كتاب الأم، فتعرض ـ مثلاً ـ لمناقشة الفرقة التي تنكر العمل بالأحاديث بتاتاً، وكتب فصلاً في إبطال الاستحسان، فيظهر أن كثيراً من المسائل الفرعية كانت تعرض له فتثير في ذهنه أصولاً متفرقة يفكر فيها ويطيل التفكير، ثم يضع لها القواعد، ثم جرد هذه القواعد وأكملها ورتبها وأخرجها في كتابه الرسالة؛ وله الفضل خاصة في تنظيم الإجماع والعمل به وما يصلح منه وما لا يصلح، وتنظيم القياس الذي جرى عليه الحنفية، ووضع قواعد له، وتقسيمه أقساماً وتوضيح علله وبيان ما يجوز منه وما لا يجوز.

وقد خطا بكتابه خطوات في الفقه من حيث وضع القواعد للمجتهد وإلزامه الأخذ بها أو بنظائرها، حتى لا يأتي اجتهاده متناقضاً، يوماً يستدل بالعام ويوماً يقول إن دلالته ظنية، ويوماً يستدل بالخاص ويوماً يقول يحتمل أنه خصوصية.. الخ، ولا يخفى ما يترتب على وضع هذه المبادئ من انتظام سير الفقه وتوحيد مجاريه، وعدم الاضطراب في التفريع.

الأم: هو أكبر أثر للشافعي بين أيدينا، وقد ثار الخلاف حديثاً في مصر هل الأم كتاب ألفه الشافعي أو ألفه البويطي؟ وأظن أنه لو حدد موضع النزاع في دقة لكان الأمر أسهل حلاً، فليس يستطيع أحد أن يقول إن ما بين دفتي الكتاب الذي بين أيدينا هو من تأليف الشافعي، وأنه عكف على كتابته وتأليفه في هذا الوضع النهائي، وأهم دليل على ذلك أن مطلع كثير من الفصول العبارة الآتية: «أخبرنا الربيع قال: قال الشافعي..» وهي عبارة لا يمكن أن يكتبها الشافعي وهو يؤلف الكتاب، وفي ثنايا الكتاب نجد أخباراً بعدول الشافعي عن هذا الرأي كأن يجيء في سير الكلام: «قال

الربيع: قد رجع الشافعي عن خيار الرؤية وقال لا يجوز خيار الرؤية»؛ ومحال أن تصدر من الشافعي هذه العبارة وأمثالها، كما لا يستطيع أحد أن ينكر أن في الأم مذهب الشافعي بقوله وعبارته، فالظاهر أنها أمالٍ أملاها الشافعي في حلقته كتبها عنه تلاميذه وأدخلوا عليها تعليقات من عندهم، واختلفت روايتهم بعض الاختلاف، والذي بين أيدينا منها رواية الربيع المرادي عن الشافعي.

على كل حال بين أيدينا مجموعة في سبعة أجزاء أغلبها من كلام الشافعي رواها عنه تلميذه وأدخل فيها بعض تعليقات أفردها وبيَّنها حتى لا تلتبس بكلام الشافعي، ومجموع ذلك هو الذي أطلق عليه «كتاب الأم» وقد بوَّب على أبواب الفقه كما فعل مالك في الموطأ، ولكن فيه فصول في أصول الفقه كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

وقد أُمليت هذه الأبواب في مصر، والعلماء يقسمون فقه الشافعي إلى مذهبين: قديم وجديد. فأما القديم فهو ما كتبه وقال به في العراق، وأما الجديد فهو ما كتبه وقال به في مصر؛ ذلك أنه لما جاء مصر عدل عن بعض أقوال له كان قالها من قبل، وسببه أنه خالط علماء مصر، وسمع ما صح عندهم من حديث وسمع تلاميذ الليث بن سعد ينقلون عنه آراءه وفقهه، ورأى بعض حالات اجتماعية تخالف تلك التي رآها في الحجاز والعراق، فغير ذلك الشافعي في بعض أقواله، وأطلق عليه المذهب الجديد.

وفي «الأم» مصداق لجميع ما ذكرنا عن الشافعي، فهو فيه فصيح العبارة، قوي الأداء، تشوب عبارته بلاغة البادية وفصاحتها، وقوة القرشية وإيجازها، أخذ عليه بعض المتعقبين له أشياء عدوها غلطاً كقوله: ماء عذب، وماء مالح بدل ملح، وقوله: الطهور هو المطهِّر، مع أن الطهور هو الطاهر على سبيل المبالغة، وقوله: وليست الأذنان من الوجه

فيغسلان بدل فيغسلا، إلى أمثال ذلك؛ وهي في الحقيقة ليست أخطاء بل أجازها اللغويون والنحويون. وعلى كل حال فليس يستطيع أن ينكر أحد ما في عبارة الشافعي من دقة وقوة بلاغة.

وفي الكتاب تظهر قوة الشافعي في الجدل، فأسلوب الكتاب كله تقريباً أسلوب جدلي، حتى ليفترض مجادلاً يجادله في الجدل فيرد عليه، ثم يعترض فيجيب: فإن قال قائل كذا رددنا عليه بكذا، «قال: المتبايعان بالخيار مالم يتفرقا في الكلام، قلت: فالذي ذهبت إليه محال، لا يجوز في اللسان. قال: وما إحالته وكيف لا يحتمله اللسان؟ قلت.. الخ» وهكذا يسير في كثير من المواضع على هذا الحوار السُّقراطي، مما كان متأثراً فيه بنمط العراقيين وحجاجهم وإكثارهم من: «أرأيت».

ثم هو في الكتاب محدّث يكثر من الاستدلالات بالحديث، وهو قيّاس يكثر من استعمال القياس، فيقول: «وبهذا نأخذ وهو قول الأكثر من أهل الحجاز والأكثر من أهل الآثار بالبلدان»، ويقول: «قلنا في الكلب بما أمر به رسول الله ﷺ وكان الخنزير إن لم يكن في شر من حاله لم يكن في خير منها، فقلنا به قياساً عليه» إلى كثير من أمثال ذلك.

ثم هو متأثر بالمصرية أحياناً فإذا أراد أن يمثل بصيغة الوقفية مثّل لذلك بوقف بيت في الفسطاط من مصر، ويتكلم في الطين الذي يعرف بالطين الأرمني والطين الذي يقال له طين البحيرة، وهما مما يدخلان في الأدوية، ويقارن بين الطين الأرمني وطين رآه في الحجاز، ويتكلم في القراطيس (وهي مصرية) ويبيِّن متى يجوز أن تسلف ومتى لا يجوز، ويتكلم في شهادة الشعراء، ومن يجوز شهادته منهم ومن لا يجوز، فيستملي فيما يظهر من حال الشعراء في مصر إلى أمثال ذلك.

وعلى الجملة فالكتاب ثروة كبيرة من حيث دلالته على مناحي الشافعي

في الاجتهاد، وعلى فقهه وعلى ما كان من أثر مصر في القول بالمذهب الجديد.. الخ.

وكان للشافعي أصحاب أخذوا عنه وتتلمذوا له، وحفظوا مذهبه، ونشروه، بعضهم في العراق وبعضهم في مصر؛ ومن أشهرهم في مصر البويطي والمزني والربيع المرادي.

فالبويطي هو يوسف بن يحيى، والبويطي نسبة إلى بويط قرية من قرى صعيد مصر، وكان أكبر أصحاب الشافعي وأعلمهم، وقد خلف الشافعي في رياسة حلقته، وكان في حياته يفتي على مذهبه، وتتلمذ له كثيرون نشروا مذهب الشافعي، وألف كتابه (المختصر) اختصر فيه كلام الشافعي. قال ابن عبد البر: «وكان ابن أبي الليث الحنفي قاضي مصر يحسده ويعاديه، فأخرجه في وقت المحنة في القرآن فيمن أخرج من أهل مصر إلى بغداد ولم يخرج من أصحاب الشافعي غيره، وحُمل إلى بغداد وحُبس فلم يجب إلى ما دعي إليه في القرآن، وقال هو كلام الله غير مخلوق، وحبس ومات في السجن يوم الجمعة قبل الصلاة سنة ٢٣١ م» وأما المزني فهو اسماعيل بن يحيى، وكان أقدر أصحاب الشافعي على المناظرة والجدل والغوص على المعاني الدقيقة، وقد كان يخالف الشافعي في بعض أقواله، فيقول بعد أن يحكي كلام الشافعي في مسألة: «ليس هذا عندي بشيء».

ويظهر أنه امتحن في مسألة خلق القرآن فقال كلاماً نجا به من الاضطهاد، فشنع عليه أعداؤه من المصريين حتى قلّ الناس في حلقته، ثم زال ما في نفوسهم منه وعظمت حلقته حتى أخذت أكثر الجامع، وهو أكثر من دوَّن فقه الشافعي، وألف فيه الكتب الكثيرة، منها المختصر المطبوع على هامش الأم، وانتشرت كتبه ومختصراته في الأقطار فخدمت مذهب الشافعي، مات سنة ٢٦٤ م.

وأما الربيع المرادي مولى قبيلة مراد، فكان مؤذناً بمسجد عمرو بالفسطاط وربما كان أبطأ تلاميذ الشافعي فهماً، وقيل كانت فيه سلامة صدر وغفلة ولكنه ثقة صادق فيما يرويه، حتى لو تعارضت روايته مع رواية المزني فأصحاب الشافعي يقدمون روايته، وقد حمل عن الشافعي الكثير من علمه، والنسخة المطبوعة من الأم روايته، مات سنة ٢٧٠ م.

وعلى الجملة فقد كان البويطي أفقه، والمزني أفصح وأمهر وأذكى، والمرادي أروى ولكل فضل.

ومما يلاحظ أن أصحاب الشافعي لم يكونوا يخالفونه كثيراً، كما كان أصحاب أبي حنيفة يخالفونه، فالمسائل التي خالف فيها أصحاب الشافعي إمامهم تكاد تكون معدودة وكثير منها تخريج على أصوله، وهذا بخلاف أصحاب أبي حنيفة، فقد خالفه أبو يوسف ومحمد وزفر في الأصول والفروع، وهذا يرجع ـ فيما أرى ـ إلى سببين: الأول أن مذهب أبي حنيفة لم يقيده أبو حنيفة، وإنما قيّده ورتبه أصحابه، وله العذر في ذلك فقد أزهر أبو حنيفة قبيل عصر التدوين، وكان السابق والمبتكر في صبغ الفقه صبغته الجديدة، وترك لتلاميذه تدوينه، وهذا يجعل أصحابه في حل من المخالفة عند مقارنة المسائل بعضها ببعض، وتطبيقها على الأصول، والسبب الثاني أن مذهب أبي حنيفة ـ كما علمنا ـ أميل إلى الرأي من مذهب الشافعي، والرأي يمنح أصحابه حرية لا تكون لأصحاب الحديث ومن نحا منحاهم ومن قرب منهم[1].

* * *

(١) ضحى الإسلام: أحمد أمين (ج ٢).

شرح
ديوان الإمام الشافعي
وحكمه



قافية الهمزة

فما في النار للظمآن ماء[1]

دَعِ الأيامَ تَفعلُ ما تَشاءُ ... وَطِبْ نَفساً إِذا حَكَمَ القَضاءُ[2]

وَلا تَجزَعْ لِحادِثَةِ اللَّيالي ... فَما لِحَوادِثِ الدُّنيا بَقاءُ[3]

وَكُنْ رَجلاً عَلى الأَهوالِ جَلْداً ... وَشيمَتُكَ السَّماحَةُ وَالوَفاءُ[4]

وَإِن كَثُرَتْ عُيوبُكَ في البَرايا ... وَسَرَّكَ أَن يَكونَ لَها غِطاءُ[5]

تَسَتَّرْ بِالسَّخاءِ فَكُلُّ عَيبٍ ... يُغَطِّيهِ كَما قيلَ السَّخاءُ[6]

---

(١) خزانة الأدب ٢/ ٤٢٦، توالي التأسيس ١٤٤، جواهر الأدب ٢/ ٤٢٦.

(٢) من رضي بقضاء الله تعالى وقدره عاش مطمئن البال، أما الساخط ففي قلق دائم، وعلى الإنسان أن يرضى بما تأتي به الأيام، لأن ذلك من عند الله سبحانه، وألا يكون متبرماً لحكم القضاء والقدر، وأن يتقبل ذلك كله بنفس مطمئنة.

(٣) تجزع: الجزع ضد الصبر. وإيَّاك ـ أيها الإنسان ـ والجزع والخوف مما تحمله الليالي من النوائب، لأنها ستزول، ولن تكون دائمة البقاء، فكل ما في هذه الحياة من الأحداث متحول لا يدوم.

(٤) جلداً: شديداً، قوياً. والأولى بك أن تتلقى حوادث دنياك بالجلد والصبر، فهذا هو خُلُق الرجال. وكن فوق ذلك كله سمحاً وفيّاً مع الخلائق كافَّة.

(٥) أما إذا شعرت، أو خيل إليك أن عيوبك قد كثرت بين البرايا، وأردت أن تتخلص من هذا وأن تضع له ساتراً أميناً.

(٦) فليكن نسيج هذا الستر السخاء والجود بالمال والجهد وبكل ما ينفع الناس؛ فإن هذه السجيَّة؛ سجيَّة السخاء، غطاء كريم، يخفي كل عيب ولا يبقى له أثراً.

وَلا تُــرِ لِــلأَعــادي قَــطُّ ذُلاً　　فَــإِنَّ شَمــاتَــةَ الأَعــدا بَــلاءُ [١]

ولا تَــرجُ السَّمــاحَــةَ مِــن بَخيــلٍ　　فَمــا فــي النَّــارِ لِلظَمــآنِ مــاءُ [٢]

وَرِزقُــكَ لَيــسَ يُنقِصُــهُ التَّــأَنّــي　　وَلَيسَ يَزيدُ في الرِّزقِ العَناءُ [٣]

وَلا حُــزنٌ يَــدومُ وَلا سُــرورٌ　　وَلا بُــؤسٌ عَلَيــكَ وَلا رَخــاءُ [٤]

إِذا مــا كُنــتَ ذا قَلــبٍ قَنــوعٍ　　فَــأَنــتَ وَمــالِكُ الــدُّنيــا سَــواءُ [٥]

وَمَــن نَــزَلَــت بِســاحَتِــهِ المَنــايــا　　فَــلا أَرضٌ تَقيــهِ وَلا سَمــاءُ [٦]

---

(١) أما إذا أصابتك مصيبة، أو كَبَوْت في أمر ما ـ وكل إنسان معرض لمثل ذلك ـ فإياك أن تظهر ضعفك أو ذُلَّك لعدوك فإن شماتة الأعداء أعظم من المصيبة نفسها.

(٢) وإياك والطمع في أن تنال من بخيل شيئاً، أو تحدثك نفسك بذلك، لأن من يرجو ذلك مَثَلُهُ كمثل الظمآن الذي يبغي من النار ماءاً.

(٣) العناء: التعب. أما رزقك الذي قدره الإله لك، فسوف يأتيك إن عاجلاً أو آجلاً، ولن يزيد ذرَّة، ولو بذلت عناء مضاعفاً، فإن الرزق مقسوم، وليس على الإنسان إلا مباشرة الأسباب.

(٤) والدوام والبقاء لله تعالى وحده، وعلى هذا فلن يدوم سرور ملأ فؤادك غبطة وحبوراً، ولا حزن أفعم قلبك غماً وكدراً، وهكذا الأمر بالنسبة للرخاء والبؤس. فاغتنم الحاضر الذي أنت فيه، ودع أمر المستقبل لله تعالى وحده.

(٥) أيها الإنسان أصدُقُك القول: إن كنتَ ذا قلب قنوع بما قسم له، فلا تُتعب فؤادك بالنظر لما في أيدي الناس، عندها ستشعر أنك تملك الدنيا.

(٦) تقيه: تحفظه. أما ذلك الذي قدر عليه الموت فسوف يلقاه في الساعة المقدرة ولا مفرّ له سواءٌ اختفى في غار من الأرض، أو صعد مرتفعاً في السماء.

وَأَرضُ اللَــــهِ واسِعَـــةٌ وَلَكِـــنْ ... إِذا نَـزَلَ القَضـا ضـاقَ الفَضـاءُ[1]
دَعِ الأَيَّـــامَ تَغـــدِرُ كُـــلَّ حِيـــنٍ ... فَمـا يُغني عَـنِ المَـوتِ الـدَّواءُ[2]

لا تهزأ بالدعاء[3]

أَتَهــزَأُ بِــالــدُّعــاءِ وَتَــزدَريــهِ ... وَمـا تَـدري بِمـا صَنَـعَ الـدُّعـاءُ[4]
سِهــامُ اللَّيــلِ لا تُخطِـي وَلَكِـن ... لَهــا أَمَــدٌ وَلِــلأَمَــدِ انقِضــاءُ[5]
فَيُمسكُهــا إذا مــا شــاءَ رَبِّــي ... ويــرسلُهــا إذا نَفَــذَ القَضَــاءُ[6]

جهد البلاء[7]

أكثـرَ النَّـاسُ فـي النِّسـاءِ وقـالُـوا ... إنَّ حُـبَّ النِّسـاءِ جُهـدُ البَــلاءِ[8]

---

(١) وأرض الله تعالى رحبة واسعة، لا يعلم حدودها إلا هو، ولكن إذا حُمَّ القضاء فإن هذا الفضاء العريض سينقلب ضيقاً لا غَناء فيه ولا نفع.

(٢) فاترك الأيام وشأنها، فقد يصيبك منها أحياناً ما لا يسرّك، ولكن الموت في النهاية سيضع حداً لهذا الشقاء، ومع الموت لن ينفع دواء، ولا يقي منه حذر.

(٣) المستطرف ١/ ١٠٥ دون نسبة.

(٤) تزدريه: تحتقره وتستهين به. ومن يهزأ بالدعاء؟! إن الذي يستخفّ بالدعاء ويقلل من شأنه، لا يعلم حقيقة الدعاء ولا ما يصنعه.

(٥) لا تخطي: لا تخطيء. الأمد: الغاية ومنتهى الشيء والجمع آماد. فمصائب الليل والنهار ماثلة في كل حين، وهي لا تخطئ أبداً من قُدِّرت له، ولكنها مرهونة بالقدر، ولها غاية وبداية غير معلومة للبشر.

(٦) والله عزَّ وجلَّ وحده، هو الذي يصرفها عمن يشاء، ويصيب بها من يشاء، ولا يرفع القضاء إلا الدعاء.

(٧) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٨٢.

(٨) جهد؛ بالفتح: المشقة؛ وبالضم: الطاقة. قال كثير من الناس وأعادوا: إن من يحب النساء ويعلق قلبه بهن، فإن ذلك ينتهي به إلى المشقة والعناء.

ليس حُبُّ النِّساءِ جُهداً ولكنْ قُربَ مَنْ لاَ تِحبُّ جُهدُ البلاءِ[1]

حياة الأشراف واللِّئام[2]

أرى حُمُراً تَرعَى وتُعْلَفُ ما تَهوى وأُسْداً جِياعاً تَظْمَأُ الدَّهرَ لا تُروَى[3]
وأَشرافَ قَومٍ لا يَنالُونَ قُوتَهُمْ وَقوماً لِئاماً تأكُلُ المنَّ والسَّلْوى[4]
قَضاءٌ لِديَّانِ الخلائِقِ سابقٌ وليسَ على مُرِّ القَضا أحدٌ يقَوى[5]
فمنْ عَرفَ الدَّهرَ الخؤونَ وصَرْفَهُ تَصبَّرَ للبَلوى ولمْ يُظهِرِ الشَّكْوى[6]

* * *

---

(١) والحق أن ليس حب النساء ـ وأعني به الحب المباح ـ مشقة وشقاء، بل إن مجالسة من لا تحب والعيش معه هو البلاء.

(٢) المخلاة ١٣٢ . وتنسب الأبيات إلى الإمام علي بن أبي طالب ، انظر الديوان المنسوب إليه ١٣٢ .

(٣) إن معنى الأبيات أن هناك كثيراً من الناس الذين يشبهون الحمر ترتع وتجد ما تشتهي، وهناك أناس يشبهون السباع محرومة من ضرورات العيش ولا تكاد تجد من حاجاتها إلا الضروري.

(٤) وكذلك فإن كثيراً من أشراف القوم وكبرائهم، لا يحصلون على أقواتهم الضرورية إلا بشق الأنفس، بينما تجد كثيراً من اللئام والرعاع ترتع في بحبوحة من العيش، طعامهم المن والسلوى.

(٥) إن هذه القسمة هي من قضاء ديَّان الخلائق، وهي سابقة علم البشر. وإذا كان الأمر كذلك، فليس لأحد من بني الإنسان أن يعترض على ذلك، وليس يقوى كائن على تغيير ذلك.

(٦) الخؤون: الكثير الخيانة. والعاقل الذي خبر الأيام وعرف أنها لا تدوم على حالة واحدة، فهي حلوة حيناً، ومرة أحياناً، إن من فهم ذلك اتخذ الصبر درعاً له، ورضي بما قسم له.

قافية الباء

خالف هواك[1]

إِذا حــارَ ذهنُــك فــي مَعنيـيــن ... وأَعياكَ حَيثُ الهوى والصَّوابُ[2]

فَــدعْ مــا هَــويْــتَ فــإنَّ الهــوى ... يقــودُ النُّفــوسَ إِلــى مَــا يُعــابُ[3]

حق الأديب[4]

أَصبَحْتُ مُطَّرَحاً في مَعشَرٍ جَهِلوا ... حَقَّ الأَديبِ فَباعوا الرَّأسَ بِالذَّنَبِ[5]

---

(١) بهجة المجالس ١/ ٨١٤ نسبا لسهل الوراق.

(٢) سلوك الإنسان في هذه الحياة موزع بين العقل والهوى، فإن عرض لك أمر ما تنازع فيه عقلك وهواك، ولم تستطع ترجيح أحدهما بسبب الحيرة التي تنتابك، ولم تعرف أين يكمن الصواب.

(٣) فالطريق السليم، والاختيار الصحيح أن تترك داعي الهوى، الذي يبعدك عن الحق وتتبع سبيل الحق، لأن الهوى يجر من العيوب ما لا يحصى.

(٤) معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٧/ ٣١٩، مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٦٤ ومناقب الشافعي للرازي. العلماء والأدباء في هذه الحياة، كثيراً ما يُغبن حقهم، ولا تعرف قيمتهم الحقيقية إلا بعد موتهم يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه:

(٥) قدري في هذه الحياة أن أعيش بين أناس لا يعرفون قيمة الفضلاء، ولا يميزون بين الغثّ والسمين. إنهم جهلاء لا يقيمون للعالم وزناً ولا للأديب مكانة، لذلك فقد أعرضوا عني، ولم يأخذوا مني شيئاً، واستبدلوا بأبخس الأشياء أثمنها.

وَالنَّـاسُ يَجمَعُهُـم شَمْـلٌ وَبَينَهُـم   في العَقلِ فَرقٌ وَفي الآدابِ وَالحَسَبِ[1]

كَمِثـلِ الـذَّهَـبِ الإِبـريـزِ يَشـرَكُـهُ   في لَونِهِ الصُّفرُ وَالتَّفضيلُ لِلذَّهَبِ[2]

وَالعودُ لَو لَم تَطِب مِنهُ رَوائِحُهُ   لَم يَفرِقِ النَّاسُ بَينَ العودِ وَالحَطَبِ[3]

هكذا الحظ[4]

تَموتُ الأُسدُ في الغاباتِ جوعاً   وَلَحـمُ الضَّـأنِ تَـأكُلُـهُ الكِـلابُ[5]

وَعَبـدٌ قَـد يَنـامُ عَلـى حَـريـرٍ   وَذو نَسَـبٍ مَفـارِشُـهُ التُّـرابُ[6]

---

(١) الخلائق ـ في أصل وجودهم ـ سواء؛ لكن الذي يفرق بينهم، و يجعلهم متفاوتين، إنما هو العقل والأدب وطيب الأصل، وفيما عدا ذلك فهم متساوون.

(٢) الذهب الإبريز: الذهب الخالص. مثلهم في ذلك مثل الذهب الخالص، يخلط مع النحاس وغيره، فيكتسب صفرة، ولكن الفضل والقيمة الحقيقية تبقى للذهب الأصلي، وذلك لا يخفى على العارفين.

(٣) وكذلك أعواد الخشب فهي في الظاهر متشابهة ولكن الذي يميز بعضها من بعض، هو طيب الرائحة فيقال هذا حطب يصلح للدفء والاشتعال، وذاك عود لنشر الأريج.

(٤) توالي التأسيس ١٤٤.

(٥) الضأن: الغنم. قال بعضهم: سبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة... وهكذا فإنك قد تصادف سباعاً تموت في الغابات جوعاً على الرغم من سطوتها وجبروتها، وفي المقابل ترى لحم الغنم الثمين تتمتع به أصناف من الكلاب.

(٦) وكذلك قد ترى عبداً سوقة يرفل بأثواب النعيم وينام على الحرير، بينما ينام الكريم الشريف على التراب وهذا من هوان الدنيا على الله تعالى.

عليَّ رقيب[1]

إذا ما خلوتَ الدَّهرَ يوماً فلا تَقُلْ خلَوتُ ولكنْ قُلْ عَليَّ رَقيبُ[2]

ولاً تَحسبَنَّ اللهَ يَغفَلُ ساعةً وَلا أنَّ ما تُخفي عليهِ يغيبُ[3]

غفلْنا لعمرُ اللهِ حتى تَدارَكَتْ عَلينا ذُنوبٌ بَعدهُنَّ ذُنُوبُ[4]

فيا ليتَ أنَّ اللهَ يغفِرُ ما مَضى وَيأذنُ في توباتِنا فَنَتوبُ[5]

خذي العفو[6]

خُذي العفوَ مِنّي تَستدِيمي مَوَدَّتي وَلا تَنطُقي في سَورَتي حينَ أَغضَبُ[7]

---

(١) مناقب الشافعي للرازي ١١١ ـ ١١٢، طبقات الشافعية للأسنوي ١٤، مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ١١٨ ونسبت الأبيات لأبي العتاهية، انظر ديوانه ١٥٤ بتحقيق الدكتور المرحوم شكري فيصل. المؤمن الحق له من نفسه رقيب، حاله في السر والعلن سواء.

(٢) أيها الإنسان! إياك أن تغفل لحظة، سواء كنت في خلوة مع نفسك أو كنت في زحمة مع الناس، وتذكَّرْ أن عليك رقيباً أميناً يحصي عليك أقوالك وأفعالك.

(٣) وإياك أن تظن أن الله تعالى غافل عما يفعله العباد، وإياك أن تشعر أن ما تعمله سر يخفى على مولاك، فهو سبحانه يعلم السر وأخفى.

(٤) غفلنا نحن البشر وأطلقنا لنفوسنا العنان، حتى تلاحقت الآثام، وتراكمت الأخطاء ونحن عن ذلك لاهون.

(٥) ليس لنا ـ والأمر كذلك ـ إلا أن نتوجه بقلوب واجفة إلى ربِّنا الحليم، طالبين منه العفو والمغفرة وأن يلهمنا توبة نصوحاً، فيتوب علينا إنه هو الغفور الرحيم.

(٦) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٩٨، وللفخر الرازي ١١٧.

(٧) تستديمي: تجعليها تدوم. العفو من شيم الكرام. والمرأة الصالحة، من تجعل شعارها العفو مع زوجها لأن ذلك أدعى لبقاء المودة ودوام الحب، =

فَإنّي وَجَدتُ الحُبَّ في القلب وَالأذَى   إذا اجتَمَعا لَم يَلبث الحُبُّ يَذهَبُ[1]

نبوءة الكواكب[2]

خَبِّـــرا عَنِّـــي المُنَجِّـــمَ أَنِّـــي   كافِرٌ بِالَّذي قَضَتْهُ الكَواكِبُ[3]

عــالِمــاً أَنَّ مــا يَكــونُ وَمــا كــانَ   قَضــاءٌ مِــنَ المُهَيمِــنِ واجِــبُ[4]

شَــاهــدٌ أَنَّ مَــنْ تَكهَّــنَ أو نَجَّــمَ   زَارٍ علــى المقــاديــرِ كــاذبُ[5]

السُّكوت عن السَّفيه[6]

يُخــاطِبُنــي السَّفيــهُ بِكُــلِّ قُبــحٍ   فَــأَكــرَهُ أَنْ أَكــونَ لَــهُ مُجيبــا[7]

= وعليها أن تتمسك بالصمت عند سورة الغضب من زوجها .

(١) لأن الحقد وإضمار الأذى ، إذا اجتمعا مع الحب في قلب ما ، فإن الحب سيزول ويفنى وتبقى الضغينة والشحناء .

(٢) بهجة المجالس ٢/ ١١٥ ، ومحاضرات الأدباء ١/ ٦٨ ، ونسبت للخليل بن أحمد الفراهيدي ، انظر الكامل في اللغة والأدب للمبرد ١/ ٢٤١ .

(٣) الأغبياء والجهلاء هم الذين يصدقون المنجمين . فأبلغوا عنّي المنجمين أني كافر بأكاذيبهم ولا أستخير الكواكب في شأن من شؤوني .

(٤) لأني أعلم علم اليقين أن ما كان من الأمور في الماضي وما سيكون منها مستقبلاً ، إنما هو قضاءٌ ومقدر من الذي فطر السموات والأرض ومن بيده مقاليد الأمور .

(٥) وأنا شاهد على من ادعى التكهن والعلم بالنجوم، إن مثل هذا المخلوق كذاب ، ويعيب على المقادير حكمها النافذ، شاء أم أبى .

(٦) أحسن القصص ٤/ ١٠٥ ، ونسب البيتان للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، انظر الديوان ١٦ .

(٧) السفيه لا يحترم الناس، وكثيراً ما يخاطب الفضلاء من الخلائق بكل قبح وسفاهة ، وإذا قُدِّر لي مواجهة مثل هذا الإنسان ، فإني أربأُ بنفسي أن أجيبه .

يَـزِيـدُ سَفـاهَـةً فَـأَزِيـدُ حِلمـاً كَعـودٍ زادَهُ الإِحـراقُ طيبـا[1]

أنت حسبي

أَنتَ حَسبي وَفيكَ لِلقَلبِ حَسبُ وَلحَسبي إِنْ صَحَّ لِي فيكَ حَسبُ[2]

لا أُبـالـي مَتـى وِدادُكَ لـي صَـحَّ مِـنَ الـدَّهـرِ مـا تَعَـرَّضَ خَطـبُ[3]

بالفضل يعلو الإنسان

أَرى الغِرَّ في الدُّنيا إِذا كانَ فاضِلاً تَرَقّى عَلى روسِ الرِّجالِ وَيخطُبُ[4]

وَإِن كـانَ مِثلـي لا فَضيلَـةَ عِنـدَهُ يُقاسُ بِطِفلٍ في الشَوارِعِ يَلعَبُ[5]

سأضرب في الأرض[6]

سَأَضرِبُ في طولِ البِلادِ وَعَرضِها أَنـالُ مُـرَادي أَو أَمـوتُ غَـريبـا[7]

---

(١) العود: ضرب من الطيب يتبخر به. وكلما ازداد في سفهه ازددت حلماً وترفعاً، ومَثَلِي في ذلك عود الطيب الذي تعم رائحته الأرجاء، عندما تزيده إحراقاً.

(٢) إنها مناجاة، وهي مناجاة راقية، فأنت يا إلهي تكفيني أمري كله، وفي قربك ومودتك للقلب كفاية لا مطمع بعدها، فأنت كفايتي ومنتهى أملي إن صح مني العزم وصفا القلب.

(٣) إن رضيت عني، ومنحتني القرب والوداد، فإني لا أبالي بعد ذلك ما ستأتي به الأيام، وما ستحمله من المصائب والخطوب.

(٤) قيمة المرء بما يملكه من فضل، وليست قيمته بما يملكه من مال أو جمال أو كبر في السن، فالفتى ذو التجارب القليلة، سيرتفع فوق أكتاف الرجال ليخطب فيهم إذا كان حليماً حكيماً.

(٥) أما من كان قليل الفضل مثلي ـ وهذا تواضع منه ـ فإن قيمته تقاس بقيمة طفل صغير لا هَمَّ له إلا اللعب مع قرنائه في الشوارع.

(٦) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٨٥.

(٧) علو الهمة من الإيمان، سأجوب بلاد الله تعالى الواسعة طولاً وعرضاً، حتى=

فَــإِن تَلِفَــت نَفســي فَلِلَّـــهِ دَرُّهــا وَإِن سَلِمَت كانَ الرُّجوعُ قَريبا[1]

دعاء[2]

سَقـى اللهُ أرضَ العـامريِّ غَمـامـةً وَردَّ إلى الأوطانِ كلَّ غَرِيبِ[3]

وَأعطى ذَوي الحاجاتِ فوقَ مُنَاهُمُ وأمتـعَ مَحبـوبـاً بِقُـرْبِ حَبيـبِ[4]

اغترب[5]

ما في المُقامِ لِذي عَقلٍ وَذي أَدَبِ مِن راحَةٍ فَدَعِ الأَوطانَ وَاغتَرِبِ[6]

سافِر تَجِد عِوَضاً عَمَّن تُفارِقُهُ وَانصَبْ فَإِنَّ لَذَيذَ العَيشِ في النَّصَبِ[7]

= أحقق ما أريده من رفعة أو مال أو علم، أو أمضي غريباً لا يعرفني أحد.

(١) سأبذل نفسي وأتعبها وأحملها فوق طاقتها، فإن تلفت فلله درها لأنها فارقت الدنيا وهي مجاهدة، وإن سلمت فإن الرجوع قريب.

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٨٥.

(٣) أسأل الله الكريم أن يمنّ على أرض العامري بغمامة تسقي الزرع، وتحيي الضرع، وأسأله تعالى أن يردّ كل مغترب إلى وطنه لينعم بالأنس مع أهله وأحبائه.

(٤) وأتضرع إليه أ ن يعطي كلَّ ذي سؤلٍ سؤله، وأن يزيدهم من فضله، كما أرجوه وأطمع منه أن يجمع شمل الأحباء جميعاً، لأن في ذلك بهجة لهم وسروراً.

(٥) توالي التأسيس ١٤٤، جواهر الأدب ٧٢٥ ـ ٧٢٦. ونسبت الأبيات لأبي فراس العامري المعروف بمجد العرب وهو غير أبي فراس الحمداني. الحركة المدروسة حياة، والجمود الخامل موت. . .

(٦) الإنسان العاقل الذي يشعر بالكرامة، لا يطيب له العيش والمقام في بلد لا يستطيع أن يقدم شيئاً لمن هم حوله، ويستفيد هو نفسه من هذا المقام؛ لذلك فمغادرة الأوطان في مثل هذه الحال لازمة.

(٧) وانصب: جدَّ في الأمر واجتهد فيه. إن من يغامر فيسافر ويغترب سوف يجد=

إنّـي رَأَيـتُ وُقـوفَ المـاءِ يُفسِـدُهُ … إن ساحَ طابَ وَإن لَم يَجرِ لَم يَطِبِ[(١)]
وَالأُسدُ لَولا فِراقُ الأَرضِ ما افتَرَسَت … وَالسَّهمُ لَولا فِراقُ القَوسِ لَم يُصِبِ[(٢)]
وَالشَّمسُ لَو وَقَفَتْ في الفُلْكِ دائِمَةً … لَمَلَّها الناسُ مِن عُجمٍ وَمِن عَرَبِ[(٣)]
وَالتِّبرُ كَالتُّربِ مُلقىً في أَماكِنِهِ … وَالعودُ في أَرضِهِ نَوعٌ مِنَ الحَطَبِ[(٤)]
فَـإِن تَغَـرَّبَ هَـذا عَـزَّ مَطلَبُـهُ … وَإِن تَغَـرَّبَ ذاكَ عَـزَّ كَـالـذَهَـبِ[(٥)]

= بديلاً عمن يفارقهم من الأحباب والأصحاب، وهو بعمله هذا سوف يلقى بلا شك نوعاً بل أنواعاً من المشقة، ولكن هل تلذ الحياة إلا إذا مزجت بالجهد والتعب؟

(١) ساح: جرى وسال. والماء الذي هو سرّ الحياة، يعطينا درساً بليغاً في هذا المجال، فهو إن بقي ساكناً لا يجري فسوف يصبح آسناً تعافه النفس. أما إذا جرى رقراقاً، فإن المخلوقات تتخاطفه، لأنه يكون بشير خير، ينثر الرخاء أينما حلّ.

(٢) فالسباع في غاباتها، إن لم تفارق أوكارها طلباً للصيد، ما أصبحت سباعاً ضاربة تهابُها الحيوانات. وكذلك السّهم، كيف له أن يصيب عدواً أو يوفّر صيداً إن لم يفارق قوسه.

(٣) والشمس التي هي علة بقاء الكائنات المبثوثة على هذه الأرض، لو أنها وقفت جامدة في كبد السماء، لا تريم مكانها في الفضاء، ولم تتحرك كما قدّرها الخالق الحكيم، لملّها الناس على اختلاف مشاربهم.

(٤) التبر: الذهب. وقلْ ذلك عن سيد المعادن الذهب الذي يقتتل الناس من أجله ويفني بعضهم بعضاً، هل يظل بهذا الخطر، إذا لم يستخرج من الأرض ويعالج، وأعواد الطيب كذلك، لا قيمة لها إن لم تنقل من مكانها، فيعرفها الناس، وإلا ستكون كغيرها من الأعواد التي تستعمل حطباً.

(٥) إن حركة العود من أرضه أضفت عليه قيمة غالية، وكذلك حركة الإنسان ومغادرته بلدته تكسبه العزة والرفعة التي اكتسبها الذهب عندما فارق التراب.

جواب اللَّئيم[1]

قُلْ بما شِئتَ في مسبَّةِ عِرضِي فَسَكُوتي عن اللَّئيمِ جَوابُ[2]
مَا أنَا عَادمُ الجوابِ ولكنْ مَا مِنَ الأسدِ أن تُجيبَ الكِلابُ[3]

الخطوب تنوب[4]

لَئنْ بَعُدَتْ دَارُ المعزَّى ونابَه مِن الدَّهر يَومٌ والخطُوبُ تَنوبُ[5]
لمشيٌّ على بُعدٍ على عِلَّةِ الوجَا أَدِبُّ ومن يقَضِ الحقُوقَ دبوبُ[6]
أَلَذُّ وأحْلَى مِن مَقالٍ وخَلفَهُ يقالُ إذا ما قُمتَ أنتَ كَذوبُ[7]
وهل أَحدٌ يُصغِي إلى عُذْرِ كَاذبٍ إذا قَالَ لم تَأبَ المقالَ قلوبُ[8]

---

(١) أحسن القصص ٤/ ١٠٦ وفي البيت الثاني اقواء والأصل (الكلابا) مفعول به منصوب.

(٢) كريم النفس يترفّع عن مجاراة اللئيم، فإن أنت بادرتني بالسّباب، وأكثرت منه، فإن جوابي عنه هو السكوت الحازم.

(٣) لست بعاجز عن ردّ الجواب على اللئام، ولكن ليست من شيمة الأسود أن تردّ على الكلاب، مهما تحرّشت بها، فإن لكل واحد منهما مكانته وقدره.

(٤) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ١٠٢، وتاريخ دمشق ١٠/ ٢٠٧.

(٥) الحياة ممتلئة بالخطوب، فإن أصيب أخ لي بواحدة منها، وهذا متوقع في هذه الحياة المشحونة بالنوائب.

(٦) الوجا: وجع في القدم. فإني لن أتوانى عن مواساته مشياً على قدميَّ المصابتين، وسأدبّ إلى هذا الواجب دبيباً، ومن أراد أداء حقوق الصحبة، فهو دبوب إلى مقصده، أي أنه يسير ولو ببطء شديد.

(٧) إن هذا الدبيب لأداء هذا الحقّ، ألذّ عندي وأجمل من كلام معسول يُلقى، ثمّ يقال بعد ذلك كله لقائله أنت كذوب، لأنك لم تصدق القول بالفعل.

(٨) وهل هناك من أحد يستمع إلى عذر كاذب إذا تكلم بكلام منمّق قد تميل القلوب إلى تصديقه، على الرغم من كذبه.

هكذا الدَّهر[1]

وما الدُّهرُ إلاَّ هَكذَا فاصطَبرْ لَهُ رَزِيَّـــةُ مَـــالٍ أَوْ فـــراقُ حَبيـــبِ

تناظر بشر المريسي والشافعي في حضرة الرشيد ، فقال بشر[2] :

أهــابُــكَ يــا عمــرو مــا هبتَنِــي وخـــافَ بُشــــراك إذ هبتَنِـــي

وتــزعُــم أُمِّــي عــن أبيــهِ مــن أولادِ حـــامٍ بهـــا عِبتَنِـــي

فأجابه الشافعي رحمه الله تعالى[3] :

أحِـبُّ مكـارِمَ الأخـلاقِ جُهـدِي وَأكـرَهُ أَنْ أَعِيـبَ وَأَنْ أعُـابَـا[4]

وَأصفَحُ عَنْ سِبابِ النَّاسِ حِلماً وشرُّ النَّاسِ مَنْ يهوى السِّبابَا[5]

سليمُ العِرضِ مَنْ حَذِرَ الجوَابَا وَمَنْ دَارى الرِّجالَ فَقَدْ أصَابَا[6]

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٨٩، والمخلاة ١٢٨ . وقد ورد البيت في الديوان المنسوب إلى الإمام علي كرم الله وجهه ص١٧ وهو :
وما الدهر والأيام إلا كما ترى رَزِيَّـــةُ مَـــالٍ أوْ فِـــراقُ حَبِيـــبِ

(٢) حلية الأولياء ٩/ ٨٣ .

(٣) وأيّ كنـز في الدنيا يعدل مكارم الأخلاق؟

(٤) كريم النفس جُبل على حب مكارم الأخلاق، فهو لا يألو جهداً في التحلي بها، وهو في الوقت نفسه يكره كل حركة أو سكنة يعاب عليها .

(٥) والكريم من الناس، يعرض عن شتم اللئيم الذي بادره بالشتائم، يعرض عنه حلماً وترفعاً لا جبناً وانكساراً، لأن شرار الخلق يهوون السباب والشتائم والبذيء من القول .

(٦) أما الماجد العفيف فيصون عرضه، ويحذر أن يقابل الناس بما يكرهون، بل يداريهم ويسلك معهم سبيل الرفق واللين، لأن ذلك هو طريق الصواب والسلامة .

ومَــنْ هــابَ الــرِّجــالَ تَهيَّبُــوهُ   ومنْ يُهِنِ الرِّجالَ فَلَنْ يُهابَا[1]
ومَـنْ قَضَـتِ الـرِّجـالُ لَـهُ حُقُـوقـاً   ومَنْ يعصِ الرِّجالَ فمَا أَصَابَا[2]

* * *

(١) وهو أيضاً لا يستخف بأحد، فيحسب لكل إنسان حسابه، فلا يستهين بمخلوق مهما قل شأنه، لأن الذي لا ينزل الناس منازلهم، لن يلقى من أحدٍ إكراماً.

(٢) إن من يتخلق بهذه السجايا، لا يتوانى الناس ـ أكثرهم ـ من أداء حقوقه من الاحترام وبذل المستطاع لإرضائه، أما الذي يجافي أقرانه وخلطاءه ويسلك معهم سبيل العناد والاختلاف فإنه أخطأ الصواب، ولن يجد حوله إلا القليل ممن يتعاملون معه.

قافية التاء

المال يوجب العطاء[1]

وَأَنطَقَتِ الدَّراهِمُ بَعدَ صَمتٍ أُناساً بَعدَ أَنْ كانوا سُكوتا[2]
فَما عَطَفوا عَلى أَحَدٍ بِفَضلٍ وَلا عَرَفوا لِمَكرُمَةٍ ثُبوتا[3]
كَذاكَ المالُ يُنْطِقُ كلَ عَيٍّ ويَترُكُ كلَّ ذِي حَسَبٍ صَموتا[4]

مكارم الأخلاق

إذا رُمتَ المَكارِمَ مِن كَريمٍ فَيَمِّم مَن بَنى لِلَّهِ بَيتا[5]

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٦٣، وطبقات الشافعية للسبكي ١/ ٦٠، وحلية الأولياء ٩/ ١٤٨.

(٢) المال من زينة الحياة الدنيا، وغالباً ما يشعر صاحب المال بالقوة بعد الضعف، وبالفصاحة بعد أن كان لا يحسن النطق إلا قليلاً.

(٣) وكثير من أولئك الذين منّ الله تعالى عليهم بالمال يبخلون، فلا يحسنون لأحد، أو يعطفون على من هو بحاجة إلى عطف ورعاية، وفوق ذلك فقد جعلوا بينهم وبين المكرمات حاجزاً لا يعرفون لها مستقراً ومقاماً.

(٤) العيُّ: العاجز عن الكلام. تلك طبيعة المال في هذه الحياة الدنيا، تجعل من الأعيَّاء فصحاء إذا تحدثوا، وقلة المال تجعل ـ في كثير من الأحيان ـ ذوي النسب والفضل صامتين وهذا من المحزنات.

(٥) إذا طلبت مكارم الأخلاق، وفضائل الشيم، فتوجه إلى ذاك الإنسان الذي بنى بيتاً لله تعالى، سواء كان هذا البناء مادياً بالمساهمة في رفع البنيان، أم كان هذا البناء معنوياً، بحضوره الجماعة في أوقاتها وما يتبع ذلك من تعارف ومودة وحب بين المصلين.

فَـذاكَ اللَّيـثُ مَـن يَحمـي حِمـاهُ   وَيُكـرِمُ ضَيفَـهُ حَيّـاً وَمَيتـا[١]

جواب السَّفيه[٢]

إذا نَطَـقَ السَّفيـهُ فَـلا تُجبـهُ   فَخَيـرٌ مِـن إجـابَتِـهِ السُّكـوتُ[٣]

فَـإن كَلَّمتَـهُ فَـرَّجـتَ عَنـهُ   وَإن خَلَّيتَـهُ كَمَـداً يَمـوتُ[٤]

سَكَـتُّ عـنِ السَّفيـهِ فَظَـنَّ أَنِّـي   عَييتُ عنِ الجَوابِ وما عَيِيتُ[٥]

همَّته العبادة[٦]

قَليـلُ المـالِ لا وَلَـدٌ يمَـوتُ   ولا هَـمٌّ يُبـادرُ مـا يفُـوتُ[٧]

---

(١) إن مثل هذا الإنسان هو القوي حقاً، وهو بمنزلة الليث الذي يذود عن حماه ويكرم نزلاءه في حياتهم وبعد مماتهم.

(٢) البيت الأول في أدب الدنيا والدين للماوردي منسوب لـ (عمرو بن علي) ومعه البيت الثالث:

سكـت عـن السفيـه فظـن أنّـي   عييـت عـن الجـواب ومـا عييت

(٣) كثيراً ما يلتقي الإنسان في حياته مع جهلاء لا يعقلون، وفوق ذلك فألسنتهم تنطق بالفحش من القول، فإذا قدر لواحدنا أن يجتمع بأحد من هؤلاء ويسمع منه كلاماً يؤذي، فالدواء الناجع في مثل هذا الموقف هو السكوت.

(٤) لأنك إن أجبته، وجاريته في سفاهته، فقد فرجت عنه، وجعلته يستمد من ذلك قوة، أما إن أعرضت عنه، فإنه سيموت كمداً وغماً.

(٥) وإني عندما أسكت عن إجابة السفيه فإني أفعل ذلك، لأني أكرم نفسي من الانحدار بها إلى مستواه، إلا أنه لغبائه يظن أي سكوت عنه عجزاً أو ضعفاً.

(٦) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٩٨، ومناقب الشافعي للفخر الرزاي ٢٧٣.

(٧) الهم: الغمّ والحزن. طوبى لمن قل ماله، إنه خفيف الحمل من الأعباء، وغالباً ما يحجم عن الزواج وإنجاب الأولاد، وبذلك لا يحزن على فقد ولد، ولا يحمل هماً لما سيأتي، أو يسارع الزمن ليدرك الأمور قبل فواتها.

قَضَى وَطَرَ الصِّبا وأفادَ عِلْماً ... فهمَّتُهُ التَّعَبُّدُ والسُّكوتُ[1]
خَفيفُ الظَّهْرِ لَيْسَ لَهُ عِيالٌ ... خَليٌّ مِنْ حُرِمتُ وَمِنْ دُهِيتُ[2]

السعد تارات وهبّات[3]

النَّاسُ بالنَّاسِ ما دامَ الحياةُ بِهِم ... والسَّعدُ لا شَكَّ تاراتٌ وهبَّاتُ[4]
وأَفضَلُ النَّاسِ ما بينَ الورَى رَجُلٌ ... تُقضى على يدِهِ للنَّاسِ حاجاتُ[5]
لا تمنعنَّ يَدَ المعروفِ عَنْ أَحَدٍ ... ما دُمْتَ مُقْتَدِراً فالسَّعدُ تاراتُ[6]
وَاشكُرْ فضائلَ صُنْعِ اللَّهِ إذ جُعلَتْ ... إِليكَ لا لكَ عنْدَ النَّاسِ حَاجاتُ[7]

---

(١) وطر الصبا: مرحلة الصبا. إنه أمضى مرحلة صباه بطلب العلم، واكتساب المعرفة، ومن ثمّ بادر إلى الإكثار من العبادة، وعمل الخيرات تقرباً إلى الله تعالى، وغالباً ما تراه صامتاً، لأن في الصمت أحياناً عبادة.

(٢) خلي: خالي البال. لقد أراح نفسه من أعباء هذه الحياة الصاخبة، فهو لم يتزوج لينجب أطفالاً ينوء بتربيتهم وتدبير شؤونهم، لذلك فهو خليّ البال، لا يشكو من حرمان أو من كثير من المصائب التي تزخر بها الحياة.

(٣) المنهج الأحمد ١ / ٧١. الإحسان إلى الناس سبب لاستعباد قلوبهم....

(٤) تارات: مفردها تارة وهي فترة، هبّات: مفردها هبّة. الخلق كلّهم يخدم بعضهم بعضاً، وهم كذلك ما داموا على قيد الحياة، والغنى والسّعد لا يكونان من نصيب الإنسان دائماً، فإن السعد يشرق مرة ويغيب أخرى.

(٥) والفاضل من الناس من يكون هدفاً لذوي الحاجات، يقصدونه فيكون الكهف الآمن لهم، يقضي لهم رغباتهم ويعينهم على تذليل العقبات التي تعترضهم.

(٦) مقتدراً: قادراً على المعروف. وأنت أيها الإنسان الكريم إياك أن تمنع يد العون عن أحد، ما دام الله تعالى قد أكرمك وجعلك قادراً على قضاء الحاجات، فإنك لا تدري هل سيدوم هذا السعد معك، أم سيتحول؟

(٧) وعلى العاقل أن يسجد لله تعالى شكراً دائماً، أن جعل حاجات الناس تقضى=

قَدْ ماتَ قومٌ وما ماتَتْ مَكارِمُهُم وَعاشَ قومٌ وَهُمْ في النَّاسِ أمْواتُ[1]

خلق المسلم[2]

لَمّا عَفَوتُ وَلَم أَحقِدْ عَلى أَحَدٍ أَرَحتُ نَفسي مِن هَمِّ العَداواتِ[3]
إِنّـي أُحَيّـي عَـدوّي عِنـدَ رُؤيَتِـهِ لأَدفَـعَ الشَّـرَّ عَنّـي بِـالتَّحِيّـاتِ[4]
فَـأُظهِـرُ البِشْـرَ لـلإِنسـانِ أُبغِضُـهُ كَـأَنَّـه قَـد حَشَـا قلبـي محبَّـاتِ[5]

= على يديه، ولم يجعله طالباً حلّ مشكلاته من غيره من المخلوقات، إنه فضل ومنةٌ عليه أن يعترف بهما.

(١) هناك كثير من الخلائق فارقوا الحياة الدنيا، ولكن ذكرهم باق على كل شفة ولسان اعترافاً بما قدّموه من معروف، وبين ظهرانينا أناس أحياء صورة، يتحركون ويظهرون بين الناس ولكنهم في الحقيقة أموات لا يُذكرون في ناد ولا محفل.

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٨٧، ومعجم الأدباء لياقوت ١٩/ ٢٩٤، وتنسب هذه الأبيات إلى (عبد القادر بن محمد بن عمر بن حبيب الصفدي الشافعي). أخلاق المسلم؛ ذروة الأخلاق، كيف لا وهي المأثورة عن الرسول الكريم ﷺ الذي كان خلقه القرآن.

(٣) الإنسان الصالح في هذه الحياة، لا يعدم من مخالطة أناس مختلفين في المشارب، فمنهم الصالح ومنهم غير ذلك. والفرد الذي يجعل العفو شعاره، وترك الحقد ديدنه، هو الذي يعيش رخيَّ البال، قلَّما يعاديه إنسان في حياته.

(٤) وهو زيادة في تعميق هذا الخلق الرفيع يُحيّي عدوّه إذا رآه، وكأنه صديق حميم، يفعل ذلك اتقاءً لشره، وليدرأ عن نفسه العداء، بتحية يرسلها إليه.

(٥) أظهر البشر: أظهر السرور بلقائه. فأنا أظهر البشر، وأعلن المودّة، للإنسان الذي قد يكون مبغضاً إليّ، وذلك إمعاناً في هذا الخُلق الذي عزمت أن أتبعه، ويظهر ذلك وكأنه صادر من قلب مفعم بالحبّ.

النَّـــاس داَءٌ وداءُ النَّـــاسِ قُـــربُهُـــمُ وَفي اعْتزالِهِم قَطْعُ المَوَدَّاتِ[1]

وَلستُ أَسلمُ مِنْ خِلٍّ يخالِطُني فَكَيْفَ أَسلمُ مِنْ أهلِ العَدَاوَاتِ[2]

وَأحـزمُ النَّـاسِ مَـن يَلقـى أعـادِيـه في جسمِ حِقْدٍ وَثَوْبٍ من مَوَدَّاتِ[3]

الأخوَّة[4]

أُحِـبُّ مِـنَ الإِخـوانِ كُـلَّ مُـواتـي وَكُلَّ غَضيضِ الطَّرفِ عَن عَثَراتي[5]

---

(١) المودات: مفردها مودة وهي المحبة. بعض الناس ـ وهذه حقيقة لا تنكر ـ داء للآخرين، بمعنى أنهم يسلكون مع بني جنسهم سلوك السوء الذي هو أشد فتكاً من بعض الأدواء، لذلك فإن مخالطتهم خطرة، وفي الوقت نفسه. إن اعتزالهم قطع للصلات بين البشر، فعلى الإنسان أن يسلك سبيل الحكمة في المخالطة و الاعتزال.

(٢) خل: صديق صاحب. والفرد لا يسلم من أقرب الناس مودة له، فقد تظهر منه بعض الهفوات والتجاوزات، فكيف الحال مع أناس يبغضونك، ويناصبونك العداء جهاراً وعلانية؟!

(٣) فالحازم الذي يملك أمر نفسه، يلقى عدوّه ومبغضه وهو عارف بما يحمله له في صدره من عداوة وبغضاء، ومع هذا فإنه لا يَظهر له إلا بثوب المودة والإخاء، وذلك هو خلق المسلم.

(٤) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٧٩، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ١١٦، وتوالي التأسيس ٧٤، ونسبت الأبيات لأبي العتاهية، انظر ديوان أبي العتاهية بتحقيق المرحوم الدكتور شكري فيصل ص ٥٩.

(٥) غضيض الطرف: غضَّ الطرف: صرفه وأغمضه. العثرات: العيوب. الإخوان في الدنيا كُثُر، غير أني أحبّ منهم من كان بيني وبينه تواصل وتوافق في الطباع والآراء، وكذلك أرغب فيمن يتجاوز عن أخطائي، ولا يحصي عليّ العثرات والهفوات.

يـوافِقُنـي فـي كُـلِّ أَمـرٍ أُريـدُهُ ... وَيَحفَظُنـي حَيّاً وَبَعـدَ مَمـاتـي[1]
فَمَـن لـي بِهَـذا لَيـتَ أَنّـي أَصَبتُـهُ ... فقاسَمتُهُ مالي مَعَ الحَسَناتِ[2]
تَصَفَّحـتُ إِخـوانـي فَكـانَ أَقَلُّهُـم ... عَلى كَثرَةِ الإِخوانِ غيرَ ثِقاتي[3]

إحدى المصيبات[4]

يَاَ لهفَ نَفسِي على مالٍ أُفرِّقُهُ ... على المُقلِّينَ مِنْ أَهْلِ المرُوءاتِ[5]
إنَّ اعتذارِي إلى مَنْ جاءَ يَسْأَلُني ... ما ليسَ عنديَ مِنْ إحْدَى المُصِيباتِ[6]

خلق الرَّجل[7]

جَزَى اللهُ عَنَّا جعفراً حينَ أُزْلِفَتْ ... بنا أَهلُنا في الوَاطِئينَ فزلَّتِ[8]

---

(١) أكون وإياه متفقان في الأمور التي نريدها أو نبغي تنفيذها، فهو الذي يحفظ الود ويحفظني ويدفع عني الأذى في حياتي وبعد مماتي.

(٢) ولكن كيف أعثر على من قد وصفته، إني إذا عثرت عليه، فلن أتردد في مقاسمتي إياه مالي وحسناتي التي هي ذخر لي في الآخرة.

(٣) تذكرت إخواني، وأعدت تقويمهم، فلم أجد ـ ويا للأسف ـ إلا القليل ممن هم أهل للثقة وحسن الصحبة.

(٤) مناقب الشافعي للفخر الرزاي ٢٠٣، وطبقات الشافعية للسبكي ١/ ١٥٩، وبهجة المجالس ١/ ٤٨٦ ولكنه أشار إلى أنه تمثل بهما.

(٥) ليتني أملك مالاً فأقسمه على أولئك المقلين من أهل المروءات، فأبادرهم بسدِّ حاجاتهم قبل أن يسألوها.

(٦) إن من أكبر المصائب لديّ، عندما يأتي واحد من هؤلاء فيسألني شيئاً لا أملكه، فلا أستطيع إجابة سؤاله.

(٧) آداب الشافعي ومناقبه للرازي ٢٧٧، وقال بعض أهل العربية وهذا الشعر لطفيل الغنوي، حلية الأولياء ٩/ ١٥٣، والانتقاء ٨٧.

(٨) أسأل الله الكريم أن يجزي جعفراً خير الجزاء، لما قدمه لي ولأهلي عندما ضاقت بنا السبل وعبست في وجهنا الأيام.

أَبَـوا أَن يَمَلّـونـا وَلَـو أَنَّ أُمَّنـا ... تُلاقي الَّذي يَلقونَ مِنّا لَمَلَّتِ[1]

هُـمُ خَلَطـونـا بِـالنُّفـوسِ وَأَلجَـؤوا ... إِلـى حُجُـراتٍ أَدفَـأَتْ وَأَظَلَّـتِ[2]

وَقـالُوا هَلمُّـوا الـدَّارَ حتـىَ تَبيَّنـوا ... وَتَنْجَلـيَ الغَمَّـاءُ عَمَّـا تَجلَّـتِ[3]

وَمِـنْ بَعـدِ مَـا كُنَّـا لِسلمـى وأهلِهـا ... عَبيـداً وَملَّتْنَـا البِـلادُ وَمَلَّـتِ[4]

آل الرَّسول ﷺ[5]

آلُ النَّبِـيِّ ذَريعَتِـي ... وَهُـمُ إليـهِ وَسِيلَتِـي[6]

أَرجُـو بهـم أُعْطَـى غَـداً ... بيـدِي اليَميـنِ صَحيفَتِـي[7]

* * *

---

(١) إنهم لم يملونا بل تحمَّلوا أعباءنا بصبر وكرم، ولو أننا كنا في ضيافة أمهاتنا، لملت منا، ولكنهم لم يفعلوا.

(٢) لقد جعلونا معهم ومنهم أسرة واحدة، وأسكنونا حجراتٍ تنعم بالدفء شتاء وبالظلال صيفاً.

(٣) أكرمونا غاية الإكرام، وقالوا لنا: اسكنوا في دورنا وتمتعوا فيها، حتى تطمئنوا إلى أمركم، وتنكشف عنكم هذه الغمة التي ألمت بكم.

(٤) لقد أكرمنا بعد أن أصابنا الذل والهوان من سلمى وأهلها، وأصبحنا عبئاً ثقيلاً على كل بلد نزلنا به.

(٥) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٦٩، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ٥١.

(٦) أهل بيت النبي ﷺ هم واسطتي لكل خير أرتجيه من ربي الكريم، ومحبتهم من أعظم القربات إليه تعالى.

(٧) إنني بهذه المحبة والمودة أرجو خالقي تعالى، أن يجعلني من الذين يؤتَون كتابهم بيمينهم وذلك هو الفوز العظيم.

قافية الجيم

فرج الله قريب[1]

وَلَـرُبَّ نـازِلَـةٍ يَضيـقُ لَهـا الفَتـى ذَرعـاً وَعِنـدَ اللهِ مِنها المَخـرَجُ[2]
ضاقَت فَلَمّا استَحكَمَت حَلَقاتُها فُرِجَتْ وَكُنتُ أَظُنُّها لا تُفرَجُ[3]

ما أقرب الفرجا[4]

صَبـراً جميـلاً مـا أقـربَ الفَـرجـا مَنْ راقبَ اللهَ في الأمورِ نجَا[5]
مَـنِ اتَّقـى اللهَ لـم يَنَلْـهُ أذى وَمَـنْ رَجَـاهُ يكـونُ حيثُ رَجَـا[6]

---

(١) روي أن هذين البيتين (لإبراهيم بن العباس) كما حدَّث الصولي عن العباس بن محمد.

(٢) مصائب الدنيا ونوازلها كثيرة، ولَرُبَّ إنسان يصاب بواحدة منها، فيضيق بها ذرعاً، ويظن ألا انكشاف لها، وإذا بالخالق الرحيم قد جعل لها مخرجاً سهلاً.

(٣) تتابعت هذه المصائب، واستحكمت حلقاتها واشتدت، حتى إني ظننت ألا مخرج منها، وإذا بها تُحَلُّ عقدها، بعد أن كنت أظن ألا انعتاق منها.

(٤) طبقات الشافعية، ونسب البيتان للربيع بن سليمان بن عبد الجبار المتوفى سنة ٢٠٧هـ.

(٥) ما رزق الإنسان شيئاً أفضل من الصبر، والصبر الجميل البعيد عن التذمر والشكوى ومراقبة المولى تعالى والتضرع إليه، يفتح له باب النجاة.

(٦) من كان صادقاً في تعامله مع خالقه الكريم، لم ينله شيء من الأذى، ومن كان يرجوه سراً وعلانية، فسوف ينال منه ما يرجوه ويؤمله لا محالة.

قافية الحاء

القضاء غالب(١)

الهَــمُّ فضَــلٌ والقَضَــا غــالــبُ   وكــائــنٌ مــا خُــطَّ فــي اللَّــوحِ(٢)
أنتظِــــرُ الــــرَّوحَ وأسبـــابَـــهُ   آيَــسَ مــا كنــتُ مِــنَ الــرَّوْحِ(٣)

الصَّمت شرف(٤)

قالوا سَكَتَّ وَقَد خُوصِمتَ قُلتُ لَهُم   إِنَّ الجَـوابَ لِبـابِ الشَّـرِّ مِفتـاحُ(٥)
وَالصَّمتُ عَن جاهِلٍ أَو أَحمَقٍ شَرَفٌ   وَفيهِ أَيضاً لِصَونِ العِرضِ إِصلاحُ(٦)

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/١٠٨.

(٢) الهم الذي يعتري الإنسان عندما تصيبه مصيبة، هذا الهم هو زيادة في الكرب لأن القضاء هو النافذ وكل ما قُدِّر للمخلوق سوف يلقاه.

(٣) لذلك فانتظر السكينة والراحة، وفتش عن أسبابها، ودع ما كنت فيه من الراحة والأمل لأن الذي قُدِّر سوف يكون.

(٤) نتيجة الأفكار ٧.

(٥) عندما خوصمت من أحد السفهاء، قيل لي لقد سكت، ولم تردَّ عليه بما يستحق من الكلام، فأجبتهم: إن الإجابة في مثل هذا المقام مفتاح لباب الشر، ومدعاة لزيادة الخصام.

(٦) إن صمتي عن الجاهل حين يتطاول عليّ، وعن الأحمق الغبي الذي لا يعي ما يقول، إن صمتي آنذاك شرف لي، وهو يصون عرضي من أن يقدح.

أَما تَرى الأُسدَ تُخشى وَهِيَ صامِتَةٌ ... وَالكَلبُ يُخشى لَعَمري وَهوَ نَبّاحُ[1]

الفقيه والصُّوفي

فَقيهاً وَصوفِيّاً فَكُن لَيسَ واحِداً ... فَإِنّي وَحَقِّ اللهِ إِيّاكَ أَنصَحُ[2]

فذلِكَ قاسٍ لَم يَذُقْ قَلبُهُ تُقىً ... وَهَذا جَهولٌ كَيفَ ذو الجَهلِ يُصلِحُ[3]

المفتي المكِّي[4]

حدث الربيع بن سليمان قال: كنت عند الشافعي رضي الله عنه إذ جاءه رجل برقعة فقرأها ووقّع فيها، فمضى الرجل إلى باب المسجد، قلت: والله لا تفوتني فُتيا الشافعي فأخذت الرقعة من يده فإذا فيها:

سَلِ المفتيَ المَكِّيَّ هل في تَزَاوُرٍ ... وضَمَّةِ مُشتاقِ الفُؤَادِ جُنَاحُ

---

(١) ألست ترى المهابة التي يُلقيها أسدٌ صامت في قلوب الناظرين إليه، وما تلاحظ خسة الكلب الذي لا يفتأ يعوي وينبح، شتان بينهما، وفي هذا عبرة.

(٢) يرى الإمام ألا تكون فقيهاً فقط أو صوفياً فقط، فهو ينصح سامعه ألا يسلك طريق واحد منهما منفرداً، بل عليه الجمع بينهما، وأن لا يُهمل مسلكاً على حساب الآخر.

(٣) لأن الأول في نظره يقسو في أحكامه ولا يتهاون، ولأن قلبه بعيد عن المحبة والخوف والرجاء، والآخر جهول، لم يبلغ درجة العلماء في معرفة الأحكام التفصيلية للشريعة، فكيف تأخذ النصيحة منه.

(٤) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٩٤، ومعجم الأدباء لياقوت ١٧/ ٣٠٥، وحلية الأولياء ٩/ ١٥٠ ـ ١٥١، وطبقات الشافعية للسبكي.

وقال صاحب المختار من شعر بشار ٤٨ أبو طاهر إسماعيل بن أحمد التجيبي: وأنا أرتاب بهذه الحكاية عن الشافعي على كثرة إسنادها إليه وتعليقها به.

فوجدت الشافعي قد وقع وأجابه بقوله :

أَقولُ معاذَ اللهِ أنْ يُذهبَ التُّقى ... تلاصُقُ أكبادٍ بِهِنَّ جِراحُ

قال الربيع : فأنكرت على الشافعي أن يفتي بمثل هذا لمثل هذا الشاب ، فقال لي : يا أبا محمد هذا رجل هاشمي قد عرس في هذا الشهر (يعني شهر رمضان) وهو حدث السن ، فسأل : هل عليه جناح أن يُقبِّل أو يضمّ من غير وطء؟ فأفتيتُه بهذا .

قال الربيع : فتتبعت الشاب فسألته عن حاله فذكر لي أنه مثل ما قال الشافعي ، فما رأيت فراسة أحسن منها رضي الله تعالى عنه .

* * *

قافية الدال

التَّفويض لله تعالى[1]

إذا أَصبَحتُ عِندي قوتُ يَومي ... فَخَلِّ الهَمَّ عَنّي يا سَعيدُ[2]
وَلا تُخطِرْ هُمومَ غَدٍ بِبالي ... فَإِنَّ غَداً لَهُ رِزقٌ جَديدُ[3]
أُسَلِّمُ إِن أَرادَ اللهُ أَمراً ... وَأَترُكُ ما أُريدُ لِما يُريدُ[4]
وما لإرادتي وجهٌ إذا ما ... أرادَ اللهُ لي ما لا أريدُ[5]

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه للرازي/ ١٠٥، والبداية والنهاية لابن كثير، وتوالي التأسيس للحافظ ابن حجر العسقلاني. من توكل على الله تعالى كفاه أمر آخرته ودنياه.

(٢) إذا أصبح الإنسان وقد منّ الله تعالى عليه بقوت يومه، فقد انتفى عنه الهم، لأن المولى تعالى الذي كفل للعباد رزقهم؛ قد كفاه ذلك فليس للهم عنده من سبيل.

(٣) أما الغدُ فلا يعلم أحد ما سيأتي به، فهو من المغيبات التي اختصّ بها المولى تعالى، لذلك فإن التفكر في هموم الغد ليس من طبيعة المؤمن، فإن المستقبل كله بيده تعالى، وهو الذي كفل للمخلوقات كلها أرزاقها.

(٤) وإذا حدثت أمور، أو جدّت أحداث فإنني أفوّض الأمر فيها لله تعالى، وأترك كل مالا تنشرح له نفسي، لأن إرادتي تابعة لإرادته تعالى، فلا أريد إلا ما يريد.

(٥) وهل لإرادتي من أثر، إذا عزمت أمراً، أو فكرت في شيء لم يرده الله تعالى كلّا إنني لا أجرؤ على هذا، فأنا عبد أرضى بما يقدره الله تعالى.

الموت سبيل كلِّ حيّ[1]

تَمَنّى رِجالٌ أَن أَموتَ وَإِن أَمُتْ فَتِلكَ سَبيلٌ لَستُ فيها بِأَوحَدِ[2]
فَقُلْ لِلَّذي يَبغي خِلافَ الَّذي مَضى تَهَيَّأ لأخرى مِثلِها وكَأَنْ قَدِ[3]
وقَدْ عَلِمُوا لو يَنفعُ العِلمُ عندهُمْ لِئَنْ مِتُّ ما الدَّاعِي عليَّ بمُخْلَدِ[4]

أخلاق البشر[5]

لَيتَ الكِلابَ لَنا كانَت مُجاوِرَةً وَلَيتَنا لَم نَرَ مِمّا نَرى أَحَدا[6]
إِنَّ الكِلابَ لَتَهدَى في مَواطِنِها وَالخَلقُ لَيسَ بِهادٍ شَرُّهُم أَبَدا[7]

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٧٣، ومناقب الشافعي للرازي ١١٥، حلية الأولياء ٩/ ١٥١ وقد وردت هذه الأبيات في ديوان عبيد بن الأبرص ص ٦٨.

(٢) وهل هناك حيٌّ ينجو من الموت؟ لقد تمنى رجال من بني قومي، تمنوا لي الموت، وما علموا أني إذا متُّ، فتلك نهاية كل مخلوق، ولست الوحيد الذي سيلقاها.

(٣) أبلغ كل من يدعي خلاف ما أقول، وهيئ نفسك لمثل ذلك، ولا تظنن أن الغاية بعيدة، واعتقد جازماً وكأنها قد وقعت.

(٤) إن هؤلاء الأشخاص، قد علموا هذه الحقيقة، ولكن علمهم لم ينفعهم، فإني إذا قُدِّر عليّ الموت، فهل هم الخالدون؟!.

(٥) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٦٣، ومناقب الشافعي للرازي ١١٤، حلية الأولياء ٩/ ١٤٩.

(٦) الخلق متفاوتون، فمنهم من يجاري مرتبة الملائكة، ومنهم من ينحدر إلى مرتبة الشياطين، فالإمام يتمنى مجاورة الكلاب، ولا يرى أحداً من أولئك الذين أشبهوا الشياطين في أخلاقهم.

(٧) تهدى: تهدأ. والسبب أن هذه الكلاب عندما تكون في مرابضها، تتصف بالهدوء وتقنع بما هي فيه، أما أولئك فإنهم لا يعرفون للهدوء سبيلاً، فهم في هياج دائم.

فَاهرُب بِنَفسِكَ وَاستَأنِس بِوِحدَتِها   تَلْقَى سَعيداً إِذا ما كُنتَ مُنفَرِدا[1]

الحسد[2]

كُلُّ العَداوةِ قَدْ تُرجى إماتَتُها   إلاَّ عداوةَ مَنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدِ[3]

محن الزَّمان[4]

مِحَنُ الزَّمانِ كَثيرَةٌ لا تَنقَضي   وَسُرورُهُ يَأتيكَ كالأَعيادِ[5]
مَلَكَ الأَكابِرَ فَاستَرَقَّ رِقابَهُم   وَتَراهُ رِقّاً في يَدِ الأَوغادِ[6]

فوائد الأسفار[7]

تَغَرَّب عَنِ الأَوطانِ في طَلَبِ العُلا   وَسافِر فَفي الأَسفارِ خَمسُ فَوائِدِ[8]

---

(١) وإذا كان الأمر كذلك، فانطلق بنفسك إلى مكان تنعم فيه بالوحدة والسكينة، لأن الوحدة والابتعاد عن مثل هؤلاء، تجلب السعادة والحبور.
(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٧٤، ومناقب الشافعي للرزاي ١١٥.
(٣) مهما تنوعت العداوة بينك وبين بعض الناس، فإن الصلح ممكن، والمودة قد تعود، أما ذلك الشخص الذي يعاديك حسداً منه على نعمة أنعمها الله تعالى عليك، هذا الإنسان لا ترجى مودته.
(٤) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٩١.
(٥) مصائب الدهر ومحنه تأتيك تباعاً وربما استمرت شهوراً. أما الدَّعة والسرور فهما زائران خفيفان كالأعياد التي تمر مرة في السنة.
(٦) الوغد: الدنيء والساقط من الناس. هذه المحن والخطوب ملكت رقاب أكابر الناس، فجعلتهم كالأرقاء، لا يعرفون كيف يجدون لأمورهم مخرجاً، وهي في الوقت نفسه منقادة لبعض الأدنياء من بني البشر.
(٧) مرآة الجنان وعبرة اليقظان ٢/ ٢٦، ونسبت الأبيات للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، انظر الديوان المنسوب إليه ص ٤١. اغترب تتجدّد؛ مقالة قيلت قديماً. . .
(٨) علوُّ الهمة من الإيمان، وإن المرء مطالب بتوفير عيش كريم له ولمن يعوله، =

تَفَــرُّجُ هَــمٍّ وَاكتِســـابُ مَعيشَـــةٍ   وَعِلـمٌ وَآدابٌ وَصُحبَـةُ مـاجِـدِ[1]

فَإنْ قيلَ في الأَسفارِ ذُلٌّ وَمِحنَةٌ   وَقَطعُ الفَيافي وَارتِكابُ الشَّدائِدِ[2]

فَمَـوتُ الفَتـى خَيـرٌ لَـهُ مِـن قيـامِهِ   بِـدارِ هَـوانٍ بَيـنَ واشٍ وَحـاسِـدِ[3]

تقوى الله تعالى[4]

يُــريــدُ المَــرءُ أَن يُعطــى مُنــاهُ   وَيَـــأبـــى اللهُ إِلاّ مـــا أرادَا[5]

= فإن كان في البلد الذي يقيم فيه ضيق وعسر، فما عليه إلا أن يلتمس طريق الاغتراب، الذي ينأى به عن وطنه، ففي الاغتراب تحقيق بعض الآمال، وفيه فوائد خمس.

(١) الماجد: الرجل الكريم ذو الخلق الطيب. فالبعد عن الوطن والأهل أحياناً، تفريج همٍّ لزم صاحبه، ففي تغيير المقام شعور بالراحة، وفيه أيضاً كسب عيش كريم، يبعد شبح الفاقة والعوز. والسفر ـ في كثير من الأحيان ـ سبب لاكتساب المعارف والعلوم، ناهيك عن صحبة أناس أماجد فضلاء يكونون عوناً في الشدة وأنساً في الرخاء.

(٢) ومن الناس من يقول: إن السفر والاغتراب مدعاة للذل والبعد عن الأهل والأصحاب، وإنه ـ أي الاغتراب ـ مشقة وقطع للمسافات الطويلة، وتجشم لوعثاء التنقل، ومواجهة ضروب من الشدائد والمصاعب.

(٣) فالجواب الفصل عند ذلك هو أن موت الإنسان خير له من الإقامة في دار يُسامُ فيها الذل والهوان، وإن الغربة خير ألف مرة من العيش بين معشر حاسدين، ووشاة لا يرعون فيمن يعيش بين ظهرانيهم إلاً ولا ذمة.

(٤) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/١٠٠، وحلية الأولياء ٩/١٥١، وحدَّث محمد بن إبراهيم حدثنا يوسف بن عبد الأحد قال: قلت للمزني: كان الشافعي يتروح ببيتين من الشعر ما هما؟ فأنشدني: يريد المرء أن يعطى مناه... الخ.

(٥) كل امرئ يتمنى أن يدرك ما يبتغيه في هذه الحياة دون إبطاء، ولكنّ إرادة الله=

يَقـولُ المَـرءُ فـائِـدَتـي وَمـالـي   وَتَقـوى اللهِ أَفضَـلُ مـا استَفـادَا[1]

هكذا دهري

ولَمّا أَتَيتُ النَّاسَ أَطلُبُ عِندَهُم   أَخـا ثِقَـةٍ عِنـدَ ابتِـلاءِ الشَّـدائِـدِ[2]

تَقَلَّبـتُ فـي دَهـري رَخـاءً وَشِـدَّةً   وَنادَيتُ في الأَحياءِ هَل مِن مُساعِدِ[3]

فَلَمْ أَرَ فيما ساءَني غَيرَ شامِتٍ   وَلَم أَرَ فيما سَرَّني غَيرَ حاسِدِ[4]

الموت يطلبه[5]

ومُتْعَـبُ العَيْـشِ مُـرتـاحٌ إلـى بَلَـدٍ   والموتُ يطلبُه في ذَلِكَ البلدِ[6]

وضـاحِـكٌ والمنـايـا فـوقَ هـامتِـهِ   لو كان يَعلَمُ غَيباً ماتَ مِنْ كَمَدِ[7]

= سبحانه هي النافذة فعلاً وتسير وفق ما خُطط لها.

(١) يصيح المرء بملء فيه: أين مالي؟ أين الفوائد التي أرغب فيها؟ ولكنه ـ لجهله ـ لا يعلم أن تقوى الله تعالى ورضاه هما الكنز الذي سيدخره ليومٍ آتيه لا محالة.

(٢) أردت أن أختبر الناس، فطلبت منهم أخاً يكون عوناً لي عندما تغزوني الشدائد بلا رحمة، وأضع فيه ثقتي فيحفظها ويرعاها.

(٣) لقد ذقت في حياتي الحلو والمرّ، وتقلبت في دهري بين الشدة والرخاء، وعندما ناديت فيمن أجاورهم: هل من مساعدٍ يمد لي يده فينقذني مما أنا فيه؟.

(٤) لكنني لم أجد ـ ويا أسفي ـ لما أصابني إلا شامتاً سرّه ما أصابني، ولم أجد فيما سرّني من أحداث، إلا حاسداً يتمنى زوال النعمة عني.

(٥) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ١٠٦، ومناقب الشافعي للرازي ١١٨، والعمدة ١/ ٤٠.

(٦) قل لهذا الذي يُتعِب رواحله، قاصداً بلداً يظن أن فيه راحة له، وهو لا يدري أن حتفه ينتظره في ذاك البلد الذي يسعى إليه طلباً للراحة.

(٧) الكمد: الغم والحزن. أخبر هذا الإنسان الذي يضحك بملء شدقيه، =

مَنْ كانَ لم يُؤْتَ عِلماً في بقاءِ غدٍ ماذا تَفَكُّرُهُ في رِزْقٍ بعدَ غَدِ؟[1]

البرُّ في غير كنهه[2]

أتـانِـيَ عُـذْرٌ مِنْـكَ فـي غيـرِ كُنْهِـهِ كـأنَّـك عَـنْ بِـرِّي بـذاكَ تحِيـدُ[3]
لِسـانُـكَ هَـشٌّ بِـالنَّـوالِ ولا أرَى يمينـكَ إنْ جَـادَ اللِّسـانُ تَجـودُ[4]
إذا كـان ذو قُـرْبَـى لـديـك مُبعَّـداً ونالَ النَّدى مَنْ كانَ مِنكَ بَعيدُ[5]
تَفـرَّقَ عنـكَ الأقـربـونَ لشـأْنِهِـم وأشفَقْتَ أن تَبقى وَأنْتَ وَحيدُ[6]

= والمنايا جاثمة من فوقه، لو كان هذا المسكين يعلم شيئاً مما هو مُغَيَّبٌ له لمات غماً وحزناً.

(١) إن هذا المخلوق الضعيف إذا كان لا يعرف ما سيأتي به الغد من أمور، فلم يشغل فكره ويسهر الليل متفكراً في رزق بعد غده من الأيام؟!.

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٧٧، ومناقب الشافعي للرازي ١١٦. ذو الفضل الذي لا يبرُّ ذوي قرباه، يُستغنى عنه ويذمّ.

(٣) البر: الود والحب. تحيد: تميل وتنحرف. من الناس من يظهر لك الحب، ويُسمعك كلاماً معسولاً، لكن ذلك لا يعدو أن يكون رياء، وكأنه بهذه التصرفات يبعد وينحرف عن البر الحقيقي الذي يجب أن يبذل لذوي القربى.

(٤) اللسان ينثر الكلام والأقوال يميناً ويساراً وبسبب وبلا سبب، أما إذا تعدى الأمر إلى بذل العطاء والمال، مما يفرّج ويسد الخلة؛ فهو عن ذاك بعيد بُعدَ الأرض عن السماء.

(٥) أيها العاقل! ليكن ودّك وصِلاتك متلاحقة لذوي قرابتك، فهم أحق من غيرهم، لأن نداك وإحسانك إليهم، يجعلهم حصناً لك، وظلاًّ ظليلاً تتفيأ ظلاله متى شئت.

(٦) أما الإحسان والمعروف إلى الأباعد من الناس، بصرف النظر عن الغاية البعيدة التي تتأملها، وإهمالك الأدنين، فذلك الذي يفرقهم عنك، =

وأصبحتَ بينَ الحمدِ والذَّمّ واقفاً   فياليتَ شِعْـــرِي أيَّ ذَاك تُريدُ[1]
فإن قُلتَ: لي بيتٌ وسيطٌ وَبَسْطَةٌ   وأسلافُ صِدْقٍ قد مَضَوْا وجُدُودُ[2]
صَدقتَ، ولكنْ أنتَ خَرَّبتَ ما بَنَوا   بِكفَّيْـكَ عَمْـداً والبِنـاءُ جَـديـدُ[3]

الرَّواسي تقاد بالحقّ[4]

مَتى ما تَقُد بِالباطِلِ الحَقَّ يَأبَهُ   وَإِن قُدتَ بِالحَقِّ الرَّواسِيَ تَنقَدِ[5]
إذا ما أَتيتَ الأمرَ مِنْ غيرِ بَابِهِ   ضَلَلتَ وَإِنْ تَقْصِدْ إلى البابِ تَهتَدِ[6]

= ويبعدهم منك، ويطل عليك شبح الخوف من تركهم لك، وعندها ستشكو الوحدة التي كنت السبب في حدوثها ووجودها.

(١) وبعد هذا كله، ستبقى ماثلاً في وسط الطريق، الذي لا يوصلك إلى درجات الشكر والحمد على ما قدمته لهؤلاء الأقرباء، ولا هو في الوقت نفسه يضعك في زمرة المذمومين، فأنت مذبذب بين هاتين، فأخبرني عندها ماذا تريد؟ وأي شيءٍ تبغي؟!!

(٢) أما إذا قلت إني في سعة من العيش أتنعم في بيت عريق يظلني لا أعدم فيه شيئاً من الدعة والطمأنينة ولي قرابة وجدود كانوا أعلاماً مشهورين، لكنهم مضوا وارتحلوا.

(٣) فإنك صادق في ادّعائك، وليس بمقدور أحد أن ينكره عليك، غير أنك قد أسهمت في تخريب ذلك البنيان الشامخ، وقد كان في استطاعتك المحافظة عليه جديداً قائماً.

(٤) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير. تاريخ ابن عساكر (معهد) ١٠/ ٢.

(٥) الرواسي: الجبال. الحقّ يستمد قوته من قوة الله تعالى، ولهذا فإنه الغالب دوماً، وإذا ما أردت أن تجعل الباطل قائداً للحق، فإن ذلك لن يستقيم مطلقاً، أما إذا جعلت الحق قائداً وأساساً، فإن الجبال الرواسي تسير وفق إرادتك.

(٦) وكذلك هي الأمور يجب أن تؤتى من مصادرها الصحيحة، وأبوابها =

الشِّعر[1]

فلَولاَ الشِّعرُ بِالعُلَماءِ يُزري ... لكنتُ اليَومَ أَشعَرَ مِن لَبيدِ[2]
وَأَشجَعَ في الوَغى مِن كُلِّ لَيثٍ ... وَآلِ مُهَلَّبٍ وَبَني يَزيدِ[3]
وَلَولا خَشْيَةُ الرَّحمنِ رَبّي ... جَعلتُ النَّاسَ كُلَّهُمُ عَبيدي[4]

العلم للمعاد[5]

مَنْ طَلَبَ العِلمَ للمَعَادِ ... فازَ بفضلٍ مِنَ الرَّشَادِ[6]
فَنالَ حُسناً لِطالبيهِ ... بفضلِ نَيْلٍ مِنَ العِبادِ[7]

= الطبيعية، وإلاّ فإنك تخطئ الهدف، ولن تهتدي إلى الصواب.

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٦٢، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ١١٩، وفيات الأعيان ٤/ ١٦٧، وصبح الأعشى ١/ ٢٧٢.

(٢) يزري: يسيء وينقص من قدرهم. إن من البيان لسحراً، والشعر من البيان الراقي إذا قيل في وجوهه الشريفة، أما إذا اتخذه الإنسان وسيلة للكسب والنفاق، فإنه يضع من قيمة صاحبه ـ والعلماء خاصة ـ ولولا ذلك لكنت أشعر من لبيد ذلك الشاعر الذي ذاع صيته في الجاهلية والإسلام.

(٣) الوغى: الحرب. ولولا أن الحروب قد تكون ظالمة أحياناً، لكنت مشاركاً فيها، وكنت الشجاع الذي يشار إليه بالبنان، ولذاع صيتي كما ذاع صيت آل المهلب وبني يزيد.

(٤) وإن خشية الإله الجبار تملأ صدري، فتجعلني وقّافاً عند حدود الله تعالى، ولولا ذلك، لكنت نظرت إلى الخلائق كلهم، وكأنهم عبيد مسخّرون.

(٥) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٨٩، ومفتاح السعادة ١/ ٣٧.

(٦) مَن كدّ وأجهد نفسه في طلب العلم، وهدفه معرفة الخالق سبحانه، ليفوز في الآخرة بالرضوان والإكرام، إن من فعل هذا فاز، وأفلح وسلك سبيل الرشاد.

(٧) وهو في الوقت نفسه، ينال الحسن والثناء ممن يطلبون العلم، وينال فضل =

الحُسَّاد[1]

إنِّـي نَشـأتُ وحُسَّـادِي ذَوُو عَـدَدٍ رَبَّ المعَارجِ لا تُفْني لَهُمْ عَدَدا[2]

إنْ يَحسدُوني عَلى ما بِي لِما بِهِمُ فَمِثْلُ مَا بِي مِمَّا يَجلِبُ الحسَدَا[3]

في كل شيء له آية[4]

فَيـا عَجَبـي كَيـفَ يُعصـى الإلَـهُ أَم كَيـفَ يَجحَـدُهُ الجـاحِـدُ[5]

وَلِلَّـهِ فـي كُـلِّ تَحـريكَـةٍ وَتَسكينَـةٍ أَبَـداً شـاهِـدُ[6]

وَفـي كُـلِّ شَـيءٍ لَـهُ آيَـةٌ تَـدُلُّ عَلـى أَنَّـهُ واحِـدُ[7]

= ذلك العلم الذي ينشره بين عباد الله الصالحين.

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٧٤، والمستطرف ١/ ٢١٥، وقد نسبهما لنصر بن سيار.

(٢) لقد حباني الله تعالى بالعلم والمعرفة، لذلك فقد كثر حسادي، وازدادوا يوماً بعد يوم، أسألك ربي ألا تفنيهم، بل أن تمد في أعمارهم.

(٣) إنهم عندما يحسدونني لما وهبتني من العلم والفضل؛ فإن ذلك ليس بمستغرب لأن هذه الصفات والمزايا تجلب الحسد من بعض الخلائق.

(٤) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ١٠٩، ونسبت الأبيات لأبي العتاهية كما في الأغاني ٤/ ٣٥ط دار الكتب، وانظر ديوان أبي العتاهية ١٠٤ تحقيق المرحوم د. شكري فيصل.

(٥) كل ما في الكون يدل على عظمة الخالق وجلاله ووحدانيته، فيا عجبي كيف يعصي إنسان خالقه المتصف بهذه الصفات أم كيف يجحده؟!

(٦) إن في كل حركة أو اختلاج عرقٍ في هذا الوجود، شاهداً من أبرز الشواهد على عظمته ووجوده وتدبيره للكائنات.

(٧) وإذا قلبت الطرف في كل ما ترى حولك من موجودات، صغيرة كانت أم كبيرة، فإنها جميعاً تنطق بلسان واحد: إنه الإله الواحد القهار القادر على كل شيء، فتبارك الله العظيم.

الجود يعدي[1]

لَمَستُ بِكَفّي كَفَّهُ أَبتَغي الغِنى ... وَلَم أَدرِ أَنَّ الجودَ مِن كَفِّهِ يُعدي[2]

فَلا أَنا مما قَدْ أَفادَ ذَوُو الغِنى ... أَفَدتُ وَأَعداني فَأَتلَفتُ ما عِندي[3]

راحة الحقِّ[4]

أَرى راحَةً لِلحَقِّ عِندَ قَضائِهِ ... وَيَثقُلُ يَوماً إِن تَرَكتُ عَلى عَمدِ[5]

وَحَسبُكَ حَظّاً أَن تُرى غَيرَ كاذِبٍ ... وَقَولُكَ لَم أَعلَم وَذاكَ مِنَ الجُهدِ[6]

وَمَن يَقضِ حَقَّ الجارِ بَعدَ ابنِ عَمِّهِ ... وَصاحِبِهِ الأَدنى عَلى القُربِ وَالبُعدِ[7]

---

(١) حلية الأولياء ٩/١٤٩، وآداب الشافعي ومناقبه للرازي ١٤٠، ومناقب الشافعي للبيهقي ١/ ٢٨٧، وقد نسب الزبير بن بكار البيتين لابن الخياط.

(٢) الإنسان يتأثر بمن حوله، فإن كانوا أجواداً اقتدى بهم، وإن كانوا غير ذلك اقتفى أثرهم، إلا من عصم ربي، وقد لمست كف أحد الأغنياء الأجواد أطلب ما أغتني به، وكنت لا أدري أن الجود يعدي الناس بعضهم من بعض.

(٣) أتلفت: أنفقت حتى لم يبق عندي شيء. ولكن نصيبي كان مختلفاً إذ أنني لم أفد من صاحبي ما كنت أُؤَمِّلهُ من الغنى ولكن جوده عداني، فأخذت أنفق حتى لم أُبقِ مما عندي شيئاً.

(٤) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ١٠٣، ومعجم الأدباء ١٧/ ٣١٨. مقالة الحق والإذعان له، يورث طمأنينة وبرداً لا يعدلهما شيء.

(٥) الإنسان السوي ذو الفطرة السليمة يشعر براحة لا توصف، عندما يرى الحق سائداً بين الناس وفي المجتمع، في أقوالهم وأفعالهم. أما تجنّب سبيل الحق فيورث الضيق والكآبة، وعدم الشعور بالرضى، وخاصة عند تركه عمداً.

(٦) يكفيك عزاً وفخراً، أن تُشتهر بين الناس بالصدق، وأنك تعاف الكذب وتمقته، إن المولى تعالى سيعلي قدرك بين خلقه، ولا يضرك قول (لا أعلم)، وأنت صادق قد بذلت الجهد فيما يُعرض لك.

(٧) أما حق الجار فأداؤه من علامات الإيمان الكامل، لأن من لا يأمن جاره أذاه=

يَعِشْ سَيِّداً يَستَعذِبُ النَّاسُ ذِكرَهُ   وَإِن نابَهُ حَقٌّ أَتَوهُ عَلى قَصدِ[1]

حبُّ الوليِّ[2]

قَالُوا تَرَفَّضتَ قُلتُ كَلاّ   ما الرَّفْضُ دِيني وَلا اعتِقادِي[3]

لَكِن تَوَلَّيْتُ غَيرَ شَكٍّ   خَيرَ إِمامٍ وَخَيرَ هادِي[4]

إِنْ كانَ حُبُّ الوَلِيِّ رَفضاً   فَإِنَّ رَفْضي إِلى العِبادِ[5]

عفو الله تعالى[6]

إِنْ كُنتَ تَغدُو في الذُّنوبِ جَليدا   وَتَخافُ في يَومِ المَعادِ وَعيدا[7]

= فليس من الإيمان في شيء، وكذلك عصبتك فإن لهم حقاً عليك، وأداؤه من المروءة والواجبات، وبعد هذا أصدقاؤك وأصحابك، عليك أن ترعى حقوقهم وأن تكون وفيّاً معهم، سواء كانوا قريبين منك، أولم يكونوا كذلك.

(١) إن من يتخلق بهذه الأخلاق، ويتحلى بهذه الصفات يعش مكرّماً بين الناس، تلهج الألسن بذكره ويستعذبُ الناس سيرته، وهم عون له أبداً، فما بالك إن وقع في ضيق، أو أضحى في عسر؟.

(٢) نور الأبصار: ١٣٧.

(٣) رآني بعضهم أميل لإمام من أهل البيت فقال لي: أترفّضت؟ أجبته: لا، إن الرفض ليس من ديني الذي أعتنقه، ولا من معتقداتي التي أومن بها.

(٤) لكني أحببت وتوليت إماماً فاضلاً هادياً كريماً، فمحّضته الحب والوداد.

(٥) فإذا كان حب الأئمة المخلصين والولاة الصالحين رفضاً، فإني لا أرفض ذلك، إنما أرفض حب العباد الذين ليسوا من عباد الله المخلصين.

(٦) نور الأبصار ٢٣٨، وأحسن القصص ٤/ ١٠٣.

(٧) أيها الإنسان إن كنت صابراً على المعاصي، وتخاف من الوعيد الذي توعّد به الله سبحانه العصاة من المذنبين.

فَلَقَـد أَتـاكَ مِـنَ المُهَيمِـنِ عَفْـوُهُ وَأَفاضَ مِنِ نِعَمٍ عَلَيكَ مَزيدا[١]
لا تَيأَسَنْ مِن لُطفِ رَبِّكَ في الحَشا فـي بَطـنِ أُمِّـكَ مُضغَـةً وَوَليـدَا[٢]
لَـو شـاءَ أَن تَصلـى جَهَنَّـمَ خـالِـداً ما كانَ أَلهَمَ قَلبَكَ التَّوحِيدا[٣]

غدر الأخلاء[٤]

إِنّي صَحِبتُ أُنَاساً ما لَهُم عَدَدُ وكُنتُ أَحسِبُ أَنّي قَد مَلأَتُ يَدي[٥]
لَمّـا بَلَـوتُ أَخِـلاَّئـي وَجَـدتُهُـمُ كَالدَّهرِ في الغَدرِ لَم يُبقوا عَلى أَحَدِ[٦]
إن غِبتُ عَنهُم فَشَرُّ النَّاسِ يَشتُمُني وَإِن مَرِضتُ فَخَيرُ النَّاسِ لَم يَعُدِ[٧]

---

(١) أبشر فلقد أتاك من مدبر السموات والأرضين عفو يغمرك، وأفاض عليك من نعمه التي لا تحصى.

(٢) إياك واليأس من رحمة الله تعالى، فهو الذي رعاك بعنايته مذ كنت مضغة في بطن أمك وبعد أن ظهرت إلى الدنيا لا تملك من أسباب القوة والحياة شيئاً.

(٣) إن الله تعالى رحيم بعباده، وإن رحمته فوق التصور ولو أنه أراد أن يعذب عباده ما كان ألهمهم أن يوحدوه، وأن يستغفروا لذنوبهم.

(٤) الأخلاَّء: مفردها خل وهو الصاحب. سأل أحدهم الناس عن خلٍّ وفيّ فقالوا ما إلى هذا سبيل...

(٥) وهكذا يبدو الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه، في هذه الأبيات يعرض تجربته في حياته التي كثر فيها الأصحاب والخلطاء، كانوا كثراً وكان يظن أنهم قد ملؤوا عليه حياته..

(٦) ولكن الاختبار قد فرزهم، وأظهر له حقيقة مرة كادت أن تصدمه وتفقده توازنه، وهي أن هذه الكثرة من الأخلاء هم غثاء كغثاء السيل لا يغني ولا يفيد، فهم يشبهون الأيام التي تمر بنا، فهي تبطش غير عابئة بشيء، وتمضي فلا تُبقي على أحد.

(٧) آية ذلك أنك إن غبت عنهم، فشرارهم يأكلون لحمك، ويشتمونك بأقذع الشتائم، أما إذا أصبت بمرض، فإن أفضلهم لا يُجَشِّمُ نفسه عناء زيارتك، فما بالك بمن دون ذلك.

وَإِن رَأَوني بِخَيرٍ ساءَهُم فَرَحي ... وَإِن رَأَوني بِشَرٍّ سَرَّهُم نَكَدي[1]

يوم دعاء[2]

قرأت في أمال أملاها أبو سليمان الخطابي على بعض تلامذته، قال الشيخ: كان الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ يوماً من أيام الحج جالساً للنظر، فجاءت امرأة فألقت إليه رقعة فيها:

عفـا اللهُ عـنْ عبـدٍ أعـانَ بِـدَعـوةٍ ... خَليلَيْـنِ كـانَـا دائِمَيـنِ علـى الـودِّ

إِلى أنْ مشَى واشِي الهوى بِنميمَةٍ ... إلى ذاكَ مِنْ هذا فزالا عنِ العهدِ

قال: فبكى الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ وقال: ليس هذا يوم نظر؛ هذا يوم دعاء، ولم يزل يقول: اللَّهمَّ اللَّهمَّ، حتى تفرق أصحابه.

قال ابن قضيب البان في كتابه حل العقال: قال الشافعي رضي الله عنه: ثم ذكر أن هذه الأبيات مجربة في صرف الآفات:

يـا مَـنْ تُحَـلُّ بِـذِكْـرِهِ ... عُقَـدُ النَّـوائـبِ والشَّـدائـدْ[3]

يـا مَـنْ إليـهِ المُشْتكـى ... وإليـهِ أَمـرُ الخلـقِ عـائـدْ[4]

يـا حـيُّ يـا قيُّـومُ يـا ... صَمَـدٌ تَنـزَّهَ عَـنْ مُضـادِدْ[5]

---

(١) فإن أتتني حسنة تسؤهم، وإن أصابتني مصيبة طاروا بها فرحاً وسرَّهم ما حلَّ بي.

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٩٩ ومعجم الأدباء لياقوت ١٧/ ٣٠٦.

(٣) أمَّنْ يجيب المضطرَّ إذا دعاه؟! إلهي! يا مَنْ إذا ذكرته سَهُلت الأمور مهما عظمت وادلهمَّتْ، ولا يبقى للمصائب والشدائد أثر ولو كانت مثل راسيات الجبال.

(٤) إليك أشكو ما يؤرقني، ويُنغِّص عيشي، إذ إنني أعلم تمام العلم، أن أمر الخلق جميعهم عائد إليك، وليس لهم من الأمر شيء.

(٥) أنت الحيّ الباقي الذي لا يزول، وأنت الذي تقيم أمر السموات والأرض، =

أنـــتَ الـــرَّقيـــبُ علـــى العبـــا دِ وأنـتَ في الملكـوتِ واحـدْ[1]
أنـــتَ العليـــمُ بِمـــا بُليـــ ـــتُ بهِ وأنـتَ عليـهِ شَاهِدْ[2]
أنـــتَ المنـــزَّهُ يـــا بَـــديـــ ـــعَ الخلْقِ عَنْ وَلَدٍ وَوَالِدْ[3]
أنـــتَ المُعِـــزُّ لِمـــنْ أطـــا عـكَ والمُـذِلُّ لكـلِّ جَـاحِـدْ[4]
إنِّـــي دَعَـــوتُـــكَ والهمـــو مُ جُيـوشُهـا قَلبِـي تُطـارِدْ[5]
فـــرّجْ بحـــولِـــكَ كُـــربَتِـــي يـا مَـنْ لَـهُ حُسـنُ العَـوائِـدْ[6]
فَخَفـــيُّ لُطفـــكَ يُستعـــا نُ بـهِ علـى الـزَّمـنِ المُعـانِـدْ[7]

= فلا يظهر فيها خلل أو اضطراب، أنت المقصود من الخلائق جميعاً، لا مدبر سواك، ليس كمثلك شيء، وأنت المنزه عن الشبيه والنظير.

(١) أنت الذي ترقب عبادك جميعاً، فلا يغيب عنك شيء من أمرهم، عظم ذلك أو صغر، أنت واحد في ملكك لا ينازعك فيه أحد.

(٢) أيها العليم بحال عبادك أجمعين، أنت الذي تخلق كل شيء يتعرض له العباد من خير أو شر، ولا يغيب عنك شيء مما يحدث في هذا الوجود.

(٣) إنك المنزَّه عن كل نقص، والكمال كله لك، يا من خلقت السموات والأرض وما بينهما على غير مثال سابق، فأنت الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

(٤) وإن معاقد العزّ بيديك، تسبغها على من أطاعك من عبادك المخلصين، كما أنّ أسباب الذل أعددتها لكل جاحد كفور بنعمك وآلائك.

(٥) فأنا أدعوك بكل ذل وتضرع، والهموم قد غشيتني، وغزت جيوشها قلبي وكياني، وصارت تطاردني أينما توجّهت.

(٦) إلهي أدعوك مسترحماً أن تذهب عني هذه الهموم، فإنك القادر وحدك على تفريج كربتي، وأنت أهل المنّ والعوائد الحسنى، وإليك الفضل كله.

(٧) إن مصائب الدنيا، وكرب الزمان الممعنة في العناد، لا يُستعان عليها إلا بنفحةٍ من ألطافك التي وسعت كل شيء.

أنـــتَ الميسِّـــرُ والمُسبِـــبُ	والمُسَهِّـــلُ والمُسَـــاعِـــدْ[1]
يسِّـــرْ لَنَـــا فَـــرجَـــاً قَـــريـــ	ـــبـاً يَـا إلهـي لا تُبـاعِـدْ[2]
كُـــنْ راحِمِـــي فلَقَـــدْ أَيِســـ	ـــتُ مِنَ الأقاربِ والأَباعِدْ[3]
ثُـــمَّ الصَّـــلاةُ علـــى النَّبـــيّ	وآلـــهِ مـــا خَـــرَّ سَـــاجِـــدْ[4]

* * *

(١) فأنت الذي بيدك مقاليد اليسر، وأنت الذي تخلق الأسباب وتهيئها، وتسهل كل عسير فيغدو ميسّراً ممكناً بعد أن كان عسيراً.

(٢) إلهي! نتضرع إليك بضعفنا وذلنا، أن تيسر لنا مما نحن فيه فرجاً قريباً لا بعيداً، فالإنسان جزوع، وعلى الشدائد غير صبور.

(٣) ارحمني يا أرحم الراحمين، فلقد قطعت الأمل من كل مخلوق، القريب والبعيد، القوي والضعيف، ولا أمل لي إلا بفرج قريب من جنابك.

(٤) وأختم تضرّعي ودعائي إليك، يا إلهي الرحيم، سائلاً أن تصلي على نبيك الذي بعثته رحمة للعالمين، ما بقي فردٌ من المؤمنين ساجد لعظمتك.

قافية الراء

ابتلاء[1]

إنِّــي بُلِيــتُ بــأربَــعٍ يَــرمِينَنِــي ... بِالنَّبل عَنْ قَوسٍ لهُنَّ صَريرُ[2]

إبليـسُ والـدُّنيـا ونَفْسِـي والهَـوَى ... أنَّـى يَفِـرُّ مِـنَ الهـوى نِحـريـرُ[3]

جنان الخلد[4]

يـا مَـن يُعـانِـقُ دُنيـا لا بَقـاءَ لَهـا ... يُمسي وَيُصبِحُ في دُنياهُ سَفّارا[5]

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٨٩.

(٢) صرير: صوت. الدنيا دار ابتلاء وكل امرئ يمتحن، وفي الدنيا أربعة أشياء تقف للعبد بالمرصاد، وكلما رأت منه غفلة رمته بواحدة من هذه الأشياء، وهي ترمي بها عن قوس له صوت صارخ.

(٣) نحرير: العالم المتقن. و هذه الأشياء: إبليس الذي يزين كل معصية، والدنيا التي تغر وتضر وتمر، والنفس الأمارة بالسوء، والهوى الذي يُلقي بصاحبه في أودية الضياع والحرمان، فكيف للعالم التقي أن ينجو من هؤلاء الأربع؟!

(٤) نور الأبصار ٢٣٦، وتنسب الأبيات إلى عبد الله بن المبارك، انظر سمير المؤمنين ٢٧.

(٥) أيها الإنسان الذي تعانق الدنيا، وأنت تعلم أن لا بقاء لها، تمسي وتصبح على سفر من مكان إلى آخر طلباً لعرض من عروضها الفانية.

هَلاَّ تَرَكتَ لِذي الدُّنيا مُعانَقَةً حَتّى تُعانِقَ في الفِردَوسِ أَبكارا[1]

إِنْ كُنتَ تَبغِي جِنانَ الخُلدِ تَسكُنُها فينبَغِـي لَـكَ أَنْ لا تَـأمَـنِ النَّـارَا[2]

أمطري لؤلؤاً[3]

أمطِـري لُـؤلُـؤاً جِبـالَ سَـرَنْـديـــــبَ وَفيضي آبارَ تَكرُورَ تِبرا[4]

أَنـا إِنْ عِشـتُ لَسـتُ أَعـدِمُ قـوتـاً وَإِذا مِـتُّ لَسـتُ أَعـدِمُ قَبـرا[5]

هِمَّتــي هِمَّـــةُ المُلــوكِ وَنَفْسِــي نَفْـسُ حُـرٍّ تَـرى المَـذَلَّـةَ كُفْـرا[6]

وَإِذا مـا قَنِعْـتُ بِـالقـوتِ عُمـرِي فَلِمـــاذا أَزورُ زَيْـــداً وَعَمْـــرا[7]

---

(١) أفلا تحررت قليلاً من هذا التشبث بهذه الدنيا الفانية، لتحظى غداً بالفوز بجنان الخلد، وهناك تعانق حوراً عيناً أبكاراً.

(٢) إن كنت تطمع أن تدخل جنة عرضها السموات والأرض، فواجب عليك أن تتقي النار بالتزام أوامر الله تعالى ونواهيه، وعندها تكون أهلاً لهذا الإكرام.

(٣) مقدمة كتاب الأم للشافعي ١٤.

(٤) سرنديب: جزيرة تسمى اليوم سيرلانكا. أيتها الجبال المطلة على سرنديب، أمطري ما شئت من اللؤلؤ، وأنت يا آبار تكرور فيضي واملئي ما حولك ذهباً يستهوي القلوب.

(٥) إن ذلك لن يغريني، فأنا ألتزم بالقناعة، وأومن بأني لن أعدم قوتاً ما دمت حياً؛ لأن المولى تعالى قد تكفل بذلك، كما أنني لن أعدم قبراً يضم رفاتي بعد الممات.

(٦) إنني ـ و الحمد لِلَّه ـ أمتلك همة لا تقل عن همة الملوك، كما أن لي نفساً أبية تعشق الحرية، وترى في الذل كفراً وخروجاً عن النهج القويم.

(٧) إنني إذا قنعت بما قسمه الله تعالى لي ما بقيت، فلماذا أتزلف لزيد وعمرو من الناس، أخطب وده، وأطمع في القرب منه.

المشكلات[1]

إذا المُشكِلاتُ تَصَدَّينَ لي كَشَفْتُ حَقائِقَها بالنَّظرْ[2]

وَإن بَرَقَتْ في مَخيلِ السَّحا بِ عَمياءَ لا يَجتَليها الفِكرْ[3]

مُقَنَّعَةٌ بِغُيوبِ الغيُومِ وَضَعتُ عَلَيها حُسامَ البَصَرْ[4]

لِساني كَشِقشِقَةِ الأرْحَبِيِّ أَو كَالحُسامِ اليَماني الذَّكَرْ[5]

وَلَستُ بِإِمَّعَةٍ في الرِّجالِ أُسائِلُ هَذا وَذا ما الخَبَر؟[6]

وَلكِنَّني مُدرَهُ الأَصغَرَينِ أَقضي بما قَدْ مَضى ما غَبَرْ[7]

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٦١، ومعجم الأدباء لياقوت ١٧/ ٣٠٩، وطبقات الشافعية للسبكي ١/ ١٥٩، وتوالي التأسيس ٧٤، وتاريخ دمشق ١٠/ ٢٠٠، ونسبت الأبيات إلى الإمام علي بن أبي طالب انظر الديوان المنسوب إليه ٥٦. الحياة وعاء فيه الحلو والمرّ، والمشكلات جزء منها.

(٢) تصدين: تعرضن. إن مشكلات الحياة حينما تعترض سيري، فإنني أستعين على كشف ظلماتها وبيان حقائقها بنظر ثاقب، وعقل مفكّر بعواقب الأمور.

(٣) ومهما عظمت المشكلة واستعصت، حتى لا تكاد تبين لمعرفتها وحلها، غير بروق خاطفة ويحار كثير من الناس في إدراك كنهها.

(٤) وقد تكون غارقة في بحار من الظلمات، فيسلط عليها أضواء من فكره، ومصابيح من تجاربه، فيتبدد ركامها وينقشع ظلامها.

(٥) الشقشقة: الزبد الذي يخرجه البعير إذا هاج. وإن بياني كرأيي ناصع قوي، فإني إذا تكلمت كنت كالجمل القوي الهادر، ولساني كالسيف اليماني، ينطق بالحق وفصل الخطاب.

(٦) الإمعة: الرجل الذي يتابع كل واحد على رأيه ولا يثبت على شيء. وإني لا أنكر فائدة الشورى ولكني لست إمعة لا رأي لي، أسير إذا سار الناس، وأقف إذا وقفوا، ولا أقف أسائل الناس حائراً متردداً ما الخبر؟

(٧) مدره: المقدم في اليد واللسان عند القتال. الأصغرين: القلب واللسان. إنني مقدام في القلب واللسان، أعين على حل المشكلات المستعصية، =

وسبَّـاقُ قـومـي إلـى المكـرُمـاتِ وجَــلاَّبُ خَيــرٍ ودفّــاعُ شَــرّ[1]

شوق إلى مصر[2]

لقَد أَصبَحَت نَفسي تَتوقُ إلى مِصرَ وَمِن دونِها أَرضُ المَهامِهِ وَالقَفرِ[3]

فَــوَ اللهِ لا أَدري أَلِلفَــوزِ وَالغِنَــى أُساقُ إِلَيها أَم أُساقُ إِلى القَبرِ[4]

فخرج الشافعي رضي الله عنه يريد مصر، فقُطِع عليه الطريق، فدخل بعض المساجد وليس عليه إلا حزمة، فدخل الناس وخرجوا ولم يلتفت إليه أحد فقال:

عَلَـيَّ ثِيـابٌ لَـو تُبـاعُ جَميعُهـا بِفَلسٍ لَكانَ الفَلسُ مِنهُنَّ أَكثَرا[5]

= وأستشرف الماضي والمستقبل من الأيام.

(١) وقبل هذا كله فإن أفعالي تسبق أقوالي في المكرمات، وأجلب الخير ما استطعت، وأدفع الشرّ عن الناس قاطبة.

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ١٠٨، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ١١٨ - ١١٩، ومعجم الأدباء لياقوت ١٧/ ٣٢٠، وطبقات الشافعية للسبكي ١/ ١٦٠، والمحمدون من الشعراء ١٣٩، وحلية الأولياء ٩/ ٨٢.

(٣) تتوق: تشتاق. المهامه: ج مهمه وهي المفازة البعيدة والصحراء. القفر: الصحراء التي لا نبات فيها ولا ماء. أنا في شوق كبير إلى مصر، وأصبحت نفسي تحدثني حديثاً لا ينقطع لزيارة مصر، وهي لا تدري، أم أنها تدري أن ما بيني وبينها صحارى ومفازات موحشة لا نبات فيها ولا ماء.

(٤) وإني أقسم أنني لا أدري الغاية من هذا، أهي الفوز والنجاح وإدراك الغنى، أم أن هذا الشوق وهذه الرغبة هما اللذان يسوقاني إلى أجلي المحتوم.

(٥) فأصبحت لا يُرى عليّ من الثياب سوى عدد إذا ضُمّ بعضه لبعض، لكانت قيمته فلساً، بل ربما كان الفلس أكثر قيمة منها.

وفيهِـنَّ نَفْـسٌ لَـو تُقـاسُ بِمِثلِهـا نُفوسُ الوَرى كانَت أَجَلَّ وَأَكبَرا[1]

وما ضَرَّ نَصلَ السَّيفِ إِخلاقُ غِمدِهِ إذا كانَ عَضباً حَيثُ وَجَّهتَهُ فَرى[2]

فـإِنْ تَكُـنِ الأَيَّـامُ أزرتْ بِبِـزَّتـي فَكمْ مِنْ حُسامٍ في غِلافٍ مُكَسَّرا[3]

أكثر من الإخوان[4]

وَأَكثِرْ مِنَ الإِخوانِ ما استَطَعْتَ إِنَّهمْ بُطونٌ إذا استَنجَدتَهُم وَظُهورُ[5]

وَلَيسَ كَثيراً أَلفُ خِلٍّ لِعاقِلٍ وَإِنَّ عَدوّاً واحِداً لَكَثيرُ[6]

---

(١) غير أن المولى تعالى تدارك هذه النفس التي تضمّها هذه الثياب، فهي نفس عزيزة أبيّة، حتى إن نفوس الخلائق مجتمعة لو قيست بها لرجحت عليها.

(٢) إخلاق: البالي. عضباً: قاطعاً حاداً. فرى: قطع. إنها كنصل السيف الماضي، لا يضره ولا ينقص من قيمته أن كان غمده بالياً لا يملأ العين، إن قيمة هذا السيف بقوته وقدرته، إذ إنه حيثما وجهته للطعان كان قاطعاً مهلكاً للأعداء.

(٣) فإن كانت تقلبات الأيام جعلت ثيابي بالية، يحتقرها من ينظر إليها، فإن ذلك لن يُنقص من قيمة نفسي، وستبقى عزيزة ذات مكانة عالية، كالسيف البتار الذي لم يُنقص من قيمته وقدرته على القطع اهتراء غمده.

(٤) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٨٣، وتوالي التأسيس ١٤٢، ومناقب الشافعي للرازي ١١٤، ونسبت الأبيات للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه انظر الديوان ٦٣.

(٥) المرء كثير بإخوانه، فعليك أيها العاقل أن تكثر منهم ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، فإنك إن استنجدت بهم أحاطوك برعايتهم ونجدتهم، ونصروك على عدوك.

(٦) والعاقل لا يجد أن ألفاً من الإخوان هم عدد كثير ولكنه بالمقابل لو رأى عدواً واحداً يناصبه العداء يرى أن هذا عدد كبير.

القناعة[1]

تــدرَّعْــتُ ثــوبــاً للقُنــوعِ حَصينــةً … أصونُ بها عِرضِي وأَجعلُها ذُخْرا[2]

ولم أحْذَرِ الدَّهرَ الخؤونَ فَإنَّما … قُصَارَاهُ يَرمِي بيَ الموتَ والفَقْرا[3]

فـأعـدَدْتُ للمَـوْتِ الإلـهَ وعَفْـوَهُ … وأَعْدَدْتُ للفَقْرِ التَّجَلُّدَ والصَّبْرا[4]

اسأل من يدري[5]

إذا كُنتَ لا تَدري وَلاَ أنتَ بالَّذي … تُسائلُ مَنْ يَدري فكيفَ إذاً تَدرِي[6]

ولو كنتَ تدري أو تدرَّيتَ لم تَكُنْ … تخالِفُ مَنْ يَدرِي على عِلمِ مَا يدْرِي[7]

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٦٥، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ١١٢.

(٢) اتخذت من القناعة درعاً واقياً يصون عرضي، ويحفظ ماء وجهي وكرامتي، وجعلت منها ذخراً حميداً لا أفرط فيه.

(٣) وإنني لم أحاول تفادي حوادث الأيام ومصائبها، لأن أعظم المصائب التي يمكن أن تحلّ بي هي الموت أو الفقر.

(٤) التجلد: التصبر واحتمال المكاره. وقد أعددت للموت حصناً لا يخيب من يأوي إليه، ألا وهو اللجوء إلى باب الإله العظيم وعفوه الذي وسع كل شيء، أما الفقر فقد هيأت له نفساً لا ينقصها التجلد، ولا يعوزها الصبر.

(٥) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ١٠٠، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ١١١، ونسب البيتان للإمام علي بن أبي طاب كرم الله وجهه انظر الديوان المنسوب إليه ٦٣.

(٦) العاقل يفتش عن الحكمة والمعرفة، فإن كنت أيها الفتى لا تدري حلّ عقدة، ولا تسأل من هو عالم بها، فكيف تحصل لك المعرفة والدراية.

(٧) أما إذا كنت عارفاً بأمر، أو اكتسبت دراية عنه، فإن ذلك لا يورث خلافاً بينك وبين من يعلمها ويتقنها.

عواقب الأمور[1]

عـواقـبُ مكـروهِ الأمـورِ جبـارُ   وأيـامُ شَـرٍّ لا تَـدومُ قِصـارُ[2]
وليـس ببـاقٍ بُـؤسُهـا و نعيمُهـا   إذا كَـرَّ ليـلٌ ثُـمَّ كَـرَّ نهـارُ[3]

كل ذي عينين ناظر[4]

يَقُـولُـونَ لا تَنظُـر وَتِلـكَ بَلِيَّـةٌ   أَلاَ كُلُّ ذِي عَينَينِ لا بُدَّ ناظِرُ[5]
وَلَيسَ اكتِحَالُ العَين بِالعَينِ رِيبَةً   إِذا عَفَّ فِيما بينَ ذاكَ الضَّمائِرُ[6]

لا تخضع إلا لله[7]

كُلْ بملح الجَريشِ خُبزَ الشَّعيرِ   واعتَقِـبْ للنَّجـاةِ ظَهْـرَ البَعِيـرِ[8]

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٨٣، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ١٩٩ .

(٢) إن كثيراً من الحوادث والأمور لها عواقب، وقد تكون هذه العواقب لا فائدة فيها، كما أن أيام الشر والكمد التي لا تدوم هي أيام قصار .

(٣) وفي كل الحالات فإن الأيام التي تحمل في طياتها بؤساً، أو تحمل نعيماً محبباً، إن هذه الأيام بنوعيها ليست باقية دائمة، طالما أن هناك ليلاً يُقبل و نهاراً يزول .

(٤) روضة المحبين ١١٢، نقلهما ابن القيم عن الحاكم في مناقب الشافعي أنهما من شعر الشافعي، ومناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٩٣، ونسبا لجميل بن معمر (جميل بثينة) انظر الديوان ٨٢ .

(٥) النظرات البريئة عن الغش، لا تقدح من عفة الإنسان، والذين يمنعونني من النظر فهؤلاء يجلبون لي البلية، إذ إن كل ذي عينين لا بد ناظر إلى المحاسن والمبهجات .

(٦) وإنني على يقين بأن وقع النظر على النظر دون أن يصحبها شهوة محرمة، فإن ذلك لا يجرح ضمير الناظر طالما أن قلبه سليم، ونظره عفيف .

(٧) مناقب الشافعي للبيهقي ٦٧/٢ .

(٨) الجريش: الملح الذي لم يطيب . كرامة المرء فوق كل اعتبار، إذا ضاق بك=

وَجُبِ المَهْمَهَ المَخُوْفَ إلى طَنْجَةٍ أو خَلْفَهـــا إلـــى الــدَّرْدُورِ[١]

وَصُنِ الوجهَ أنْ يَذِلَّ و أنْ يَخْضَعَ إلاَّ إلـــى اللَّطيـــفِ الخبيـــرِ[٢]

لا ملتقى حتى القيامة[٣]

سَأصبرُ فاصْبرْ واقْطَعِ الوَصْلَ بينَنَا ولا تَذْكُرْني واسلُ باللهِ عَنْ ذِكْري[٤]

فَقَدْ عِشْتَ دَهَراً لَسْتَ تَعرفُ مَنْ أنَا وعشتُ ولم أعِرفْكَ يوماً مِنَ الدَّهرِ[٥]

ســلامُ فــراقٍ لا مــودَّةَ بينَنَــا ولا مُلتقَى حتَّى القِيامةِ والحَشْرِ[٦]

= الزمان فاجعل نفسك ترضى بخبز الشعير الذي مُلِّح بملح لا طيب فيه، واسلك سبيل النجاة لنفسك ولو على ظهر بعير.

(١) الدردور: موضع في ساحل بحر عمان مضيق، انظر معجم البلدان لياقوت ٤/ ٥٢. واقطع الفيافي والقفار التي يحجم سلوكها الجبناء، إلى طنجة في المغرب، أو أبعد منها إذا اقتضى الأمر إلى ساحل عمان، غير هياب ولا وجل.

(٢) واحفظ ماء وجهك من أن يذل ويخضع لإنسان من بني جنسك، ولا تجعل ذلك الذل والخضوع إلا للذي خلقك، فهو اللطيف الخبير.

(٣) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٧٥، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ١١٥.

(٤) واسل: سلا يسلو تسلية تلهى عن الشيء لينساه. سأصبر صبراً جميلاً على فراقك، وعليك أن تصبر أيضاً، لأن الوصل بيننا قد انقطع ولا مجال لإعادته، واستعن بالله اللطيف عن تذكري.

(٥) لقد عشتَ زمناً طويلاً، وأنت لا تعرف من أنا وما هي طباعي، وكذلك الأمر بالنسبة إليّ، فكأني لم أعرفك في يوم من الأيام.

(٦) وإني إذ أفارقك، أسلم عليك سلام فراق، وكأنه لم يكن بيننا مودة في يوم ما، ولن نلتقي إلا يوم الدينونة، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

الرَّزية فقد حرّ[1]

لَعمـرُكَ مـا الـرَّزيَّـةُ هـدمُ دارٍ ... وَلا شـاةٌ تمـوتُ ولا بَعيـرُ[2]

ولكـنَّ الـرَّزيَّـةَ فَقـدُ حُـرٍّ ... يمـوتُ لِمـوتـهِ بَشـرٌ كَثيـرُ[3]

شرابهم الحديث

أَكْـرِمْ بِمَجلِـسِ فِتيَـةٍ ... رَيحـانُهُـم وَرَقُ السُّـدُورِ[4]

صَبُّـوا أَبـارِيـقَ الهَـوى ... بيـنَ القُلـوبِ علـى الصُّـدور

جَعلُـوا شـرابَهُـم الحَـدِ ... يـثَ وكـأسَهُـم أبـداً يَـدورُ

يا كاحل العين[5]

يا كاحلَ العَيْنِ بعدَ النَّوم بالسَّهَر ... ما كانَ كُحْلُكَ بالمنعوتِ للبصرِ[6]

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ١٠٥، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ١١٨، ووردا في أمالي القالي ١/ ٢٦٩ أنشدنا أحمد بن عبيد لامرأة من الأعراب.

(٢) الرزية: المصيبة. ما أكثر المصائب في هذه الحياة وليس أعظمها هدم دار عامرة، ولا شياهاً تموت، ولا جِمالاً تُفقد.

(٣) لكن البلية العظمى هي فقد إنسان كريم حر، كان ملء السمع والبصر، يفيض خيره على كثير من الناس، فبفقد هذا الإنسان موت لبشر كثير.

(٤) أكرم بمجلس فتية أطهار، يحملون ورق السدر بدلاً من الريحان. لقد صبوا محبتهم وإخلاصهم وهواهم في أباريق استقرت بين الصدور والقلوب. إن الشراب الذي يسكرون منه، هو طيب الحديث، وبث أشواق المحبة والعطف، وكأسهم هذه تدور وتدور، دليلاً على إخلاصهم ومحبتهم لبعضهم.

(٥) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٩٩، وطبقات الشافعية للسبكي ١/ ٣٠٥.

(٦) يا من له عينان مكحولتان خِلْقَةً، لقد أخذت تسهر بعد أن نمت قريراً، إن كحلك هذا ليس بوسع مَنْ يبصره أن يصف جماله.

لو أنَّ عيني إليكَ الدَّهرَ ناظرةٌ جاءتْ وفاتِي ولم أَشْبَعْ مِنَ النَّظَرِ[١]
سُقياً لِدَهْرٍ مضَى ما كانَ أطيَبَهُ لولا التَّفرُّقُ والتَّنغِيصُ بالسَّفرِ[٢]
إنَّ الرَّسولَ الَّذي يأتِي بلا عِدَةٍ مثلُ السَّحَابِ الَّذي يأتي بلا مَطَرِ[٣]
دَعْنِي أمتِّعُ طَرفي مِنْكَ بالنَّظَرِ فنوُرُ وَجهِكَ يَجلُو ظُلْمَةَ البَصَرِ[٤]

لا يسلم أحد من لسان النَّاس[٥]

وَما أَحَدٌ مِنْ أَلسُنِ النَّاسِ سالِماً وَلَو أَنَّهُ ذاكَ النَّبِيُّ المُطَهَّرُ[٦]
فإنْ كانَ سِكِّيتاً يَقولونَ أَبكَمُ وَإِنْ كانَ مِنطيقاً يَقولونَ أَهْذَرُ[٧]

---

(١) لو قدر لي أن تبقى عيناي تتملى من حسنك الدهر كله، لحضرتني الوفاة وأنا لم أشبع ناظري من حسن مرآك.

(٢) التنغيص: نغص الله عليه العيش أي كدَّره والتنغيص التكدير. سقى الله تعالى أياماً مضت ما كان أجملها وأطيبها، لولا أن التفرق لسفر حادث، جعلها مشوبة بالكدر والحزن.

(٣) وهكذا الأمور فإن الذي يحمل إليك رسالة من حيث ليس فيها موعد للقاء، هو كالسحاب الذي يجلل السماء، ولكن لا مطر فيه.

(٤) يجلو: يزيل. أريد اللقاء وأريد أن تسمح لي أن أمتع طرفي، وأتملى من حسنك ولطفك، فإن النور المنبعث من وجهك يزيل الظلام عن البصر.

(٥) نتيجة الأفكار / ٥/ ، وقد نسبت الأبيات إلى ابن دريد ، انظر هدية الأمم ص١٩٦ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٦) وهل يسلم أحد من ألسنة الخلائق، إن الأنبياء ودعاة الفضيلة على جلال قدرهم لم يسلموا من ذلك.

(٧) سكيتاً: كثير الصمت والسكون. أبكم: أخرس لا يحسن الكلام. أهذر: ساقط. فإذا كان المرء يؤثر الصمت و عدم الخوض فيما لا نفع فيه، اتهموه بالبكم، وإن كان منطلق اللسان، ذكي الجنان، له في كل مقام مقال، قيل: إنه ساقط القيمة.

وَإِن كانَ صَوّاماً وَبِاللَّيلِ قائِماً   يَقـولـونَ زَرّاقٌ يُـرائـي وَيَمكُـرُ[1]

استعلى به البطر[2]

تـاهَ الأُعَيـرِجُ وَاسْتَعلـى بِـهِ البَطَـرُ   فَقُل لَهُ: خَيرُ ما استَعمَلتَهُ الحَذَرُ[3]

أَحسَنتَ ظَنَّكَ بِالأَيّامِ إِذ حَسُنَتْ   وَلَم تَخَفْ سوءَ ما يَأتي بِهِ القَدَرُ[4]

وَسالَمَتكَ اللَّيالي فَاغتَرَرتَ بِها   وَعِندَ صَفوِ اللَّيالي يَحدُثُ الكَدَرُ[5]

اقبل اعتذار المعتذر[6]

اِقْبَلْ مَعاذِيرَ مَنْ يَأتِيكَ مُعْتَذِراً   إِنْ بَرَّ عِندَكَ فيما قالَ أَو فَجَرا[7]

---

(١) زراق: كذاب. حتى إذا انصرف إلى الزهد والعبادة، فصام نهاره، وقام ليله، يقول حساده ومن لا ضمير لهم، إنه كذاب يرائي بأفعاله، وهو في حقيقته ماكر.

(٢) تنسب الأبيات للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، انظر الديوان المنسوب إليه ص٥٩.

(٣) الأعيرج: حية صماء كالأفعى. أصابه خير من مولاه الكريم، فأصابه الكبر وأخذ يتيه على الناس، قل لهذا الإنسان لا تأمن الدهر، وكن على حذر، فالأيام لا تبقى على حالة واحدة.

(٤) أظهرت لك الأيام جانبها المضيء، فأحسنت الظن بها واستسلمت، لكنك نسيت أن تحسب حساباً لما ستأتي به الأقدار في قابل الأيام.

(٥) لقد سالمك الدهر حيناً، وأبدى لك البشاشة فاغتررت بذلك، وكان عليك أن تدرك أن الكدر يأتي في ساعة غير منتظرة وبعد صفاء دام زمناً.

(٦) روي هذان البيتان (لأبي عبد الله إبراهيم بن محمد بن نفطويه) نقلاً عن أبي إسحاق الرفاعي.

(٧) بر: صدق. فجر: كذب. إذا أتاك من أخطأ في حقك، وقدم اعتذاره طالباً منك الصفح، فاقبل عذره إن كان صادقاً في هذا الاعتذار أو لم يكن، لأن الصفح من شيم الكرام.

لَقَد أَطاعَكَ مَنْ يُرضيكَ ظاهِرُهُ وَقَدْ أَجَلَّكَ مَن يَعصيكَ مُستَتِرا[1]

فنُّ المناظرة[2]

إِذا مـــا كُنــتَ ذا فَضــلٍ وَعِلــمٍ بِما اختَلَفَ الأَوائِلُ وَالأَواخِرْ[3]
فَنــاظِـرْ مَــن تُنـاظِـرُ فـي سُكـونٍ حَليمـــاً لا تُلِــحُّ وَلا تُكــابِــرْ[4]
يُفيــدُكَ مــا استَفــادَ بِــلا امتِنــانٍ مِـنَ النُّكـتِ اللَّطيفَـةِ وَالنَّـوادِرْ[5]
وَإِيّــاكَ اللَّجــوجَ وَمَــن يُــرائـي بِـأَنّي قَـد غَلَبـتُ وَمَـن يُفـاخِـرْ[6]

---

(١) أجلك : عظمك . إن من يريك ظاهراً منه ترضى عنه ، فقد أطاعك فاقبل ذلك منه ، وإن من يخجل أن يعصي لك أمراً ، وإنما يفعل ذلك سراً ، فقد عظّمك واحترمك .

(٢) مناقب الشافعي للفخر الرازي ٢٢٧ . الخير كل الخير أن يتحاور الناس ويتبادلوا الأفكار وفي ذلك خير للجميع .

(٣) إن كنت ممن وهبك الله تعالى علماً وفضلاً ، فذلك كنز عظيم ، لأن العلم والفضل ميراث الأولين والآخرين ، وهذه سلسلة مباركة يجب المحافظة عليها .

(٤) تلح : التمادي في طلب الشيء . وعندما يتناظر العلماء وذوو الفضل ، فإن من الأجدر بهم أن يتحاوروا في سكون وهدوء ، وأن يكون الحلم سيداً ، لا يلحون في الكلام والإجابات ، ولا يكابرون في أمور تثير الخلافات فيما بينهم .

(٥) إنما رائدهم في ذلك كله ، الإفادة والاستفادة ، دون مَنٍّ أو تعال ، وينثرون في ثنايا حديثهم كثيراً من تفاصيل العلم الدقيقة التي لا يصل إليها العالم إلا بعد طول بحث وتفكر .

(٦) اللجوج : التمادي في الخصومة . وإياك أن تناظر من يتمادى في اللجاجة والخصومة والذي يكون همه من المناظرة الغلبة والانتصار ، ليتفاخر بهذا أمام الناس .

فَــإِنَّ الشَّــرَّ فــي جَنَبــاتِ هَــذا يُمَنِّــيَ بِــالتَّقــاطُــعِ وَالتَّــدابُــرْ[1]

الدَّهر يومان[2]

الـدَّهـرُ يَـومـانِ ذا أَمـنٌ وَذا خَطَـرٌ وَالعَيشُ عَيشانِ ذا صَفوٌ وذا كَدَرُ[3]

أَما تَرى البَحرَ تَعلو فَوقَهُ جِيَفٌ وَتَستَقِرُّ بِـأَقصـى قـاعِـهِ الـدُّرَرُ[4]

وَفي السَّماءِ نُجومٌ لا عِدادَ لَها وَلَيسَ يَكسِفُ إِلاّ الشَّمسُ وَالقَمَرُ[5]

السُّكوت

وَجَـدتُ سُكـوتـي مَتجَـراً فَلَـزِمتُـهُ إِذا لَم أَجِد رِبحاً فَلَستُ بِخاسِرِ[6]

وَما الصَّمتُ إِلاَّ في الرِّجالِ مَتَاجِرُ وَتاجِرُهُ يَعلو عَلى كُلِّ تاجِرِ[7]

---

(١) إن الاستهانة بهذه الآداب، يُعَرِّض المتناظرين للتنافر والمقاطعة، فلا يستفيد أحدهم من الآخر، وفي هذا خسارة للعلم والأدب، وتمهيد للجهل والخذلان.

(٢) أحسن القصص ٤/ ١٢٠، وهو ينقل عن الجوهر النفيس.

(٣) العمر الذي نعيشه، ما هو إلا يومان، فيوم تأمن فيه على نفسك ومالك وعرضك، ويوم تشعر فيه بالخطر ولا تنعم بالأمان، وكذلك العيش كله، إما أن يكون صافياً مبهجاً، وإما أن يكون منغّصاً مكدراً.

(٤) والحياة كالبحر، يحوي في باطنه ما لا يعلمه إلا الله تعالى، ولكنك ترى أن القبيح يطفو على أمواجه، أما الدرر والأشياء النفيسة فإنها تستقر في قاعه.

(٥) وأما السماء ففيها من النجوم والمجرات مالا يحصى، ولكن جرمين فقط يصابان بالكسوف؛ إنهما الشمس والقمر.

(٦) السكوت من ذهب كما وصفه الأقدمون، لقد تمثل لي سكوتي بمتجر يؤويني فلزمته ولم أفكر في مغادرته. وإني بهذا حفظت نفسي، إذا لم أجد ربحاً فإني لن أُحَصِّل خسارة.

(٧) وإني أُشَبِّهُ الصمت في الرجال كالمتاجر التي يرجى منها الخير والربح، والمقيم فيها هو إنسان رفيع القدر لا يدانيه تاجر آخر مهما برز واشتهر.

راض بما حكم الدَّهر

وَما كُنتُ أرضى مِن زَماني بِما تَرى ... وَلَكِنَّني راضٍ بِما حَكَمَ الدَّهرُ[1]

فَإِن كانَتِ الأَيّامُ خانَتْ عُهودَها ... فَإِنّي بِها راضٍ وَلَكِنَّها قَهرُ[2]

دية الذَّنب

قيلَ لي قَد آسى عَلَيكَ فُلانٌ ... وَمُقامُ الفَتى عَلى الذُّلِّ عارُ[3]

قُلتُ قَد جاءَني وَأَحدَثَ عُذراً ... دِيَةُ الذَّنْبِ عِندَنا الاعتِذارُ[4]

* * *

---

(١) لست من الرجال الذين يخضعون بسهولة، ولكنني رضيت بما قُدِّر لي من زماني، لأني علمت أن ذلك محكوم به سلفاً، ولا حيلة لي في ذلك.

(٢) فإن كانت الأيام عاندتني، ولم تعطني ما أؤمله منها، ونسيت عهودها معي، فإني راضٍ بما ستأتي به، ولكن ذلك عن قهر وليس عن رضى مني.

(٣) قال لي بعضهم إن فلاناً قسا عليك، وإن سكوتك عن ذلك، وإقامتك على مودته عار.

(٤) فأجبتهم، لقد جاءني واعتذر لي عما بدر منه، وإن دية الذنب من أصحابي هي الاعتذار وقد حصل.

قافية السِّين

صديقك من كان معك في الشَّدائد[1]

صَـديـقٌ لَيـسَ يَنفَـعُ يَـومَ بَـأسٍ ... قَـريـبٌ مِـن عَـدوٍّ فـي القِيـاسِ[2]

وَمـا يَبقـى الصَّـديـقُ بِكُـلِّ عَصـرٍ ... وَلا الإِخـوانُ إِلاّ لِلتَّـآسـي[3]

عَبَـرتُ الـدَّهـرَ مُلتَمِسـاً بِجُهـدي ... أَخـا ثِقَـةٍ فَـأَلهـانـي التِمـاسِـي[4]

تَنكَّـرَتِ البِـلادُ وَمَـن عَلَيهـا ... كَـأَنَّ أُنـاسَهـا لَيسُـوا بِنـاسِ[5]

رحمتك اللَّهمّ

قَلبـي بِـرَحمَتِـكَ اللَّهُـمَّ ذو أُنُـسٍ ... في السِّرِّ وَالجَهرِ وَالإِصباحِ وَالغَلَسِ[6]

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ١/ ٣٠١.

(٢) بأس: شدة. إن الصديق الذي يتخلى عنك عندما تصاب بمصيبة وشدة، إن مثل هذا الصديق هو أشبه بالعدوّ، إذا أخذنا ذلك بالقياس.

(٣) والأصدقاء والأحباء ندّخرهم في كل وقت وزمن ليكونوا لنا عوناً ويمدون يد المساعدة لمواساتنا في كل حين.

(٤) ملتمساً: باحثاً مفتشاً. أمضيت سنين طويلة من عمري جاهداً أطلب أخاً أثق به ويكون عوناً لي في شدتي، لكن طلبي لمثل هذا الإنسان باء بالفشل.

(٥) لقد تغير وجه البلاد، وتغير تبعاً لذلك مَنْ يعيش فيها، وكأن الناس قد بُدِّلوا بغيرهم، ولذلك لم تعد ترى واحداً يهتم بأمرك.

(٦) الغلس: ظلام الليل. المؤمن يأنس بمناجاة ربّه على الدوام، ومناجاة الرب حياة القلوب... اللهم إني أشعر بالوحشة والاغتراب عندما أسهو عن =

ماتَقَلَّبتُ مِن نَومي وَفي سِنَتي	إلاّ وَذِكرُكَ بَينَ النَّفسِ وَالنَّفَسِ (١)
لَقَد مَنَنتَ عَلى قَلبي بِمَعرِفَةٍ	بِأَنَّكَ اللَّهُ ذو الآلاءِ وَالقُدسِ (٢)
وَقَد أَتَيتُ ذُنوباً أَنتَ تَعلَمُها	وَلَم تَكُن فاضِحي فيها بِفِعلِ مُسي (٣)
فَامنُنْ عَلَيَّ بِذِكرِ الصَّالِحينَ وَلا	تَجعَل عَلَيَّ إِذاً في الدِّينِ مِن لَبَسِ (٤)
وَكُن مَعي طولَ دُنيايَ وَآخِرَتي	وَيَومَ حَشري بِما أَنزَلتَ في عَبَسِ (٥)

= ذكرك ومناجاتك، فقلبي مفعم بالأنس والحبور، عندما أتذكر رحمتك بي، في سري وإعلاني، و في ليلي ونهاري.

(١) سنتي: نعاسي. وذكرك يحلو لي في نومي ويقظتي، وعندما ينساب النعاس إلى عيني في هذه الأحوال كلّها، لا أنساك، ولا أنسى إكرامك لمخلوقاتك جميعاً، ففي نسمة الهواء المنعشة التي أنعمت بها عليّ، أذكرك، وأتضرع إليك، وأسعى إلى التقرب منك.

(٢) إنّ النعمة الكبرى التي أنعمت بها عليّ أنك ألهمتني بأن أوقن بأنك أنت الله لا إله إلا أنت وأنك صاحب الفضل والنعماء والقدس المتناهي.

(٣) أنا لا أبرئ نفسي من الذنوب فقد أتيت منها ما يخفى على الناس، ولكنك تعلمها حق العلم، فأنت الذي تعلم الغيب والشهادة، ولا يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء، ومن عظيم لطفك ورحمتك بعبادك، أبقيتَها خافية، ولم تفضحني على رؤوس الخلائق بفعلي المسيء.

(٤) لبس: غموض. أرجوك ربي وأتذلل لعظمتك أن تمن عليّ وأن تدخلني في زمرة الصالحين من عبادك وأوليائك، وألا تجعلني في لَبْس من أمر ديني.

(٥) عبس: سورة عبس. إلهي أكرمني بأن تكون معي، ما امتد بي العمر، وطال بي الزمن، وأن تكرمني في آخرتي بأن تجعلني ممن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون في حشري وحسابي، بحق كتابك الكريم الذي أنزلته على نبيك نوراً وهدى للعالمين.

طريق الخلاص

يا واعِظَ النَّاسِ عَمّا أَنتَ فاعِلُهُ ... يا مَن يُعَدُّ عَلَيهِ العُمرُ بِالنَّفَسِ (١)

اِحفَظ لِشَيبِكَ مِن عَيبٍ يُدَنِّسُهُ ... إِنَّ البَياضَ قَليلُ الحَملِ لِلدَّنَسِ (٢)

كَحامِلٍ لِثِيابِ النَّاسِ يَغسِلُها ... وَثَوبُهُ غارِقٌ في الرِّجسِ وَالنَّجَسِ (٣)

تَبغي النَّجاةَ وَلَم تَسلُكْ طَريقَتَها ... إِنَّ السَّفينَةَ لا تَجري عَلى اليَبَسِ (٤)

رُكوبُكَ النَّعشَ يُنسيكَ الرُّكوبَ عَلى ... ما كُنتَ تَركَبُ مِن بَغلٍ وَمِن فَرَسِ (٥)

يَومَ القِيامَةِ لا مالٌ وَلا وَلَدٌ ... وَضَمَّةُ القَبرِ تُنسي لَيلَةَ العُرسِ (٦)

---

(١) العاقل من وعظ نفسه أولاً، ثم يلتفت إلى غيره فيعظه. . أيها الإنسان الذي يقف واعظاً بين الناس يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، هلاّ بدأت بنفسك أولاً، فتنهاها عمّا تنهى الناس عنه، أنَسِيتَ أن عمرك أنفاس تتردد بين جنبيك، وهي مقدرة لا تزيد ولا تنقص.

(٢) لقد خَطَّ رأسك الشيبُ، فأكرم هذا الشيب واحفظه من أي عيب يكدر هذا البياض الدال على التقدم في العمر، إن البياض رمز النقاء ولا يحتمل أن يخالطه عيب أو نقص مهما قلّ.

(٣) إنك إن لم تبدأ بنفسك وتحافظ على نقائها، تكن كذلك القصّار الذي يحمل ثياب الناس، فينظفها من الأدران، وثوبه مغمور بالأرجاس وهو ساهٍ عنه، ولا يحاول إعادته نقياً طاهراً.

(٤) إنك تبغي النجاة، وتحب أن تكون من زمرة الناجين، ولكن أتظن أن طريق النجاة والفلاح سهل ممهد لا وعورة فيه لقد أخطأت خطأً كبيراً؛ لأنك تريد أن تسير بسفينة حياتك على أرضٍ يَبَس وهذا مُحال.

(٥) والموت لا بد من ملاقاته، طال العمر أم قصر، وعندما تركب النعش الذي سيكون مطيتك إلى مثواك الأخير، عند ذلك ستنسى أيام عزك التي كنت تعتلي فيها صهوات الجياد وغيرها من المركوبات.

(٦) إن يوم القيامة، يومٌ تشيب فيه الولدان، ولا يبالي فيه إنسان بإنسان، بل كل يسعى لإنقاذ نفسه، فهو يوم لا مال يفيد مهما كان كثيراً، ولا ولدٌ يدافع عن=

وقفة الحرّ بباب نحس

لَقَلعُ ضِرسٍ وَضَربُ حَبسِ ... وَنَزعُ نَفسٍ وَرَدُّ أَمسِ[1]
وَقَرُّ بَردٍ وَقَودُ فَردٍ ... وَدَبغُ جِلدٍ بِغَيرِ شَمسِ[2]
وَأَكلُ ضَبٍّ وَصَيدُ دُبٍّ ... وَصَرفُ حَبٍّ بِأَرضِ خَرسِ[3]
ونفخُ نارٍ وحَملُ عارٍ ... وَضَربُ إِلفٍ بِحَبلِ قَلسِ[4]
وَبَيعُ خُفٍّ وَعَدمُ إِلفٍ ... وَبَيعُ دارٍ بِرُبعِ فِلسِ[5]
أَهوَنُ مِن وَقفَةِ الحُرِّ ... يَرجو نَوالاً بِبابِ نَحسِ[6]

= أمه وأبيه أمّا ضمة القبر، فيالها من ضمة، إنها تُنسي بأهوالها ليلة العرس التي هي ليلة مميزة في حياة المرء.

(١) إن قلع الضرس مؤلم ولا شك، وكذلك الحبس في مكان لا راحة فيه، وأن تُنزع نفس، وأن يرد أمس الدابر.

(٢) القر: شدة البرد. القود: القصاص. وشدة البرد التي لا تُحتمل في الشتاء، والقصاص من فرد ارتكب جناية، وكذلك دبغ جلد حيوان في جو رطب لا شمس فيه.

(٣) خرس: لا تنبت زرعاً ولا كلأ. وأكل لحم ضبّ الذي أنف منه رسول الله ﷺ، وصيد دبّ على ما فيه من مشقة وخطر، وبذر حَبٍّ بأرض لا تنبت زرعاً.

(٤) وأن تقف وراء نارٍ وتنفخ فيها، وأن تتحمل عاراً، وأن تبيع داراً تؤويك بربع فلس.

(٥) قلس: حبل السفينة الضخم. وأن يبيع الإنسان خفه للحاجة، وانعدام إلف تأنس به، أو أن تضربه بحبل السفينة الضخم.

(٦) النوال: العطاء. كل ما تقدم من مواقف أهون على الإنسان الكريم من أنْ يقف بباب لئيم يطلب منه حاجة أو عطاء.

شرف العلم[1]

العِلـمُ مَغـرَسُ كُـلِّ فَخـرٍ فَـافتَخِـر وَاحذَر يَفوتُكَ فَخر ذاكَ المَغرَسِ[2]

وَاعلَـم بِـأَنَّ العِلـمَ لَيـسَ يَنـالُـهُ مَـن هَمُّـهُ فـي مَطعَـمٍ أَو مَلبَسِ[3]

إِلا أَخُـو العِلـمِ الَّـذي يَعنـي بِـهِ فـي حـالَتَيـهِ عـارِيـاً أَو مُكتَسي[4]

فَـاجعَـل لِنَفسِـكَ مِنـهُ حَظّـاً وافِـراً وَاهجُر لَهُ طيبَ الرُّقادِ وَعَبِّسِ[5]

فَلَعَلَّ يَوماً إِنْ حَضَرْتَ بِمَجلِسٍ كُنتَ الرَّئيسَ وَفَخرَ ذاكَ المَجلِسِ[6]

---

(١) أحسن القصص ١/ ١٢٠ وهو ينقل عن الجوهر النفيس. العلم حياة الفرد والشعوب، والجهل فناء . . .

(٢) العلم غرسة من غراس الفخر، لا تعدلها غرسة، فافتخر بالعلم، وارفع رأسك، فهو الحياة، ومن دون العلم تصبح الحياة صحراء مجدبة لا خير فيها، فاجتهد أيها الإنسان في تحصيل العلم، وإياك أن يفوتك شرف هذا المقصد.

(٣) والعلم لا ينال إلا بالجهد والمثابرة، والسهر والحرمان والصبر، أما من كان همه في مطعم شهيّ يملأ معدته، ولباس مزركش يزين به جسمه، فالعلم يرفض مثل هذا الإنسان ولا ينقاد له.

(٤) إن طالب العلم هو في معزل من مباهج الحياة هذه، فهو يعلم أنها غثاء، وعليه أن يشمر عن سواعد الجد سواء كان عارياً إلا من الضروري من الثياب، أو كان يرفل في أبهى الحلل.

(٥) والعاقل اللبيب هو الذي يأخذ لنفسه منه بحظ وافر، ويطلب المزيد منه، لا يكل ولا يمل إنه يهجر طيب المنام ساهراً يدرس ويطالع، ويترك اللهو العابث، فهو مقطب في أكثر أحواله يتفكر في مسائل وبحوث مرت به.

(٦) إن مثل هذا الإنسان هو زين المجالس، وهو محط الأنظار، إليه يتوجه الجلساء ومنه يفيد الندماء، فهو الرئيس في كل ناد بلا منازع، وهو فخر وعز لمن يجالسهم ويتحدث إليهم.

في الضمير الأخرس[1]

هـل تَـذكُـريـنَ إذِ الـرَّسـائـلُ بينَنَـا يَجْرينَ في الشَّجر الَّذي لم يُغْرسِ[2]
أيَّـامَ سِـرُّكِ فـي يـدِي ومِثـالُـهُ لي في يَدَيْكِ مِنَ الضَّميرِ الأخرسِ[3]

* * *

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٨٥.

(٢) أتذكرين أيام كانت الرسائل تصل ما بيننا، وكأنها الماء تجري في جذور الشجر التي لما تغرس.

(٣) أيام كانت أسرارك في قلبي ويدي، وكذلك كانت أسراري بين يديك، ولم يذع منها شيء، بل بقيت في ضمير الغيب.

قافية الصاد

خلفاء رسول الله ﷺ[1]

شهِـــدتُ بِـــأَنَّ اللهَ لا رَبَّ غَيـــرَهُ	وَأَشهَدُ أَنَّ البَعثَ حَقٌّ وَأَخلَصُ[2]
وَأَنَّ عُـــرى الإيمـــانِ قَـــولٌ مُبَيَّـــنٌ	وَفِعلٌ زَكِيٌّ قَد يَزيدُ وَينقُصُ[3]
وَأَنَّ أَبـــا بَكـــرٍ خَليفَـــةُ رَبِّـــهِ	وَكانَ أَبو حَفصٍ عَلى الخَيرِ يحرص[4]

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٦٨، ومناقب الشافعي للرازي ٨٧، وطبقات الشافعية للسبكي ١/ ١٥٦. وهل بعد رسول الله ﷺ من حاز فضلاً و عزاً أفضل من خلفائه الأربع الراشدين؟؟!

(٢) لقد منَّ الله تعالى عليّ وهداني للإيمان، فأنا أشهد يقيناً بأن الله سبحانه، لا معبود بحقٍّ سواه، وهو خالق كل شيء، وهو ربّ كل المخلوقات، خلقها وهداها لما فيه استمرار بقائها وصلاحها، وأشهد أن انبعاث الناس بعد موتهم حقّ أيضاً، فالصالحون إلى نعيم أبدي، وغيرهم إلى عذاب سرمدي.

(٣) وأشهد أيضاً أن الإيمان سلسلة موصولة، يشدّ بعضها بعضاً، وهذا الإيمان قول واضح صادر عن قلب مطمئن مؤمن تمام الإيمان بما يقول، يؤكده عمل صالح يتبعه، فالإيمان وحده لا يُغني إن لم يرافقه عمل صالح يصدقه، والإيمان يزداد رسوخاً بكثرة الأعمال الصالحة، وقد ينقص نتيجة الإقلال منها، والانغماس فيما لا يرضي الخالق جل وعلا.

(٤) أبو حفص: عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وإن اعتقادي الجازم، هو أن أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ، وهو خليفة الله تعالى في الأرض، وجاء من بعده عمر الفاروق رضي الله عنه، الذي كان يحرص على إحقاق الحقّ، ونشر العدل، مما جعله مضرب المثل للمتقدمين، والمتأخرين من هذه الأمة.

وَأُشهِـدُ رَبّـي أَنَّ عُثمـانَ فـاضِـلٌ وَأَنَّ عَلِيّـاً فَضلُـهُ مُتَخَصِّـصُ[1]

أَئِمَّـةُ قَـومٍ يُهتَـدى بِهُـداهُـمُ لَحـا اللهُ مَـن إِيّـاهُـمُ يَتَنَقَّـصُ[2]

فَمَـا لِعُتـاةٍ يَشهـدون سفـاهـةً وما لِسَفيهٍ لا يَحِيصُ و يَحرِصُ[3]

العلم نور[4]

شَكَـوتُ إِلـى وَكيـعٍ سـوءَ حِفظـي فَأَرشَدَني إِلى تَركِ المَعاصي[5]

---

(١) ومن تمام إيماني، شهادتي المخلصة بأن عثمان ذا النورين رضي الله عنه من أفاضل الصحابة الذين لازموا رسول الله ﷺ، وما بخلوا عليه بشيء، أما أبو الحسن (عليّ بن أبي طالب) كرم الله وجهه فله فضل خاص، إذ إنه من الصحابة المقربين ومن المنتسبين إلى النبي الكريم ﷺ.

(٢) لحا الله قلباً: قبحه. يتنقص: ينقص من أقدارهم. هؤلاء الأعلام، هم أئمة الإسلام، وهم النبراس المنير، يستضاء بنورهم، و يقتدى بسلوكهم، من سار على دربهم كان من الصفوة، ومن تخلف عن ركبهم كان من المقصرين، فقبح الله تعالى كل من يحاول أن ينتقص من قدر واحد منهم، لأنه بذلك يخالف تعاليم الرسول العظيم ﷺ الذي أمرنا أن نجلّهم ونقدرهم، فهم خلفاؤه المخلصون من بعده.

(٣) فما لهؤلاء البغاة لا ينزلونهم؛ منازلهم يتمادون في سفاهتهم، ويقولون أشياء لا تليق بمقامهم الكريم، ويحيدون عن الحق، ويميلون إلى مالا يرضي الله تعالى ورسوله الكريم ﷺ؟!

(٤) توالي التأسيس للعسقلاني ١٤٥، وفي المستطرف ١/ ٢١: شكا رجل إلى وكيع بن الجراح سوء الحفظ فقال له: استعن على الحفظ بترك المعاصي فأنشأ يقول:

شَكَـوْتُ إِلَـى وَكِيـعٍ سـوءَ حِفْظِـي فَـأَرْشَـدنِـي إِلَـى تَـرْكِ المَعَـاصِـي

وذَلِـكَ أَنَّ حِفْـظَ الْعِلْـمِ فَضْـلٌ وَفَضْـلُ اللهِ لاَ يُـؤْتَـى لِعَـاصِـي

(٥) العلم يستقر في القلوب الطاهرة، ولقد شكوت إلى معلمي وكيع، سوء =

وَأَخبَـــرَنـــي بِــأَنَّ العِلــمَ نـــورٌ وَنـــورُ اللهِ لا يُهــدى لِعــاصــي[1]

* * *

= حفظي لما أقرأ، فنصحني أن أتجنب المعاصي ما صغر منها وما كبر.

(١) وأخبرني بأن هذا العلم من نور الله سبحانه، وهو لا يحل في قلوب العصاة، بل إنه يستقر في قلوب الأتقياء الصالحين.

قافية الضَّاد

عادة الأيام

إذا لَم تَجودوا وَالأُمورُ بِكُم تَمضي وَقَد مَلَكَت أَيديكُمُ البَسطَ وَالقَبضا[1]

فَمـا يُـرجـى مِنكُـمْ إِن عَـزَلتُـمْ وَعَضَّتكُمُ الدُّنيا بِأَنيابِها عَضّا[2]

وتَستَـرجِـعُ الأَيّـامُ مـا وَهَبَتكُـمْ وَمِن عادَةِ الأَيّامِ تَستَرجِعُ القَرضا[3]

القضاء غالب[4]

إِنَّ الطَّبيــبَ بِطِبِّــهِ وَدَوائِــهِ لا يَستَطيعُ دِفاعَ مَقدورِ القَضَا[5]

---

(١) إذا أوتيتم نعماً من الله تعالى ولم تجودوا على عباده، وبقيت الأمور ماضية معكم، وقد استطعتم أن تبسطوا أيديكم لمن أردتم، وأن تقبضوها عن الآخرين.

(٢) فهلا فكرتم في يوم تُعزلون فيه مما أنتم عليه، وتُكشر لكم الدنيا عن أنيابها، وتعضكم بمصائبها عضّاً مؤلماً.

(٣) وقد تسترجع الأيام ما وهبتكم إياه من خير وجاه، لأن هذا يعتبر قرضاً والقرض سيُستردّ في يوم مهما طال أمده.

(٤) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٢٩٦، ويلاحظ أن البيت الأخير يختلف في القافية فهو ليس من الأبيات وقد نسب هذا البيت للربيع بن خيثم، انظر المستطرف ٢/ ٢٩٤.

(٥) إذا أصيب المرء بمرض، فإنه يستعين بالطبيب لينقذه، ولكن الطبيب بكل ما أوتي من علم وبراعة، لا يستطيع ردّ القضاء الذي أراده الله تعالى.

مـا لِلطَّبيـبِ يَمـوتُ بِـالـدَّاءِ الَّـذي　　قَد كانَ يُبرئُ مِثلَهُ فيما مَضى[١]

هَلَكَ المُداوِي والمُدَاوَى والَّذي　　جَلَبَ الدَّواءَ وباعَهُ ومَنِ اشْتَرَى[٢]

قف بالمحصَّب[٣]

يا راكِباً قِفْ بِالمُحَصَّبِ مِن مِنىً　　وَاهتِف بِقاعِدِ خِيفِها وَالنّاهِضِ[٤]

سَحَراً إِذا فاضَ الحَجيجُ إِلى مِنىً　　فَيضاً كَمُلتَطِمِ الفُراتِ الفائِضِ[٥]

إِن كـانَ رَفضـاً حُـبُّ آلِ مُحَمَّـدٍ　　فَلَيَشهَـدِ الثَّقَـلانِ أَنّـي رافِضـي[٦]

---

(١) ومن العجيب أن ترى طبيباً، مات جراء أحد الأدواء التي كان يعالج مرضاه منها، فقد كان يستطيع أن يداوي بعضهم ويشفيه، فما له لا يستطيع مداواة نفسه؟.

(٢) إن القضاء إذا حُمّ، رأيت من يداوي، والمداوى، ومن أحضر الدواء للمريض، وكذلك من باعه، كل أولئك تراهم أصبحوا في قبضة الموت لا يستطيعون حراكاً.

(٣) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٧١، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ٥١، ومعجم الأدباء ١٧/ ٣١٠، وطبقات الشافعية للسبكي ١/ ٢٢٩، والنجوم الزاهرة ٢/ ١٧٧، وتاريخ ابن عساكر ١٤/ ٤٠٧، والانتقاء ٩٠ ـ ٩١.

(٤) أيها الساعي إلى الديار المقدسة، قف في مكان رمي الجمار في منى، واهتف من أعماق قلبك في خيف منى وما ارتفع فيها من الأرض.

(٥) اهتف بهذا النداء سَحَراً، في الوقت الذي يفيض الحجيج فيه إلى منى، وهم كأمواج الفرات المتلاطم.

(٦) قلْ بملء فيك، إن كان حب آل النبي محمد ﷺ، يُعَدُّ رفضاً فليشهد الإنس والجن بأني أرتضي الرفض مذهباً لي.

جفاء الصَّديق[1]

لَســـتُ مِمَّـــنْ إذا جَفَـــاهُ أَخُـــوهُ	أَظهَـرَ الـذَّمَّ أو تَنـاوَلَ عِـرْضَـا[2]
بَـلْ إذا صَـاحِبـي بَـدا لِـي جَفَـاهُ	عُدتُ بالودِّ والوصَال لِيَرضَى[3]
كُــنْ كَمَـا شِئْـتَ فَـإِنِّـي حَمُـولٌ	أَنَا أَوْلَى مَنْ عَنْ مَسَاوِيكَ أَغْضى[4]

* * *

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٨٠، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ١١٤ .

(٢) جفاه : قاطعه وخاصمه . الذم : ذمه شنع عليه وتكلم عليه بسوء . إن نفسي طيبة ـ والحمد لله ـ فأنا لست ممن إذا قاطعه صديقه أو خاصمه لشيء طرأ ، بدأ يتكلم بكل سوء وينسى ما كان بينهما من مودة ورعاية للعهد وصون العرض .

(٣) ولكني من أولئك الذين إذا أظهر له صاحبه شيئاً من الجفاء بادلته بإظهار الودّ والمحبة ، ولم أترك وصاله حتى ترضى نفسه وتطيب .

(٤) يا من يصاحبني ، كن كما شئت في تعاملك معي ، فإني قد عقدت العزم على تحمل ما يبدر منك ، وسأكون أول من يغض الطرف عن مساوئك إن ظهر لي منها شيء .

قافية العين

الذُّلُّ في الطَّمع[1]

حَسبـــي بِعِلمـــي إِن نَفَـــعْ ... مـــا الـــذُّلُّ إلاّ فـــي الطَّمَـــع[2]

مَـــن راقَـــبَ اللهَ رَجَـــعْ ... عَـــنْ ســوءِ مَـــا كـــانَ صَنَـــعْ[3]

مـــا طـــارَ طَيـــرٌ وَارتَفَـــعْ ... إلا كَمـــا طـــارَ وَقَـــعْ[4]

الحسود[5]

وَذي حَسَدٍ يَغتابُني حيثُ لا يَرى ... مَكاني وَيُثني صالِحاً حيثُ أَسَمعُ[6]

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٦٦، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ١١٤، ونسبت الأبيات لعبد الله بن المبارك، انظر جامع بيان العلم ١٦٣.

(٢) إن كنت ممن أوتي شيئاً من العلم، فانتفعت به وعملت بمقتضاه، فإن في ذلك كفاية لي، ولا أطلب المزيد لأن الطمع يورث الذل.

(٣) إن الذي يراقب الناس بعين ناقدة، فيرى عاقبة الطامعين والمنحرفين، إن ذلك يحفزه إلى الرجوع عن كل سيئة بدرت منه تجاه الآخرين.

(٤) والدنيا لا تثبت على حال، فإذا ارتفع فيها الإنسان وحلّق وظنّ أنه لن يهبط فهو مخطئ، لأن الطائر مهما علا في الجو، فإنه سيهوي أخيراً.

(٥) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٧٥، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ١١.

(٦) هناك من يحمل نفساً خبيثة، يحسدني عندما لا يراني، ويتمنى زوال نعم الله تعالى عنِّي، أما إن ضمنا المجلس، فيكيل لي المدح والثناء.

تَـوَرَّعـتُ أَن أَغتـابَـهُ مِـن وَرائِـهِ وَمـا هُـوَ إذ يَغتـابُنـي مُتَـوَرِّعُ[1]

الحر والعبد[2]

العبـــدُ حُـــرٌّ إِنْ قَنَـــعْ والحـــرُّ عَبْـــدٌ إنْ طَمَـــعْ[3]
فـــاقْنَـــعْ وَلا تَطْمَـــعْ فَـــلاَ شـيءٌ يَشينُ سِـوَى الطَّمَـعْ[4]

ترك الشَّرِّ للشَّرِّ أقطع[5]

ولقد أسمعُ القولَ الَّذي كادَ كُلَّما تُـذَكِّـرنِيـه النَّفـسُ قَلبِـي يَصَـدَّعُ[6]
وأُبـدِي لمـنْ أَبـداهُ مِنّـي بَشَـاشَـةً كَـأنّـيَ مَسـرورٌ بمـا مِنـهُ أسْمَـعُ[7]
وَمَـا ذَاكَ مِـنْ عُجْـبٍ غيـرَ أنَّنـي أرىَ تَركَ بعضَ الشَّرِّ للشَّرِّ أَقطَعُ[8]

---

(١) إني أتورع أن أقع في غيبته إذا لم يكن حاضراً في مجلس، أما هو فإنه يخوض في حديث ينال مني بشتى السبل، ولا يتورع عن فعل ذلك أبداً.
(٢) مقدمة الأم للشافعي.
(٣) كل إنسان يملك أمر نفسه إن شاء جعلها حرة، وإن شاء جعلها في عداد العبيد، إنه عندما يقنع بما في يده يجعلها حرة، أما إن طمع فهو يلقيها في أوحال العبودية.
(٤) إذاً؛ اتخِّذ القناعة شعاراً لك، ولا تجعل الطمع يستحوذ عليك فإنه أسوأ صفة في الحياة.
(٥) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٧٦، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ١١٥.
(٦) يصدع: يتمزق. قد أسمع أحياناً كلاماً من بعض الناس فتهيج نفسي وأشعر بالضيق، ويكاد قلبي يتمزق غيظاً كلما تذكرته.
(٧) بشاشة: بشراً وسروراً. لكنني على الرغم من ذلك، أبدي البشاشة وطلاقة الوجه لمن بدا منه ذلك، وكأني مغتبط بما سمعت منه في حقي.
(٨) وليس ذلك تيهاً وتكبراً مني، ولكني فكرت في أمري، فوجدت أن ترك شيء من الشر يقطع دابر الشر كله، وفي ذلك خير للجميع.

نفع صديق[1]

وأرسل رحمه الله تعالى إلى محمد بن الحسن بهذين البيتين حين حُبس بالعراق:

لستُ أدري ما حِيلَتِي غيرَ أنِّي ... أَرتَجِي مِنْ جَمِيل جَاهِكَ صُنْعَا[2]
والفَتَى إنْ أرادَ نَفْعَ صَدِيقٍ ... فَهو يَدرِي في أمرِهِ كيفَ يَسْعَى[3]

إذا لم تستح فاصنع ما شئت[4]

إِذَا لم تَصُنْ عِرْضَاً ولم تَخشَ خَالِقاً ... وتَسْتَحِي مَخْلُوقاً فما شِئْتَ فاصْنعِ[5]

دعوة المظلوم[6]

وَرُبَّ ظَلومٍ قَد كُفيتَ بِحَربِهِ ... فَأَوقَعَهُ المَقدورُ أَيَّ وُقوعِ[7]

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٨٦.

(٢) إنني في عسر من أمري، ولا أدري الوجه الصحيح للتخلص منه، لكني أتوسم فيك خيراً كثيراً، إن صنعت لي معروفاً بما تتمتع به من جاه.

(٣) والأخ الصدوق، إذا أراد نفع صديقه لا يعدم سبيلاً للوصول إلى نفعه، وجعله من السعداء.

(٤) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٨٨، ونسب البيت لأبي دلف العجلي، انظر بهجة المجالس ٣/ ٥٩٣.

(٥) إذا كنت ممن لا يحفظ كرامة عرضه، ولم يكن في قلبك خشية من الديان الذي سوف يحاسبك على أعمالك، وإن كنت من أولئك الذين لا يستحون من خلق الله تعالى، فاصنع ما شئت، لأنك فقدت كل رادع.

(٦) هذه الأبيات لجمال الدين بن نباته انظر ديوانه ٣١٤.

(٧) ظلوم وظالم معنى واحد. الظلم ظلمات، إن كثيراً من الذين يظلمون الناس، قد لا تقدر على مواجهته، إن مثل هذا الإنسان سوف يوقعه القدر في شر لا يستطيع الخلاص منه.

فَمـا كـانَ لـي الإِسـلامُ إِلاّ تَعَبُّـداً وَأَدعِيَـــةً لا تُتَّقـــى بِـــدُروعِ[1]
وَحَسبُكَ أَن يَنجو الظَّلومُ وَخَلفَهُ سِهـامُ دُعـاءٍ مِـن قِسِـيّ رُكـوعِ[2]
مُرَيَّشَةٌ بِالهُدبِ مِن كُلِّ ساهِرٍ مُنهَلَّـةٌ أَطـرافُهـا بِـدُمـوعِ[3]

محال في القياس[4]

تَعصـي الإِلَـهَ وَأَنـتَ تُظهِـرُ حُبَّـهُ هَـذا مَحـالٌ في القِيـاسِ بَـديـعُ[5]
لَـو كـانَ حُبُّـكَ صـادِقـاً لأَطَعتَـهُ إِنَّ المُحِـبَّ لِمَـن يُحِـبُّ مُطيـعُ[6]

---

(١) إن الإسلام عقيدة وعبادة خالصة، وبعد ذلك أدعية إلى الخالق سبحانه، وإن هذه الأدعية بحق الظالم لا يردها درع ولا حجاب.
(٢) قسي: سهام. وكيف ينجو الظالم من عقاب الله تعالى العادل، وهناك أناس ظُلموا من قِبَله، وهؤلاء يطلقون أدعيتهم راكعين، كسهام تنطلق من ألسنة المظلومين.
(٣) كناية عن لصوق الأهداب بها والمعنى أن دعاء المظلوم مرسل إرسال السهم لأنها مبتلة بدموع الجفن. وهي سهام قد صنعت بليل المظلومين، الذين يبكون رجاء من خالقهم أن ينصفهم من هؤلاء الظالمين الذين قست قلوبهم وماتت ضمائرهم.
(٤) العقد الفريد ٣/ ٢١٥، والكامل للمبرد ١/ ٢٣٤، البيت الأول والثاني منسوبان لمحمود الوراق، ونسبها صاحب بهجة المجالس للشافعي وزاد في الهامش: وتنسب أيضاً لذي الرمة، انظر زيادات الديوان، ونسبها صاحب شعراء النصرانية للنابغة الذبياني وليس هذا صحيحاً.
(٥) إن من دلائل الحبّ، أن تطيع المحبوب، فإن كنت تحب الإله الذي خلقك ومنحك كل ما أنت بحاجة إليه. إن كنت تدعي حبه ثم تعصيه، فهذا محال في المنطق والعقل، لا يقره عاقل.
(٦) إن حبك الصادق لمولاك يجعلك مطيعاً له في أحوالك كلها، إذ إن القاعدة=

فـــي كُـــلِّ يَـــومٍ يَبتَـــديـــكَ بِنِعمَـــةٍ   مِنـــهُ وَأَنـــتَ لِشُكـــرِ ذاكَ مُضَيِّـــعُ[1]

المفتي المكِّيّ[2]

روى ياقوت الحموي فقال: بلغني أن رجلاً جاء الشافعي برقعة فيها:

سَلِ المُفتيَ المَكِّيَ مِنْ آلِ هَاشمٍ   إذا اشْتدَّ وَجْدٌ بامرئٍ كيفَ يصنَعُ[3]

قال: فكتب الشافعي تحته:

يُـــداوِي هَـــواهُ ثُـــمَّ يَكْتُـــمُ وجـــدَهُ   ويَصبِرُ في كُلِّ الأُمُورِ وَيَخْضَعُ[4]

فأخذها صاحبها وذهب بها، ثم جاءه، وقد كتب تحت هذا البيت، الذي هو الجواب:

فَكَيفَ يُداوي والهوَى قَاتِلُ الفَتَى   وَفِـــي كُـــلِّ يـــومٍ غَصَّـــةً يَتَجـــرَّعُ[5]

= البديهية أن كل محبٍّ يطيع محبوبه في كل شيء.

(١) ونعم الله تعالى دائمة متجددة، وهي تتوالى في كل يوم، بينما أنت سادر في غفلتك مضيع لهذا الشكر الواجب عليك.

(٢) معجم الأدباء ١٧/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧، وقد قال الأصمعي: بينما كنت أسير في البادية.. وساق القصة على أنها حدثت معه.

(٣) الوجد: شدة الحب. عندي سؤال لهذا المفتي المكيّ المنتسب إلى آل هاشم الكرام، ماذا يصنع امرؤ إن اشتد به حب ولم يستطع أن يتحمله إلا بشقّ النفس.

(٤) إن السبيل إلى ذلك أن يبادر إلى مداواة هذا الحب، ولا يبوح بهذا الحب الذي ملك عليه نفسه، وأن يتخذ الصبر درعاً له، وأن يخضع لمشيئة المولى تعالى.

(٥) غصة: الحزن والهم. وأنّى يستطيع أن يداوي مابه، وهواه يكاد أن يقضي عليه، وإن كل يوم يمر به يسقيه من العذاب والهموم ألواناً.

فكتب الشافعي رحمه الله تعالى:

فَإِنْ هُـوَ لم يَصبِـرْ على مَا أَصابَـهُ   فليسَ لهُ شَيءٌ سِوى الموتِ أَنْفَعُ[1]

* * *

(١) أمّا إن غلبه الشوق، ولم يستطع التحمل والصبر على ما أصابه، فليس له دواء يشفيه من ذلك إلا الموت.

قافية الفاء

من هم الأصدقاء[(١)]

إِذا المَـرءُ لا يَـرعـاكَ إِلاّ تَكَلُّفـاً   فَدَعهُ وَلا تُكثِر عَلَيهِ التَأَسُّفا[(٢)]

فَفي النّاسِ أَبدالٌ وَفي التَّركِ راحَةٌ   وَفي القَلبِ صَبرٌ لِلحَبيبِ وَلَو جَفا[(٣)]

فَمـا كُـلُّ مَـن تَهـواهُ يَهـواكَ قَلبُـهُ   وَلا كُلُّ مَن صافَيتَهُ لَكَ قَد صَفا[(٤)]

إِذا لَـم يَكُـن صَفـوُ الـوِدادِ طَبيعَـةً   فَـلا خَيـرَ فـي وُدٍّ يَجـيءُ تَكَلُّفـا[(٥)]

---

(١) جواهر الأدب ٧١٩. الصديق الوفي نعمة من المولى تعالى، ولكن الأصدقاء المخلصين قليلون.

(٢) تكلفاً: تصنعاً. إن المرء الذي لا يرعى لك حقاً في صداقته، إلاّ وهو يتكلف ذلك ويتصنعه، فالأجدر بك أن تتركه وتبعد عنه، فإن مثل هذا الإنسان لا يؤسف على تركه واجتنابه.

(٣) والدنيا ممتلئة بالناس، وباستطاعة العاقل أن يتخير الأصحاب الأوفياء من بينهم، وإنّ تَرْكَ مثل ذلك الصاحب المتكلف راحة للقلب، والمرء يستطيع التصبر على قلب حبيب مخلص له، ولو بدر منه بعض الجفاء.

(٤) وليس كل امرى تحبه وتخلص له، يبادلك الشعور نفسه، ولا كل إنسان أصفيت له المودة يبادلك الصفاء نفسه، فطباع الخلائق مختلفة.

(٥) إن المودة وصفو المحبة إن لم تكونا طبيعة مغروسة في النفس فلا خير فيهما، ولا فائدة ترجى من حب متكلف غير صادر عن قلب مفعم به.

وَلا خَيرَ فـي خِـلٍّ يَخـونُ خَليلَـهُ   وَيَلقاهُ مِن بَعدِ المَوَدَّةِ بِالجَفا[١]

وَيُنكِـرُ عَيشـاً قَـد تَقـادَمَ عَهـدُهُ   وَيُظهِرُ سِرّاً كانَ بِالأَمسِ قَد خَفى[٢]

سَلامٌ عَلى الدُّنيا إِذا لَم يَكُن بِها   صَديقٌ صَدوقٌ صادِقُ الوَعدِ مُنصِفا[٣]

للإله سرٌّ خفيٌّ[٤]

كَـم مِـنْ قَـويٍّ قَـويٍّ فـي تَقَلُّبِـهِ   مهذَّبُ الرَّأيِ عَنْهُ الرِّزقُ يَنحرِفُ[٥]

ومِنْ ضعيفٍ ضعيفِ العقلِ مُختلطٍ   كأنَّهُ مِنْ خَليجِ البَحرِ يَغتَرِفُ[٦]

---

(١) ولا خير في خليل لا يرعى لخليله حرمة الصداقة والمودة، فيخونه ويتنكّر له، ويلقاه بالجفاء والغلظة بعد أن يدعي الصحبة والمودة.

(٢) وهو أيضاً ينسى العيش الصافي الذي مرت أيامه بهما، وكأن شيئاً من ذلك لم يكن، ويتمادى في النكران وعدم المحافظة على حرمة ما كان بينهما فيفشي بعض الأسرار التي كان قد أؤتمن عليها.

(٣) لا خير في الدنيا عندما تبلغ الأمور إلى هذا الحد من الأصدقاء، فسلام عليها ووداعاً للحياة كلها إذا لم تستطع الظفر بصديق صدوق وفيٍّ للعهد، ينصفك من نفسه قبل أن يُطلب منه ذلك.

(٤) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٩١، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ١١٣، وانظر روضة العقلاء ١٣. ونسبت إلى سفيان بين عيينة، انظر العقد الفريد ٢/ ٢٩٠.

(٥) مهذب الرأي: قوي الفكر. إن الله تعالى حكماً قد لا ندركها، إذ قد نرى إنساناً مكتمل القوة، يتوجه إلى مقاصده بهمة ونشاط، وهو ذو عقل راجح، وفكر ثاقب، مع ذلك ترى أن رزقه كفاف.

(٦) يغترف: يأخذ. وإنك ترى آخر ضعيفاً غاية الضعف، تفكيره محدود، وآراؤه مختلطة، تنظر إلى هذا الإنسان، فتراه موسعاً عليه في رزقه، وكأنه يغترف المال من البحر.

هَـذَا دَلِيـلٌ عَلَـى أنَّ الإلـــهَ لَــهُ سِرٌّ خَفِيٌّ عَلينَا ليسَ يَنْكشِفُ[1]

المتنسّكون[2]

وَدَعِ الَّـذيــنَ إذا أَتَــوكَ تَنَسَّـكــوا وَإِذا خَـلَوا فَهُـمُ ذِئابُ حِقافِ[3]

العقاب والذُّباب[4]

أَكَلَ العُــقابُ بِقُـوَّةٍ جِيَـفَ الفَـلا وَجَنى الذُّبابُ الشَّهدَ وَهُوَ ضَعيفُ[5]

كيف الوصول[6]

كَيفَ الوصولُ إِلى سُعاد وَدونَها قُلَلُ الجِـبالِ وَدونَهُـنَّ حُتـوفُ[7]

---

(١) وهذه الظاهرة أكبر دليل على أن للإله العظيم سراً في تدبير خلقه، لا يعلمه إلا هو وهذا السر محجوب عن الخلق، لا يعلمه إلا هو سبحانه.

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٦٤، وطبقات الشافعية للسبكي ١/ ١٦٣، وحلية الأولياء ٩/ ١٥٤، وآداب الشافعي ومناقبه ٢٧٢.

(٣) حقاف: جمع حقف، وهو ما اعوج من الرمل واستطال. لا يلتفت إلى الذين يدعون التدين والزهد أمام الناس ويظهرون مكرهم وغدرهم وسوء خلقهم عندما لا يراهم أحد، لأن المسلم الحق الذي يستحق التقدير هو الذي يوافق ظاهره باطنه ويخشى الله في السر والعلن.

(٤) نور الأبصار.

(٥) العقاب: طائر كاسر. قد تكون أضعف المخلوقات مصدراً للخير، فالعقاب الشديد يهوي على رفات الحيوانات الميتة في الصحراء ويأكلها بقوة، أما الذباب الضعيف ومنه النحل فإنه يجني أصناف العسل، وهو من أضعف مخلوقات الله تعالى.

(٦) نسبهما ابن المستوفي في تاريخ اربل ١/ ١٦٩ لأبي الفداء إسماعيل بن محمد بن وهب ابن محمد الصوفي الجزري.

(٧) قلل الجبال: الجبال العالية. حتوف: مفردها حتف وهو الموت والهلاك. =

وَالرِّجلُ حافِيَـةٌ وَلا لـي مَركَبٌ   وَالكَفُّ صِفرٌ وَالطَّريقُ مَخوفُ[1]

* * *

= كيف لي أن أصل إلى غايتي وطموحي، وعليّ أن أصعد في سبيل ذلك قمم الجبال، وأن أُعرِّض نفسي لأنواع من الهلاك؟!.

(١) ومما يجعل أمري عسيراً غاية العسر، أنني لا أملك حذاء، وليس لي مركب يبلغني إلى ما أريد، وفوق ذلك فليس لي مال، والطريق إلى هدفي محفوف بالمخاطر والأهوال.

قافية القاف

ارحل عن دار الذُّلّ[1]

ارحَل بِنَفسِكَ مِن أَرضٍ تُضامُ بِها ... وَلا تَكُن مِن فِراقِ الأَهلِ في حُرَقِ[2]

مَـنْ ذُلَّ بيـنَ أهـاليـهِ ببلـدتِـهِ ... فالاغترابُ لهُ مِنْ أحسنِ الخُلُقِ[3]

والعَنبَـرُ الخـامُ رَوثٌ فـي مَـواطِنِـهِ ... وَفي التَّغرُّبِ مَحمولٌ عَلى العُنُقِ[4]

وَالكُحلُ نَوعٌ مِنَ الأَحجارِ تَنظُرُهُ ... في أَرضِهِ وَهوَ مَرميٌّ عَلى الطُّرُقِ[5]

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ٣٠٧، وجواهر الأدب ٧٢٥. إن الكريم لا يقيم إلا في دار تحفظ له مكانته، ويرتحل عن أخرى لا تهتم به.

(٢) تضام: تهان وتظلم وتذل. إذا ابتليت بالمقام في أرض تهان وتظلم فيها، ولا يعرف لك ساكنوها حقاً ولا ذمة، فما عليك إلا أن ترحل عنها، وألا يصيبك من جراء ذلك همّ أو غمّ، بسبب مفارقتك الأهل والأحباب.

(٣) إن من يصاب بالمهانة، وعدم الاحترام بين أهله وعشيرته الذين يقيمون معه، فالاغتراب شرف له وعزّ، أما البقاء فهو عين الضعف والانخذال.

(٤) إن العنبر على طيب رائحته، وتسابق الناس في اقتنائه والاستفادة منه، فإن الكثيرين لا يقيمون له وزناً في موطنه، أما إذا نقل من أرضه، فإنه يصبح عزيزاً محمولاً على الأعناق والأكف.

(٥) وكذلك الكحل فهي في موطنها الأصلي نوع من الأحجار لا يؤبه لها، وكثيراً ما تكون هذه الأحجار منثورة في الطرقات على مرأى من الناس. ولكنها بعد انتقالها من موطنها، صارت مادة من مواد الزينة، موطنها بين الأجفان والأحداق.

لَمّـا تَغَـرَّبَ حـازَ الفَضـلَ أَجمَعَـهُ ... فَصارَ يُحمَلُ بَينَ الجَفنِ وَالحَدَقِ[١]

حلاوة العلم[٢]

سَهَـري لِتَنقيـحِ العُلـومِ أَلَـذُّ لـي ... مِن وَصلِ غانِيَةٍ وَطيبِ عِناقِ[٣]

وَصَريرُ أَقلامي عَلى صَفَحاتِها ... أَحلـى مِـنَ الـدَّوكـاءِ وَالعُشّـاقِ[٤]

وَأَلَـذُّ مِـن نَقـرِ الفَتـاةِ لِـدُفِّهـا ... نَقري لأُلقي الرَّملَ عَن أَوراقي[٥]

وَتَمـايُلـي طَـرَبـاً لِحَـلِّ عَـويصَـةٍ ... في الدَّرسِ أَشهى مِن مُدامَةِ ساقِ[٦]

وَأَبيـتُ سَهـرانَ الـدُّجـى وَتَبيتُـهُ ... نَوماً وَتَبغي بَعدَ ذاكَ لِحاقي[٧]

---

(١) حاز: نال.

(٢) نور الأبصار ٢٥٦، ونسبها صاحب منهاج اليقين شرح أدب الدنيا والدين لتاج الدين السبكي، انظر منهاج اليقين ١٢٧، ونسبت الأبيات للزمخشري، انظر مقدمة كتاب (الفائق في غريب الحديث) ١/ ٨. العلم غذاء العقل وبهجة الروح لمن يعرف قدره.

(٣) العالم المشغوف بعلمه، والمتطلع أبداً للاستزادة منه، والمهتم بمعرفة الجديد منه، يجد في السهر لذة، أين منه السهر مع الغانيات ووصلهن.

(٤) حتى إن صرير أقلام العالم فوق صفحات أوراقه، أطرب لسمعه، وأحلى من ضجيج أولئك الذين يجتمعون لقتل الوقت بالسهر مع المعشوقين، وتبادل الهوى معهم.

(٥) وكذلك فإن نقره الرمل عن أوراقه التي أودعها خلاصة فكره، وعصارة ذهنه، إن صوت الرمل هذا المتساقط عن الأوراق ألذ عنده من نقر غانية على دفها طرباً للسامعين.

(٦) عويصة: المسألة الصعبة الحل. أما عندما يوصله البحث والتأمل إلى حل مسألة عويصة مما يكد ذهنه فيها، فهو يتمايل نشوة وطرباً، وهذا التمايل والطرب أشهى عنده من الخمرة التي يقدمها الساقي إلى زبائنه.

(٧) إن من يطلب العلم والمعرفة، يطيب له السهر، ويهجر الكرى، فيصبح علماً=

لا تأخذ بعثرات النَّاس[1]

روى الفخر الرازي عن الشافعي رضي الله عنه :

إذا رافقْتَ في الأسفارِ قَوماً فَكُنْ لهمُ كذِي الرَّحِمِ الشَّفِيقِ[2]

لِعَيْبِ النَّفس ذَا بَصَرٍ وعِلْمٍ وأَعمَى العينِ عن عَيْبِ الرَّفِيقِ[3]

ولا تَأخُذْ بِعَثْرةِ كُلِّ قَومٍ ولكِنْ قُلْ هَلُمَّ إلى الطَّرِيقِ[4]

فإنْ تأخُذْ بِعثرتِهِم يَقِلُّوا وتَبْقى في الزَّمانِ بِلاَ صَدِيقِ[5]

= من أعلام المعرفة، أما أولئك الذين ينامون الليل ملء جفونهم، فأنى لهم اللحاق بمثل هذا الإنسان؟!

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٨٤، ومناقب الشافعي للرازي ١١٣، ونسبت الأبيات لعبد الله بن المبارك، انظر كتاب عبد الله بن المبارك للمحتسب ١٦٤.

(٢) حسن المعاشرة خلق كريم، فإذا صحبت أناساً في سفر، فالأولى لك أن تعاملهم برفق ورحمة، وكأنك واحد من ذوي أرحامهم.

(٣) وكن شديداً مع نفسك، راقب عيوبها، وحاول على الدوام إصلاحها، أما الآخرون فغض الطرف عن مساوئهم، وبذلك تكسب ودهم، وتدوم لك صحبتهم.

(٤) عثرة: أي هفوة، فلا تتبع العثرات تصيد العيوب والسقطات. ولا تكن متربصاً بهم، تحصي عليهم الأخطاء والهفوات، وكن مرشدَ خيرٍ لهم، كلما تعثرت الأمور، وادعهم إلى متابعة السفر.

(٥) إنك إن أحصيت على القوم هفواتهم، وكان ديدنك العتاب على أخطائهم، فإنك ستخسر الكثيرين، وربما جاءك يوم لا تلقى فيه صديقاً.

الغريب[1]

إِنَّ الغَـريـبَ لَـهُ مَخـافَـةُ سـارِقٍ ... وَخُضـوعُ مَـديـونٍ وَذِلَّـةُ وامِـقِ[2]

وإِذا تَـذَكَّـرَ أَهلَـهُ وَبِـلادَهُ ... فَفُـؤادُهُ كَجَنـاحِ طَيـرٍ خـافِـقِ[3]

الأحمق[4]

إِذا المَـرءُ أَفشـى سِـرَّهُ بِلِسـانِـهِ ... وَلامَ عَليـهِ غَيـرَهُ فَهُـوَ أَحمَـقُ[5]

إِذا ضاقَ صَدرُ المَرءِ عَن سِرِّ نَفسِهِ ... فَصَدرُ الَّذي يُستَودَعُ السِّرَّ أَضيَقُ[6]

المكر والملق في النَّاس

لَم يَبقَ في النَّاسِ إِلاّ المَكرُ وَالمَلَقُ ... شَوكٌ إِذا لمسوا زَهرٌ إِذا رَمَقوا[7]

فَـإِن دَعَتْـكَ ضَـروراتٌ لِعِشـرَتِهِـم ... فَكُن جَحيماً لَعَلَّ الشَّوكَ يَحتَرِقُ[8]

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٧٥، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ١١٤ .

(٢) الوامق: المحب. الغربة تجلب الكربة، والغريب عن أهله ووطنه ينتابه في كثير من الأحيان الخوف وكأنه سارق ملاحق، أو يصيبه الانكسار الذي يصاحب المديون، أو تغشاه ذلة المحبين عندما يلتقون بالمحبوب .

(٣) أما إذا طافت به الذكرى إلى حيث أهله الذين فارقهم، وبلاده التي نأى عنها، عندها يتحول قلبه إلى جناح طائر يديم الخفقان شوقاً وحنيناً .

(٤) شذرات الذهب ٢/ ١١ .

(٥) صدر الإنسان مستودع سره، فإن أذاع سره وأفشاه بين الناس، ثم ألقى باللائمة على من يذيعه ويشيعه، فهو أحمق حقاً .

(٦) إذا لم يتسع صدر الإنسان لسرّه وضاق عنه، فكيف بإنسان آخر يحفظه له ولا يذيعه؟ إنّ هذا لشيء عجاب!

(٧) لقد سرى في كثير من الناس خُلُقُ المكر والملق، وهذان خلقان ذميمان تأباهما النفوس الكريمة، إذا لمستهم كانوا كالشوك ملمساً، أما إذا نظروا إليك، فتحسب أنهم زهر أنيق .

(٨) وإذا اضطررت لمعاشرة مثل هؤلاء الخلائق، فلا تظهر لهم جانب اللين، بل=

توكلت على الله

تَوَكَّلتُ في رِزقي عَلى اللهِ خالِقي ... وَأَيقَنتُ أَنَّ اللهَ لا شَكَّ رازِقي[1]

وَما يَكُ مِن رِزقي فَلَيسَ يَفوتُني ... وَلَو كانَ في قاعِ البِحارِ العَوامِقِ[2]

سَيَأتي بِهِ اللهُ العَظيمُ بِفَضلِهِ ... وَلَو لَم يَكُن مِنّي اللِّسانُ بِناطِقِ[3]

فَفي أَيِّ شَيءٍ تَذهَبُ النَّفسُ حَسرَةً ... وَقَد قَسَّمَ الرَّحمَنُ رِزقَ الخَلائِقِ[4]

العقل لا يغني

لَو كُنتَ بِالعَقلِ تُعطى ما تُريدُ إِذَن ... لَما ظَفِرتَ مِنَ الدُّنيا بِمَرزوقِ[5]

= كن كالنار علّك تحرق شوك نفوسهم فيضمحلّون.

(١) ورزقكم في السماء وما توعدون.. هذا هو شعار المؤمن الحق الذي يثق بوعد خالقه، فهو يباشر الأسباب من جوانبها كلها، ثم يتوكل على الله تعالى الذي خلق المخلوقات وتكفل بأرزاقها.

(٢) العوامق: مفردها عميق وهي بمعنى واحد. إن ما قسم لي من رزق لا بد واصل إليّ مهما طال الزمن، وتشابكت الأسباب، حتى إنه لو كان في قاع البحار والمحيطات الموغلة في العمق فلا بدّ أن يصل إليّ.

(٣) إن الله سبحانه وتعالى، سيسوقه إليَّ ما في ذلك شك، لأنه ذو الفضل، وهو الذي وعد بأنّ ما من دابة في الأرض إلا عليه رزقها، ومن أصدق من الله قيلاً؟.

(٤) إذن اطمئن أيها الإنسان، ولا تذهب نفسك حسرات في هم الرزق، فقد كفاك الله مولاك مؤنة ذلك، فما عليك إلا أن تسعى سعياً كريماً، وأن تكل الأمور بعد ذلك إلى خالق الأكوان، فهو الرزاق ذو القوة المتين.

(٥) الله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء، فلو كنت أيها الإنسان تحصل على أمنياتك كلها بذكائك وعقلك، فقد لا تجد واحداً يرزق بكل ما تمنّاه لأن الناس متفاوتون في الذكاء والعقول.

رُزِقتَ مالاً عَلى جَهلٍ فَعِشتَ بِهِ فَلَسْـتَ أَوَّلَ مَجنـونٍ بمَـرْزوقِ[1]

العقل والمال ضدَّان[2]

أخرج الحافظ ابن حجر وتاج الدين السبكي بأسانيدهم إلى أبي حيان النيسابوري قال: دخل عباس الأزرق على الشافعي رضي الله عنه فقال: يا أبا عبد الله؛ قد قلت أبياتاً إن أنت أجزت مثلها لأتوبن من قول الشعر. فقال الشافعي رضي الله عنه: إيه. فأنشأ يقول:

مـا هِمَّتِـي إلاَّ مُقـارعـةُ العِـدَا خَلُقَ الزَّمانُ وهِمَّتي لم تَخْلُقِ[3]

والنَّاسُ أعيُنُهم إلى سَلَبِ الغِنَى لا يسألونَ عن الحِجَا والأوْلَقِ[4]

لو كانَ بالحِيَلِ الغِنَى لوجدْتَنِي بِنُجـومِ أقطـارِ السَّمـاءِ تَعَلُّقِـي

فقال الشافعي رضي الله عنه: هلا قلت كما أقول. وأنشأ مترسِّلاً:

إِنَّ الَّذي رُزِقَ اليَسارَ ولم يُصِبْ أَجـراً وَلا حَمـداً لَغَيـرُ مُـوَفَّـقِ[5]

---

(١) قد ترزق أموالاً طائلة، وتجمع من متاع الدنيا الكثير، وأنت جاهل، ولكن المال أعانك، والحقيقة أنك لست بأول مجنون تفتح عليه أبواب الرزق، فأشباهك كُثُر.

(٢) طبقات الشافعية للسبكي ١/ ١٦١، وشذرات الذهب ٢/ ١١، وتوالي التأسيس ٧٤ ـ ٧٥، والعمدة ١/ ١٨، ونزهة الجليس ٢/ ٢٠٩، وحماسة الظرفاء ١/ ١٠٨.

(٣) خلق: بلي.

(٤) الحجا: العقل. والأولق: الولق: إسراعك في الشيء في إثر الشيء، وولق الحديث: أنشأه واخترعه.

(٥) إن الذي أفاض الله تعالى عليه الرزق واليسار، ولم يكسب جراء ذلك أجراً ولا حمداً، بأن ينفقه في وجوه البر والخير، إنه إنسان جانبه التوفيق.

وَالجِـدُّ يُـدنـي كُـلَّ أَمـرٍ شـاسِـعٍ وَالجَـدُّ يَفتَـحُ كُـلَّ بـابٍ مُغلَـقِ[١]
فَـإِذا سَمِعـتَ بِـأَنَّ مَجـدوداً حَـوى عُوداً فَأَثمرَ في يَدَيهِ فَصَدِّقِ[٢]
وَإِذا سَمِعـتَ بِـأَنَّ مَجـذوذاً أتـى مـاءً لِيَشـرَبَـهُ فَغـاصَ فَحَقِّـقِ[٣]
ولـربَّمـا عـرضَـتْ لنفسِـيَ فِكـرةٌ فـأودُّ مِنهـا أنـنـي لـم أُخلَـقِ[٤]
لَو كانَ بِالحِيَلِ الغِنى لَوَجَدتَني بـأجَـلِّ أسبـاب السَّمـاءِ تَعَلُّـقي[٥]
لَكِنَّ مَن رُزِقَ الحِجا حُرِمَ الغِنى ضِـدّانِ مُفتَـرِقـانِ أَيَّ تَفَـرُّقِ[٦]
وَمِـنَ الـدَّليـلِ عَلـى القَضـاءِ وَكـونِـهِ بُؤسُ اللَّبيبِ وَطيبُ عَيشِ الأَحمَقِ[٧]

---

(١) العمل والدأب يقربان كل أمر بعيد المنال، كما أن الحظ الذي هو هبة من المولى تعالى يفتح كل باب مغلق، ويجعل العسير سهلاً.
(٢) فإذا سمعت يوماً، أن امرأً أوتي من الحظ نصيباً، أمسك عوداً يابساً لا حياة فيه، وانقلب هذا العود إلى أخضر مثمر، فصدق ذلك.
(٣) وكذلك إذا نقل إليه بأن محروماً من نعمة الحظ قد ورد على نبع ماء ليشرب منه، فغاض ذلك الماء وجف، فصدق ذلك أيضاً.
(٤) وقد تمر بالإنسان لحظات، يسرح فيها خياله، وتتوارد عليه خواطر، مثل هذه الخواطر و الفكر، تجعلني أتمنى أنني لو لم أخلق أصلاً.
(٥) ولو أن الغنى نتيجة ذكاء المرء وحسن تصرفه لكنت من السابقين في ذلك، وأكاد في هذا أرقى إلى التعلق بحبال توصلني إلى الذرا.
(٦) ولكن حكمة الله العلي القدير وتدبيره، شاءا ألا يجتمع العقل والغنى في شخص واحد، إلا ما ندر، فكأن الغنى والعقل ضدان لا يجتمعان.
(٧) وأكبر دليل على أن قضاء الله تعالى هو النافذ، وأنه مختص به وحده جلّ شأنه، أنك ترى اللبيب الحاذق، يعيش في بؤس، بينما الأحمق الجاهل يرفل في السعادة والنعيم.

وَأَحَقُّ خَلقِ اللهِ بِالهمِّ امرُؤٌ ... ذو هِمَّةٍ يُبلى بعيشٍ ضَيِّقِ[1]

البرُّ قد يكون عقوقاً[2]

روى ابن خلكان في تاريخه هذا البيت عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال:

رامَ نَفعاً فَضَرَّ مِن غَيرِ قَصدٍ ... وَمِنَ البِرِّ ما يَكونُ عُقوقا[3]

الكتابة قيد[4]

العلمُ صَيدٌ والكتابَةُ قَيدُهُ ... قَيِّدْ صُيُودَكَ بالحبالِ الواثِقَه[5]

فَمِنَ الحَماقَةِ أنْ تصيدَ غَزَالَةً ... وتَترُكَها بينَ الخَلائِقِ طَالِقَه[6]

مُداراة العدوّ[7]

وإذا عَجَزْتَ عنِ العَدُوِّ فَدَارِهِ ... وامزُجْ لَه إنَّ المِزَاجَ وِفَاقُ[8]

---

(١) وإني أرى أن أحق الخلق بأن يكون مهموماً، هو ذلك الإنسان الذي يمتلك همة عالية جداً، وهو ينشط في المجالات كلها، ولكن حصاد ذلك عنده عيش ضيق وأفق مسدود.

(٢) وفيات الأعيان ٣/ ٣٠٨.

(٣) كثيراً ما يظنّ الإنسان أنه إذا قام بعمل ما فإنه ينفع الآخر، ولكن هذا النفع قد ينقلب دون قصد من فاعله إلى عكس ما أراده.

(٤) أحسن القصص ٤/ ٧٥، وهو ينقل عن الجوهر النفيس.

(٥) العلم كالصيد، وكما أن الصيد تجب المحافظة عليه بحبسه وقيده، فكذلك العلم، يجب أن يُوثَّق ويُقَيَّد بالكتابة حتى لا يُنسى.

(٦) ومن الحمق البيّن أن ترى صائداً يطلق الغزالة التي صادها دون أن يربطها، بل جعلها طليقة تسرح بين الخلائق، فمصيرها عند ذلك معروف.

(٧) هذان البيتان نسبا للشافعي وهما لابن نباته، انظر الديوان.

(٨) لا يخلو الإنسان من عدوّ أو مبغض له، فإذا ابتليت بشيء من هذا، ولم =

فالنَّارُ بالماءِ الَّذي هو ضِدُّهَا تُعطِي النِّضاجَ وطَبْعُها الإحرَاقُ[1]

اعرف الحقّ[2]

اعــرفِ الحـــقَّ لـذِي الحـــقِّ إذا حَـــقَّ لَـــهُ الحـــقُّ[3]
لا خـــيرَ فيمَــنْ يُنكِــرُ الحـــقَّ لـذِي الحـقِّ إذا حَـقَّ لَـهُ الحـقُّ[4]

علمي معي

عِلمي مَعي حَيثُما يَمَّمتُ يَنفَعُني قَلبي وِعاءٌ لَهُ لا بَطنُ صُندوقِ[5]
إن كُنتُ في البَيتِ كانَ العِلمُ فيهِ مَعي أَو كُنتُ في السُّوقِ كانَ العِلمُ في السُّوقِ[6]

* * *

= تستطع التخلص منه، فاسلك سبيل المداراة معه، وامزج له اللين مع الشدة، وفي هذا نوع من الوفاق.

(١) والماء الذي هو ماحِقٌ للنار قد يعطي نتيجة غير متوقعة، لأنها قد تتحمل شيئاً منه، وتكون النتيجة من الحسن بمكان.

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٩٧.

(٣) على الإنسان أن يعرف لكل ذي حق حقه، فيوفيه إياه دون إبطاء.

(٤) ولا خير ولا دين لمن ينكر على الناس حقوقهم، وذلك عندما تجب لهم هذه الحقوق فيجب أداؤها دون مماطلة أو تسويف.

(٥) إنني أحمل علمي في صدري فهو محفوظ فيه لا في السطور، فهو معي أينما ذهبت وحيث توجهت، فإنه ينفعني وأستفيد منه، وقد جعلت قلبي له وعاء، فهو يحفظه وهو يسكن فيه لا في كتب تستقر في أعماق الصناديق.

(٦) فحيثما حللت حل العلم، فإن كنت في البيت كان العلم معي في البيت، أو كنت في السوق كان العلم في السوق، فقد جعلته في صدري، فحيثما حللت حل العلم.

قافية الكاف

تولَّ أمرك[1]

مـــا حَـــكَّ جِلـــدَكَ مِثـــلُ ظُفـــرِكَ فَتَـــوَلَّ أَنـــتَ جَميـــعَ أَمـــرِكْ[2]
وَإِذا قَـصَــــــــدتَ لِحـــاجَـــــــةٍ فَـــاقصِـــد لِمُعتَـــرِفٍ بِقَـــدرِكْ[3]

رأس الغنى[4]

رَأَيـتُ القَنـاعَـــــــةَ رَأسَ الغِـنـــى فَصِـــرتُ بِـــأَذيـالِهـا مُمْتَسِـكْ[5]
فَلا ذا يَرانـــــي عَلـــى بابِـــهِ وَلا ذا يَـــرانـــي بِـــهِ مُنهَمِـكْ[6]

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٧٧، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ١١٥ ـ ١١٦ ، و شذرات الذهب ٢/ ١١ ، وتاريخ دمشق ١٠/ ٢٠٧ .

(٢) وقديماً قيل هذا المثل، فالإنسان ملزم أن يباشر أموره كلها بنفسه لأنه يعلم الصغيرة والكبيرة منها .

(٣) أما إذا أعوزتك الأمور، وأصبحت مضطراً لطلب عون من أحد، فلا تقصد إلا من يعرفك ويعترف بفضلك، وإلا فسوف تريق ماء وجهك سدى .

(٤) تنسب هذه الأبيات للإمام أبي زكريا النووي المتوفى ٦٧٦هـ.

(٥) إن القناعة هي الغنى الحق، والطمع هو الفقر، ولذلك فإن القناعة هي أساس الغنى، فأنا متمسك بأذيالها لا أبتغي بها بدلاً .

(٦) منهمك : مشغول به ومهتم . وحبي للقناعة أورثني عزة نفس، فلا أحد يراني واقفاً على بابه ألتمس منه معروفاً، ولا آخر يراني مشغولاً به، مهتماً لما سيطلبه مني .

فَصِـــرتُ غَنيّـــاً بِـــلا دِرهَـــمٍ   أَمُـرُّ عَلـى النَّـاسِ شِبـهَ المَلِـكْ[1]

الفساد الكبير[2]

فَســادٌ كبيــرٌ؛ عــالــمٌ مُتهَتِّــكٌ   وأكبــرُ منــهُ جــاهــلٌ مُتَنسِّــكُ[3]

هُمَـا فتنـةٌ فـي العـالَمِيـنَ عَظيمـةٌ   لِمَـنْ بِهِمَـا فـي دينـهِ يَتَمسَّـكُ[4]

المبارك[5]

تأدَّمُني بالزَّيتِ قالَتْ: مُبارَكٌ   وقدْ أحرَقَ الأكبادَ هذَا المُبارَكُ[6]

شقاء[7]

وَمِـــنَ الشَّقـــاوَةِ أَنْ تُحِـــبَّ   وَمَـــن تُحِـــبُّ يُحِـــبُّ غَيـــرَكَ[8]

---

(١) وبهذا الخلق الرفيع، شعرت بالغنى الحقيقي، على الرغم من أن مالي قليل، وصرت أمشي بين الناس وكأني قد ملكت كل شيء.

(٢) المجموعة المباركة للقلنقولي، ومفتاح السعادة ١/ ٣٧ دون نسبة.

(٣) إنه لفساد كبير، ومصيبة عظيمة، أن ترى عالماً يرتكب الآثام والموبقات، وأدهى من ذلك أن ترى جاهلاً لا يفقه من أمور الدين شيئاً، يظهر التنسك والعبادة والصلاح.

(٤) إن هذين الصنفين هما بلاء للعالمين وشر مستطير، فإن الذين يتمسكون بدينهم حقاً، سوف يصابون بخيبة أمل شديدة جراء ذلك.

(٥) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ١٠٢.

(٦) قدَّمت لي أمي إداماً، هو الزيت، وقالت: إنه زاد مبارك وقد أحرق الأكباد هذا المبارك من كثرة تناولي له.

(٧) آداب الشافعي ومناقبه للرازي ٢١٣، وتوالي التأسيس ٧٤.

(٨) إن غاية الشقاء للمرء، أن تحب إنساناً ويشغف قلبك به، وإذا بك تتحقق أن هذا الذي تحبه، لا يبادلك الحب بل يحب غيرك.

أَو أَنْ تُـــريـــدَ الخَيـــرَ لِــــلإِنـــ ســـانِ وَهُـــوَ يُـــريـــدُ ضَيـــرَكَ[1]

* * *

(١) وكذلك الأمر إذا أخلصت لشخصٍ، وأردت له الخير، لكنك تلمس أنه لا يريد إلا الإضرار بك.

قافية اللام

الاستخفاف بحقِّ الله تعالى[١]

لَم يبرحِ النَّاسُ حَتّى أَحدَثوا بِدَعاً ... في الدِّينِ بِالرَّأيِ لَم يُبعَثْ بِها الرُّسُلُ[٢]
حَتّى استَخَفَّ بِحَقِّ اللهِ أَكثَرُهُم ... وَفي الَّذي حُمِّلوا مِن حَقِّهِ شُغُلُ[٣]

الشَّقيُّ والسعيد[٤]

المَرءُ يَحظى ثُمَّ يَعلو ذِكرُهُ ... حَتَّى يُزَيَّنَ بِالَّذي لَم يَفعَلِ[٥]
وَتَرى الشَّقيَّ إِذا تَكامَلَ عيبُهُ ... يَشقى وَيُنحَلُ بالَّذي لم يَعمَلِ[٦]

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٧١، والبداية والنهاية ١٠/ ٢٥٤، وتاريخ دمشق ١٠/ ١٩٠.

(٢) زين لبعض الناس أن يأتوا بأشياء، ويبتكروا أموراً في الدين، لم يتحدث بها الرسل، ولم يخوضوا فيها.

(٣) حتى إن كثيراً منهم استخف بحق الله تعالى نتيجة انصرافه إلى هذه البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان، وكان الأولى بهم أن يعرفوا حقه تعالى حق المعرفة، فيشغلهم ذلك عن الانصراف لغيره من الأمور.

(٤) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٩١، وتوالي التأسيس للعسقلاني ٧٣.

(٥) ينجح بعض الناس في حياتهم، فيعلو ذكرهم، ولا يرى المحيطون بهم شيئاً من عيوبهم، حتى إن كثيراً من الأحداث والأمور تنسب إليهم، وهم لم يفعلوا شيئاً منها.

(٦) ينحل: يُرمى ويُتَّهم. أما الخائب في حياته فقد ازدادت عيوبه، وسيصبح شقياً حقاً، لا يصيب خيراً أنّى توجه، وعلى العكس من ذلك، فإن كثيراً من=

آل رسول الله ﷺ وخلفاؤه[١]

إذا نَحــنُ فَضَّلنــا عَلِيّــاً فَــإنَّنــا ... روافِضُ بِالتَّفضيلِ عِندَ ذَوي الجَهلِ[٢]

وَفَضــلُ أَبــي بَكــرٍ إِذا مــا ذَكَـرتُـهُ ... رُميتُ بِنَصبٍ عِندَ ذِكرِيَ لِلفَضلِ[٣]

فَلا زِلتُ ذا رَفضٍ وَنَصبٍ كِلاهُما ... بِحُبَّيهِما حَتّى أُوَسَّدَ في الرَّملِ[٤]

الإخوان قليل في النَّائبات[٥]

صُنِ النَّفسَ وَاحمِلها عَلى ما يَزينُها ... تَعِشْ سالِماً وَالقَولُ فيكَ جَميلُ[٦]

= المثالب والعيوب تلصق به وهو منها براء.

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٧٠، وتوالي التأسيس ٧٤، وحلية الأولياء ٩/ ١٥٢.

(٢) إن كثيراً من الجهلاء يعتقدون أن من يكرم الإمام علي ويفضله على غيره، إن كثيراً من هؤلاء يتهمونه بأنه رافضي.

(٣) بنصب: أي ناصب أهل البيت بالعداء. أما إذا ذكرت فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإني أُتهم عند هؤلاء الجهلاء بأني أناصبهم العداء وأحط من قدر علي رضي الله عنه.

(٤) أوسد: أوضع في القبر. ولا زالت هذه التهمة قائمة، هذا يتهمني بالرفض، وذاك يتهمني بالتحدي، وسوف تبقى هذه الفِرية ملتصقة بي إلى أن أفارق الحياة.

(٥) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ١٠٦، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ٢٠٥، ونسبت الأبيات للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، انظر الديوان المنسوب إليه ص ١٠٠، وروى الشريشي عن الربيع بن سليمان أنه أنشد الأبيات إنشاداً، انظر شرح المقامات ٢/ ١٣٩. الأصدقاء والخلطاء كثيرون... ولكن الإخوان الحقيقيين أقلاء.

(٦) صن: احفظ. على الإنسان أن يحفظ نفسه عن كل ما يشوّه صورتها الكريمة، وأن يسعى دائماً لتزيينها بمكارم الأخلاق، وأنبل العادات، فإن=

وَلا تُـولِيَـنَّ النَّـاسَ إِلاّ تَجَمُّـلاً نَبـا بِـكَ دَهـرٌ أَو جَفـاكَ خَليـلُ[1]

وَإِن ضاقَ رِزقُ اليَومِ فَاصبِرِ إِلى غَدٍ عَسى نَكَباتُ الدَّهرِ عَنكَ تَزولُ[2]

وَلا خَيـرَ فـي وُدِّ امـرِئٍ مُتَلَـوِّنٍ إِذا الرِّيحُ مالَت مالَ حَيثُ تَميلُ[3]

وَما أَكثَرَ الإِخوانَ حينَ تَعُدُّهُم وَلَكِنَّهُـم فـي النَّـائِبـاتِ قَليـلُ[4]

= ذلك يرفعها في أعين الناس قاطبة، ويعيش صاحبها سالماً من قالة السوء، ولا يُذكر إلا بالجميل من القول.

(١) تولين: تظهرنَّ وتبدينَّ. تجملاً: تصبراً. نبا: أصابك وجفاك. وعليه أيضاً أن يدّرع بالصبر في أحواله كلها، لأن الصبر من شيم الرجال، وهو مرّ المذاق لكنه جليل الفائدة في نهاية المطاف، ومصاحبة الصبر والتحلي به يجب أن تكون صفة ملازمة وليست شيئاً عابراً، سواء في ذلك عند مواجهة مصائب الدهر، أو جفوة من بعض الإخوان.

(٢) وأن يصبر على ضيق العيش، والإنسان معرض لمثل هذا، فالتحمل والصبر في مثل هذه المواقف من المروءة والرجولة بمكان، والضيق حالة عارضة لا تلبث أن تزول، لأن كل عسر يرافقه يسران، ولا بدّ لهذه النكبات والمصائب من الزوال، وعودة مجرى الحياة إلى ما كان عليه.

(٣) أما ذلك الإنسان الذي لا يُعرف له لون، يصحبك اليوم، ويجفوك غداً، يُظهر لك الود طوراً، والقطيعة والبعد أحياناً، يميل مع رياح الحوادث حيث تميل، إن مثل هذا الإنسان لا يؤمَن جانبه، ولا خير في مودته وصحبته، والبعد عنه ربح وغنيمة.

(٤) النائبات: الشدائد. ألا ما أكثر الأصدقاء وما أوفر عددهم حينما تحصيهم، إنهم كثر، وعددهم يفوق ما يرجوه الإنسان، ولكن هذا العدد الوفير يضمحل ويتناقص، وربما يغيب حقاً عند نزول المحن وحلول النائبات.

لا يولد المرء عالماً[1]

تَعَلَّـم فَلَيـسَ المَـرءُ يـولَـدُ عـالِمـاً وَلَيسَ أَخو عِلمٍ كَمَن هُوَ جاهِلُ[2]

وَإِنَّ كَبيـرَ القَـومِ لا عِلـمَ عِنـدَهُ صَغيرٌ إِذا التَفَّت عَلَيهِ الجَحَافِلُ[3]

وَإِنَّ صَغيـرَ القَـومِ إِن كـانَ عـالِمـاً كَبيـرٌ إِذا رُدَّت إِلَيـهِ المَحـافِـلُ[4]

ولا تَرضَ من عيشٍ بدونٍ ولا يَكُنْ نَصيبَـكَ إرثٌ قـدَّمتْـهُ الأوائِـلُ[5]

استغْن بالله[6]

إِنَّ المُلـوكَ بَـلاءٌ حَيثُمـا حَلّـوا فَلا يَكُن لَكَ في أَبوابِهِم ظِلُّ[7]

---

(١) نسب الجاحظ الأبيات لرجل من قيس ، انظر البيان والتبين ١/ ٢١٦ .

(٢) العلم نور، فتعلم أيها المرء ما يفيدك وازدد من العلم كل يوم، فالإنسان لا يولد عالماً، بل يصبح كذلك عندما يمتلك إرادة التعلم، وليست مرتبة العالم كالجاهل.

(٣) والكبير في قومه إذا لم يملك ثروة من العلم تزينه، صغير في أعين الناس، وخاصة عندما يكون في جمع من الناس ولا يستطيع أن يفيدهم بشيء.

(٤) أما صغير السن في قومه، عندما يملك علماً مفيداً، تراه كبيراً في عيون مَن يلقونه جميعاً، يأخذون منه ويحتفلون به.

(٥) وعليك أيها الإنسان الكريم ألا ترضى إلا بعيش شريف يجعلك مرموقاً بين أقرانك، ولا ترض من عيشك بما ورثته عن الآباء والأجداد، فإن ذلك لا يُغني كثيراً.

(٦) نتيجة الأفكار ١١ . من استغنى بغير الله افتقر، ومن اعتز بغير الله ذلّ.

(٧) تمسك بحبل الله تعالى وكن مستغنياً به عما في الوجود قاطبة، تكن أغنى الخلق وأسعدهم، ولا تركن إلى الوقوف بباب الملوك والأمراء، فمصاحبة الكثيرين من هؤلاء خسارة، لهذا فإن العاقل الكريم يبعد عن التفيؤ بظلال هؤلاء، ويسعى للابتعاد عنهم.

مـاذا تُـؤَمِّـلُ مِـن قَـومٍ إذا غَضِبـوا	جاروا عَلَيكَ وَإن أَرضَيتَهُم مَلّوا[1]
فَاستَغْنِ بِاللهِ عَن أَبوابِهِم كَرَماً	إِنَّ الـوقـوفَ عَلـى أَبـوابِهِـم ذُلُّ[2]

طالب الحكمة[3]

لا يُـدرِكُ الحِكمَـةَ مَـن عُمـرُهُ	يَكـدَحُ فـي مَصلَحَـةِ الأَهـلِ[4]
وَلا يَنـالُ العِلـمَ إِلاّ فَتـىً	خـالٍ مِـنَ الأَفكـارِ وَالشُّغـلِ[5]
لَـو أَنَّ لُقمـانَ الحَكيـمَ الَّـذي	سـارَت بِـهِ الـرُّكبـانُ بِـالفَضـلِ[6]

---

(١) جاروا: اعتدوا وظلموا، ملوا: سئموا وضجروا. لا يمكن الركون إليهم، والاطمئنان إلى صحبتهم فهم إن رضوا عنك وكنت طوع إرادتهم سوف يملون قربك، ولا يجدون لك في نفوسهم هيبة أو وقاراً، أما إن غضبوا فالويل لك، لأنهم سوف يصلونك من جفائهم وظلمهم ألواناً لا تقوى على تحملها والصبر عليها.

(٢) أما إن أردت الغنى الحقيقي والطمأنينة التي لا يعقبها قلق أو خوف، فعليك بلزوم باب مولاك وطلب الغنى من فضله، فهو الذي يعطي بلا حساب ولا منٍّ، وهو الذي يشعر بالعزة والكرامة كلما ازددت تذللاً وتواضعاً بين يديه، وعلى النقيض من ذلك فإن الوقوف بباب أولئك ذل ومهانة.

(٣) الكشكول ١/ ٣٠٣، ومنهاج اليقين شرح أدب الدنيا والدين ص٧٥.

(٤) إن تحصيل العلم والحكمة يحتاجان إلى ذهنٍ صاف متفرغ، أما من كان ذا عيال يكد ويكدح ليؤمن لهم حاجاتهم، فإن ذلك عسير عليه.

(٥) والعلم يتطلب ممّن يطلبه أن يكون خالي الذهن، كل همه التزود من العلم والمعرفة، بعيداً عن أن يشغل فكره ووقته في أمر آخر.

(٦) إن لقمان الحكيم، والذي يضرب به المثل في المعرفة، إن هذا الإنسان الذي تجاوزت سمعته وفضله وحكمته الآفاق، هذا الإنسان على جلال قدره.

بُلـــي بِفَقــــرٍ وَعِيـــالٍ لَمـــا فَـــرَّقَ بَيـــنَ التِّبـــنِ وَالبَقـــلِ(١)

الموت ولا الذُّلُّ(٢)

لَـــذُلُّ السُّـــؤَالِ وهَـــوْلُ المَمَـــاتِ كِـلاهُ وَجَـدْنَـاهُ طَعْـمَـاً وَبيـــلا(٣)

فَـــإنْ كـــانَ لاَ بُـــدَّ إحِـــدَاهُمـــا فَمَشْياً إلى الموتِ مَشْياً جمِيلاً(٤)

طريق المعالي(٥)

بِقَــدرِ الكَــدِّ تُكتسَــبُ المعَــالــي ومَنْ طلبَ العُلا سَهِرَ اللَّيالِي(٦)

ومَـــنْ رامَ العُـــلا مِـــنْ غيـــرِ كَـــدٍّ أضاعَ العُمرَ في طَلَبِ المُحالِ(٧)

تَـــرومُ العِـــزَّ ثُـــمَّ تَنـــامُ ليـــلاً يَغوصُ البحرَ مَنْ طَلَبَ اللآَّلي(٨)

---

(١) لو ابتلي بفقر وعسر في العيش وكثرة العيال، لكان فرداً كغيره من الناس، ولربما كان من الصعب عليه التفريق بين التبن وأنواع الخضراوات الأخرى التي يأكلها البشر.

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٤/ ٦٥، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ١١٤، وقد نسبهما صاحب الصناعتين لبشامة بن الغدير وروى البيت الأول:

هَـــوَانُ الْحَيـــاةِ وَخِـــزْيُ الْمَمـــاتِ فكُـــلاًّ أَرَاهُ طَعَـــامـــاً وَبِيَـــلا

(٣) ما أصعب أن يصل المرء إلى أن يسأل غيره ويستعطفه في كثير من أموره إن هذا الموقف من الإنسان، وهول سكرات الموت، هما في درجة واحدة.

(٤) وإن ضاقت الدنيا بالإنسان، وكان لابد له من أن يختار أحدهما، فإن المشي إلى الموت أكرم من ذل السؤال، ذاك لأن فيه راحة للكريم.

(٥) مرآة الجنان ٢/ ٢٦.

(٦) وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، فبقدر الكد والجهد اللذين يبذلهما المرء يكتسب معالي الأمور، ومن أراد العلا والرفعة، لابد له من السهر الطويل.

(٧) أما من يحلم بالحصول على الأمور النفيسة دون أن يبذل جهداً أو تعباً، فإن عمره سيضيع منه، لأنه يطلب المستحيل من الأشياء.

(٨) أيها المرء، إنك تبغي العز والسؤدد ولا تبذل في سبيل ذلك شيئاً، بل تنام=

زادني علماً بجهلي(١)

كُلَّمــــا أَدَّبَنِـــــيَ الــــدَّهـــــرُ أَرانِــــي نَقـــــصَ عَقلِــــي(٢)
وَإِذا مــــــا ازدَدتُ عِلمـــــاً زادَنــــي عِلمـــــاً بِجَهْلِــــي(٣)

آخذٌ بالفضل(٤)

على كُلِّ حالٍ أنتَ بالفَضْلِ آخذٌ وما الفَضـلُ إلا للَّـذي يَتَفضَّـلُ(٥)

مالي لا يُبلّغني فعالي(٦)

أَرَى نَفْسِــي تَتــوقُ إلــى أمُــورٍ يُقصِّــرُ دونَ مَبلَغهــنَّ مَــالــي(٧)

= قرير العين، أوما علمت أن من يطلب اللآلي، فلا بد له من غوص البحار وتحمل المشقات.

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ١٦٧، وقال: ومن الشعر المنسوب إلى الشافعي.

(٢) الحياة مدرسة وأي مدرسة، فكلما صاحبت دهري وازددت أدباً منه، أراني صورة حقيقية لنقص عقلي.

(٣) وكذلك الأمر بما لدي من علم، فإنني كلما ازددت علماً ومعرفة، أدركت مبلغ جهلي.

(٤) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ١٠٢، وحلية الأولياء ٩/ ١٥٤.

(٥) أنت يا من أخاطبه، قد حزت شرف الفضل في كل أحوالك، ولا يكون الفضل إلا لمن يبذله ويقدمه للآخرين.

(٦) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٨١، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ١١٦، ونسبهما ابن قتيبة في عيون الأخبار ١/ ٣٤٠ لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب راجع ديوانه ٦٧.

(٧) تتوق: تشتاق، مبلغهن: بلوغهن. النفس البشرية تتطلع إلى كثير من الأمور، وإن نفسي واحدة منها، فإني أطمح إلى أشياء أفعلها، وأفكار أحققها ولكن ضيق ذات اليد يحول دون ذلك.

فنفسِـي لا تطـاوِعُنـي بِبُخْـلٍ ... ومـالِـي لا يُبلِّغُنـي فَعَـالِـي[1]

لم يدر طعم الفقر[2]

لم يَدْرِ طعمَ الفَقرِ مَنْ هو في غِنىً ... ومُصحَّحُ الأعضاءِ ليسَ كَمَنْ بُلي[3]

كَـمْ فَـاقَـةٍ مَستـورةٍ بِمـروءةٍ ... وضَـرورةٍ قَـدْ غُطِّيَـتْ بِتَجمُّـلِ[4]

ويبسـمُ مَـنْ تَحتَـهُ قَلـبٌ شجـي ... قَـدْ صَـادَفَتْـهُ غُمَّـةٌ لا تَنْجَلِـي[5]

والنَّـاسُ جَمعـاً عنـدَ كُـلٍّ كُفـؤهُ ... والهمُّ مُفْتَرِقٌ وما أحلهُ خَلي[6]

---

(١) وإن نفسي الأبية لا ترضى مني أن أكون شحيحاً بخيلاً، ولكن قلة ما أملكه من المال يجعل مما أتطلع إلى تحقيقه صعباً.

(٢) ديوان الشافعي لجامعه إبراهيم هيبة طبع في القاهرة ١٣٢٦ هـ. من ذاق طعم الفقر عرفه، ومن لم يذقه فإن وصفه لا يغنيه.

(٣) بلي: ابتلي. إن الفقر مرّ المذاق، شديد الوطأة على النفس، وكاد أن يكون كفراً، والأغنياء لا يعرفون هذه المرارة، ولا يشعرون بقسوتها، كما أن صحيح الجسم، سليم الأعضاء لا يشعر بالوهن والضعف كمن ابتلي بمرض أو عاهة في جسمه.

(٤) غير أن هناك أناساً كراماً أعفة لا تشعر بفقرهم، لأن المروءة قد جعلتهم يأنفون من الشكوى وإظهار الفاقة، فهم لا يظهرون إلا كل جميل من المظهر، ولكنك لو سبرت أغوار نفوسهم لَعَلِمْتَ أنهم يسدلون على آلامهم وعوزهم أثواب التجمل والصبر، ومن غير الكريم يتخذ التجمل عدة له وشعاراً؟

(٥) شجي: حزين. إن أولئك الكرام يبسمون للناس، وكأنهم لا يحملون من الهم والضيق شيئاً، وإنّ من يخالطهم لا يشعر بشيء مما في نفوسهم، ولا يحس ما بقلوبهم التي أتعبها الهم والحزن، وهم يتجلدون لكل غُمّةٍ تعترضهم، ولا يزدادون إلا تحمّلاً وعزماً.

(٦) والناس جميعاً أكفاء متساوون في المظهر الخارجي من حياتهم، ولكن=

لو سَوَّدَ الهمُّ الملاَبِسَ لم تجدْ   بِيضَ الثِّيابِ على امرئٍ في محفَلِ[(١)]
وإذا أرادَ المـــرءُ يجلـــوُ همَّـــهُ   عن نفسِهِ مِنْ نَفسِهِ لا تَنْجَلِي[(٢)]

أعمش كحَّال[(٣)]

جــاءَ الطَّبيــبُ يَجُسُّنــي فَجَسَسْتُــهُ   فإذا الطَّبيبُ لما بِهِ مِنْ حَالْ[(٤)]
وغَــدا يُعــالِجُنــي بطُــولِ سَقَــامِــهِ   ومِنَ العَجَائِبِ أَعمشٌ كحَّالْ[(٥)]

إن ظفرت بهم[(٦)]

اسقِهِــمُ السُّــمَّ إنْ ظَفِــرْتَ بِهِــمْ   وَامزُجْ لَهُم مِنْ لِسانِكَ العَسَلا[(٧)]

وقال في أدب المجالس[(٨)]:

= الهموم والأحزان هي التي تميز بينهم وتضع كلاً في طريق مغاير للآخر.

(١) ولو أن الهم تجسد بلون أسود، وصبغ ألبسة الخلائق، كل واحد يرتدي من سود الثياب كفاء ما يحمله من الهم، عند ذلك لا ترى من يرتدي شيئاً من بيض الثياب في أي محفل من محافل القوم.

(٢) وكثيراً ما يحاول الإنسان أن يزيل همومه وأتراحه بنفسه من نفسه، ولكنه لا يستطيع ذلك في كثير من الأحيان.

(٣) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ١١٠، وإتحاف السادة المتقين ٩/ ٥٢١.

(٤) جاءني الطبيب يعالجني، فجسَّ يدي، وإذا بي أشعر أن الطبيب يشكو الذي أشكو منه.

(٥) صار يعالجني وهو يعاني من مرض يشكو منه زمناً طويلاً، ومن عجائب الدهر أن ترى كحالاً يُطبِّب عيون الآخرين، وهو عاجز عن معالجة عينيه.

(٦) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٧٦ وزاد: كان الشافعي يتمثل بهذا البيت.

(٧) إن رأيت من لا خلاق لهم، وهم من شرار الناس، فاسقهم السم إن استطعت واضبط لسانك معهم، واجعله ليناً، فالمداراة فن.

(٨) سمير المؤمنين ١٦٠.

إذا رُمتَ الدُّخولَ على أُناسٍ فكُنْ منهم بِمنزلَةِ الأقَلِّ[1]
فإن رَفعوكَ كان الفضلُ مِنهمُ وإِنْ أبقَوكَ قُلْ هَذا محلِّي[2]

* * *

(١) إذا أردت زيارة أناسٍ فكن متواضعاً معهم، وأشعرهم بأنك أقل منهم مرتبة وقدراً.

(٢) فإن قدَّرك هؤلاء الناس، ورفعوا من مقامك ومنزلك، كان ذلك فضلاً منهم وتكريماً، وإن لم يفعلوا ذلك، فقل لنفسك هذه منزلتي، وهذا هو مقامي الذي أرضى به.

قافية الميم

أأنثر دُرّاً على الغنم[1]

أَأَنْثُــرُ دُرّاً بَيْــنَ سَــارِحَــةِ النَّعَــم ... أَأَنْظِــمُ مَنثـوراً لِـراعِيَـةِ الغَنَـمِ[2]

لَئِنْ كنْتُ قد ضُيِّعتُ في شَرِّ بَلدَةٍ ... فَلَستُ مضَيِّعاً بينَهُم غُرَرَ الكَلِمْ[3]

فَــإِنْ فــرَّجَ اللهُ الكَــريــمُ بِلُطفِــهِ ... وأدرَكْتُ أَهلاً لِلعُلوم وَلِلحِكَمْ[4]

بَثَثْــتُ مُفيــداً وَاستَفَــدتُ وِدادَهُــم ... وَإِلاّ فَمَخـزُونٌ لَــدَيَّ وَمُكتَتَــمْ[5]

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٧٢، وطبقات الشافعية للسبكي ١/ ٢٩٤، وحلية الأولياء ٩/ ١٥٣. على العالم أن ينشر علمه بين الراغبين فيه، ويحجم عن الجهلاء الذين لا يُقدّرونه.

(٢) وهنا يتساءل هذا العالم الجليل مستنكراً: أيحسن بي أن أنثر ما أحمله من علم هو كالدرر لمن لا يعرف قيمته؟ أأنثره لرعاة الغنم الذين لا يعبؤون بشيء سوى مواقع الكلأ لمواشيهم؟ أم هل يجدر بي أن أنثر عقداً منظوماً لمن يرعون الجمال والشاء وغيرها من الحيوانات؟!.

(٣) لئن كان حظي أن أعيش في بلدة لا يعرف أهلها مكانتي وقدري ولا يشعرون بوجودي بينهم، إن كان الأمر كذلك، فأنا لست مجارياً لهم، فأسمعهم أدبي، وأبين لهم فقهي، لا لست كذلك.

(٤) وإذا تداركني الله تعالى بلطفه وكرمه، وفرّج ما بي، وانتقلت إلى مدينة أخرى، يعرف أهلها منزلة العلم والعلماء، فالأمر مختلف.

(٥) بثث: نشرت، مخزون: مكنون ومستور. هناك سأفيدهم مما أفادني المولى به، وأنشر بينهم من العلوم المفيدة التي في جعبتي، وبذلك تنعقد=

وَمَن مَنَحَ الجُهّالَ عِلماً أَضاعَهُ وَمَن مَنَعَ المُستَوجِبينَ فَقَد ظَلَمْ[1]

سأكتمُ عِلمِي عَنْ ذَوِي الجَهْلِ طَاقَتِي ولا أنثرُ الدُّرَّ النَّفيسَ على الغَنَمْ[2]

وكاتمُ علمِ الدِّينِ عمَّنْ يُريدُهُ يَبوءُ بإثمٍ وآثمٌ إذا كَتَمْ[3]

صاحب العلم

رَأَيتُ العِلمَ صاحِبُهُ كَريمٌ وَلَو وَلَدَتهُ آباءٌ لِئامُ[4]

وَلَيسَ يَزالُ يَرفَعُهُ إِلى أَنْ يُعَظِّمَ أَمرَهُ القَومُ الكِرامُ[5]

= صِلاتٌ وثقى بيني وبينهم، وإن لم أُرزق بمثل هؤلاء الناس، فسأخزن ما في صدري من علم وحكمة، وأكتمه إلى الساعة التي أنتظرها.

(١) المستوجبين: المستحقين. إن من يمنح علمه للجهال أو يجلس بينهم فيحادثهم، فهو يظلم نفسه، ويظلم العلم، لأن هؤلاء لا يدركون مكانة العلم والعلماء، أما من كتم علمه عن الراغبين والفضلاء المستحقين لهذه الفضائل، فإنه يظلمهم بتصرفه هذا.

(٢) النفيس: الثمين. لقد آليت على نفسي، أن أحتفظ بعلمي ومعارفي في صدري ما استطعت، طالما أني لا أجد مستحقاً لهذا الكنز، ولن أنثر هذا الدر الثمين على أناس هم كالأنعام.

(٣) أما علم الدين والتفقه فيه، فأمره أخطر من ذلك، وإن من يكتمه عن الراغبين فيه، يرتكب سوءاً عظيماً ويأثم إثماً كبيراً، لأن مثل هذا العلم يجب على العالمين به أن يبدوه، ويجهدوا في إشاعته بين الناس.

(٤) رتبة العلم أعلى الرتب، لقد رأيت أن صاحب العلم كريم ذو فضل، ولو أنه ولد من أبوين وضيعين، وقد يكون أبواه لئيمين.

(٥) ولا يزال هذا العلم يرفع منزلته ويعليها بين الخلائق، حتى يذيع أمره وينتشر، ويصبح معظماً لدى كرام القوم.

وَيَتَّبِعونَهُ في كُلِّ حالٍ كَراعي الضَّأنِ تَتبَعُهُ السَّوامُ[1]
فَلَولا العِلمُ ما سَعِدَت رِجالٌ وَلا عُرِفَ الحَلالُ وَلا الحَرامُ[2]

ثلاث مهلكات[3]

ثَلاثٌ هُنَّ مُهلِكَةُ الأَنامِ وَداعِيَةُ الصَّحيحِ إِلى السَّقامِ[4]
دَوامُ مُدامَةٍ وَدَوامُ وَطءٍ وَإِدخالُ الطَّعامِ عَلى الطَّعامِ[5]

الزّنى دَين[6]

عِفّوا تَعَفَّ نِساؤُكُم في المَحرَمِ وَتَجَنَّبوا ما لا يَليقُ بِمُسلِمِ[7]
إِنَّ الزِّنى دَينٌ فَإِنْ أَقرَضتَهُ كانَ الوَفا مِن أَهلِ بَيتِكَ فَاعلَمِ[8]

---

(١) ويكون قدوة لهم في أمرهم كله، لا يصدرون إلا عن رأيه، وهو لهم كراعي الغنم يتقدم قطيعه فيتبعونه.
(٢) العلم هو سبب سعادة الإنسان في الدارين، فلولا شرف العلم، لما سَعِدَ أناس وبلغوا قمة السعادة، ولولاه لما عرف أمر حلال من آخر حرام.
(٣) أحسن القصص ٤/ ١١٩ وهو ينقل عن الجوهر النفيس.
(٤) الاعتدال صفة محمودة، وقد ذكر أن ثلاثة أمور يجب أن يحذرها الإنسان في حياته، ليحافظ على صحته وليتجنب الأمراض.
(٥) أولها: الإدمان على تناول المسكرات، وثانيها: الإفراط في الاتصال الجنسي مع زوجه، وثالثهما: إرهاق المعدة، بأن يدخل عليها الطعام إثر الطعام بلا ضابط ولا راحة.
(٦) أحسن القصص ٤/ ١١٩ وهو ينقل عن الجوهر النفيس. ونسبت الأبيات لشريك رضي الله عنه.
(٧) الزنى من الكبائر، وعندما يلبس المرء لباس العفة ولا يتعدى حدوده، فإن نساءه ومحارمه يعفون كذلك، فعلى الإنسان تجنبه، وأن يبتعد عن كل ما لا يليق بالمسلم فعله.
(٨) وليعلم الإنسان أن الزنى كالدين تماماً، فإن أقرضته لجهة ما، كان عليك أن=

يا هاتِكاً حُرَمَ الرِّجالِ وَقاطِعاً سُبُلَ المَوَدَّةِ عِشتَ غَيرَ مُكَرَّمِ[1]
لَو كُنتَ حُرّاً مِن سُلالَةِ ماجِدٍ ما كُنتَ هَتّاكاً لِحُرمَةِ مُسلِمِ[2]
مَن يَزنِ يُزنَ بِهِ وَلَو بِجِدارِهِ إِنْ كُنتَ يا هَذا لَبيباً فَافهَمِ[3]

الغيرة على العلم[4]

وما أنا بالغَيرانِ مِنْ دونِ أَهلِهِ إذَا أنا لم أُضحَى غَيوراً على عِلمِي[5]
طبيبُ فُؤادِي مذْ ثلاثينَ حَجَّةً وصيقلُ ذِهني والمفرِّجُ عن همِّي[6]
عزيزٌ على مِثْلي إضاعَةُ مثلِهِ لما فيهِ منْ نسجٍ بديعٍ ومِنْ نَظْمِ[7]

أسباب الغنى

أَجودُ بِمَوجودٍ وَلَو بِتُّ طَاوِياً عَلى الجوعِ كَشحاً وَالحَشا يَتَأَلَّمُ[8]

= تعلم أن وفاءه سيكون من أهلك حتماً.

(١) وأنت يا من تعتدي على حرمات الناس، وتكون سبباً في قطع المودة بعملك هذا، سوف تعيش حياة نكدة لا سعادة فيها ولا كرامة.

(٢) إنك لو كنت من أحرار الخلق، وكنت من سلالة ماجدين أطهار، لم تلجأ ولم تفكر مطلقاً أن تفضح ستر مسلم هو بمثابة أخٍ لك.

(٣) إن الزاني لا يسلم من أن يقتص منه، ولو اختلفت الطرق والمسالك، فالزم أيها العاقل طريق العفة وتمسك به تعش هانئاً.

(٤) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ١٠١.

(٥) أنا لا أعد غيوراً على عرضي وأهلي إذا لم يكن لدي غيرة على العلم الذي هو أمانة في عنق النابهين من الخلائق.

(٦) إن هذا العلم كان شفاء لفؤادي منذ ثلاثين عاماً، وهو الذي كان يقدح ذهني بالأفكار السامية، وكان فوق هذا كله يفرج كربي لأنه نعم الرفيق.

(٧) إن أمثالي ممن يعرفون قيمة العلم يعز عليهم أن يضيعوه أو يفرطوا فيه، لأنه هو نسيج الحياة الراقية ومُنظِّم لشؤونها.

(٨) البخل من أقبح الصفات، لذلك فإني لا أبخل بما في يدي ولو كان قليلاً =

وَأُظْهِرُ أَسبابَ الغِنى بَينَ رِفقَتي لِيَخْفَاهُمُ حالي وَإِنّي لَمُعدَمُ[1]
وَبَينـي وَبَيـنَ اللهِ أَشكُـو فـاقَتـي حَقيقـاً فَـإِنَّ اللهَ بِـالحـالِ أَعلَـمُ[2]

لا تُطع النَّفس[3]

خَـفِ اللهَ وارجُـوهُ لِكُـلِّ عَظيمـةٍ ولا تُطِعِ النَّفسَ اللَّجوجَ فَتَنْدَمَا[4]
وكُنْ بين هاتَيْنِ مِنَ الخوفِ والرَّجا وأبشِرْ بعفوِ اللهِ إنْ كُنتَ مُسلِمَا[5]

اللَّيل والنَّهار[6]

اللَّيـلُ شَيـبٌ وَالنَّهـارُ كِـلاهُمـا فرَأسِي لِكَثْرَةِ ما تَدورُ رَحاهُما[7]

= وسأبيت جائعاً، وسأخفي ذلك في داخلي مُتحمّلاً الألم المضني.

(١) ولن أظهر لأصحابي ورفاقي إلا الغنى، وسأخفي عنهم ما أكابده من الفقر والعدم، بل سيبقى ذلك مجهولاً بالنسبة إليهم.

(٢) ولن تكون شكاتي، وإظهار ما بي من الفقر إلا لخالقي الرحيم، لأنه العالم بأحوال العباد، وهو الذي يمدهم بفضله وجوده إن شاء.

(٣) نور الأبصار ٢٢٤، والروض الفائق ١٦، وتاريخ دمشق ١٠/ ٢١٠.

(٤) ليكن خوف الله العظيم مصاحباً لك في كل حال، ولا ترجو غيره لكل أمر عظيم صعب عليك بلوغه، وإياك أن تطيع نفسك المعاندة والمتمادية فتندم.

(٥) وضع نصب عينيك دوماً الخوف والرجاء، وعليك أن تكون متطلعاً إليهما في كل حال؛ فالخوف يصرفك عن ارتكاب ما يغضب مولاك، والرجاء يجعلك متفائلاً مستبشراً على الدوام بمغفرته وإحسانه، وفي كل الأحوال كن مطمئناً إلى عفوه وإكرامه إن كنت من المسلمين.

(٦) البداية والنهاية.

(٧) الليل والنهار كالرحى تدور بالإنسان، تمرُ الأيام بسرعة فلا يشعر الإنسان إلا وقت شاب رأسه، وبدأت شعلة الحياة تخبو.

يَتَنــاهَبــانِ لُحــومَنَــا وَدِمــاءَنــا نَهبــاً عَــلانيــةً وَنَحــنُ نَــراهُمــا[1]

لقد بلوتك[2]

وَلَقَــد بَلَــوتُــكَ وَابتَلَيــتَ خَليقَتِــي وَلَقَــدْ كَفــاكَ مُعَلّمــي تَعلِيمــي[3]

الرجاء سُلَّم لِعفو الله[4]

إليــكَ إلــهَ الخلــقِ أرفــعُ رَغْبَتِــي وإنْ كُنْتُ يا ذَا المنِّ والجُودِ مُجْرِمَا[5]

وَلَمّا قَسا قَلبي وَضاقَت مَذاهِبي جَعَلتُ الرَّجَا مِنّي لِعَفوِكَ سُلَّما[6]

---

(١) إن الليل والنهار يستهلكان ما بنا من لحم وقوة، ويأخذان من دمائنا دون إذن منا ولا استئذان، ونحن نرى ذلك ولا نستطيع فعل شيء حيال هذا.

(٢) حلية الأولياء ٩/ ١٤٩، وآداب الشافعي ومناقبه للرازي ٢٧٣، ونسب هذا البيت مع أبيات أخرى للبيد، انظر الديوان ٨٣ ـ ٨٤.

(٣) خليقتي: طبيعتي وما جبلت عليه. لقد اختبرتك يا صاحبي وفي ذلك كفاية لتعليم أحدنا الآخر واختبرتني، وعرفت من طباعي الشيء الكثير، فلم تجد ضرورة لتعلمني كل ما أحتاج إليه.

(٤) طبقات الشافعية للسبكي ١/ ٢٩٦، ومناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ١١١، وتوالي التأسيس ٨٣، ومعجم الأدباء ١٧/ ٣٠٢، ومناقب الشافعي للرازي ١١٢، وآداب الشافعي ومناقبه ٧١، ونسبت الأبيات لأبي نواس، انظر بهجة المجالس ١/ ٣٧٩، ومعجم الأدباء ١٧/ ٣٠٢. المؤمن لا يقنط من رحمة ربّه أبداً، فهو دائماً يوقن بالعفو من الرحمن الرحيم.

(٥) إلهي! الخلق كلهم يعيشون حياتهم بين خوف ورجاء وأمل، فهم يتوسلون إليك لتحقق رغباتهم فيما يُؤمِّلون، إنهم يفعلون ذلك، ويلحون في طلبهم، وهم يعلمون تمام العلم أنهم مقصرون في أداء واجبات الطاعة لك.

(٦) ولما شعرت بقسوة في قلبي، ونظرت إلى ما حولي، فوجدت السبل كلها مغلقة أو ضيقة، لم أجد وسيلة أصل بها إليك إلا الرجا، الذي هو أمان للقلب وطمأنينة له، فاتخذت منه سلماً عله يوصلني إلى عفوك وصفحك. =

تَعــاظَمَنــي ذَنبــي فَلَمّــا قَــرَنتُــهُ بِعَفوِكَ رَبّي كانَ عَفوُكَ أَعظَما[1]

فَما زِلتَ ذا عَفوٍ عَنِ الذَّنبِ لَم تَزَلْ تَجــودُ وَتَعفــو مِنَّــةً وَتَكَــرُّمــا[2]

فَلَولاكَ لَم يَصمُد لِإِبليسَ عابِدٌ فَكَيفَ وَقَد أَغوى صَفِيَّكَ آدَما[3]

فَيـاليـتَ شِعـري هـل أصيـرُ لِجنَّـةٍ فَـأَهْنَـا وإِمّـا للسَّعِيـر فَـأنْـدَمَـا[4]

فإنْ تَعْفُ عنِّي تَعْفُ عَنْ مُتَمَرِّدٍ ظَلُـومٍ غَشُـومٍ لا يُـزَايـلُ مَـأثَمـا[5]

---

(١) تعاظمني: عظُم علي. نظرت إلى أعمالي، فهالني ما أحصيت منها من الذنوب، وكاد اليأس يغزو فؤادي، ولكنني عندما عدت إلى نفسي وقرنته بعفوك الواسع الذي يغمر كل شيء، هدأت نفسي، وأيقنت أن عفوك أعظم مما بدر مني، بل إن عفوك يسع العالمين أجمعين.

(٢) إنك يا مولاي الرحيم، تعفو عن ذنوب عبادك مهما تعاظمت، وهذا العفو دائم لا ينقطع فإن الجود والكرم صفتان متلازمتان لا تنفكان عن ذاتك العلية، فإنك تعفو وتجود منة وتفضلاً على عبادك المفتقرين إلى منّك وتعطفك.

(٣) أغوى: أضلَّ. فلولا تفضلك لم يستطع واحد من بني آدم أن يصمد أمام غوايات إبليس ويسلك سبيل طاعتك، ويتمسك بتعاليم الهدى التي جاء بها رسلك الكرام، كيف لا؟ وقد استطاع إبليس أن يؤثر في أبينا آدم ويجعله يخالف أمرك.

(٤) ألا ليت أحداً يستطيع أن يدخل الطمأنينة إلى قلبي فيخبرني عن مصيري هل سأسعد بجنة عرضها السموات والأرض فأكون من السعداء، وأتمتع بالهناءة والأمن، أو ـ لا سمح الله ـ سيكون مصيري النار التي أعدت للعاصين المعرضين عن ذكر الله فأكون من النادمين.

(٥) ظلوم وغشوم: ظالم. لا يزايل مأثماً: لا يترك إثماً. إلهي! إنك عفو كريم فإن تفضلت فعفوت عني، فإنك تمن على عبد لم يطع أمرك كما يجب عليه أن يؤديه بل إنه ارتكب ظلماً في حياته، وهو لا يزال يكتسب آثاماً لا يعلمها إلا أنت أيها الإله الرحيم.

وإنْ تَنْتَقِمْ مِنِّي فَلَسْتُ بآيِسٍ ولو دَخَلَتْ نَفسي بُجرمي جَهَنَّما[1]

وإنِّي لآتي الذَّنْبَ أَعرِفُ قَدرَهُ وأعلمُ أنَّ اللهَ يَعفُو تَرَحُّمَا[2]

فَلِلَّهِ دَرُّ العارِفِ النَّدْبِ إنَّهُ تَفيضُ لِفَرطِ الوَجدِ أَجفانُهُ دَما[3]

يُقيمُ إذا ما اللَّيلُ مَدَّ ظَلامَهُ عَلى نَفسِهِ مِن شِدَّةِ الخَوفِ مَأتَما[4]

فصيحاً إذا ما كانَ في ذِكرِ رَبِّهِ وَفي ما سِواهُ في الوَرى كانَ أَعجَما[5]

وَيَذكُرُ أَيّاماً مَضَت مِن شَبابِهِ وَما كانَ فيها بِالجَهالَةِ أَجرَما[6]

---

(١) ولو أنك عاملتني بعدلك، فانتقمت مني وعاقبتني بما أستحق، فلن يدخل اليأس والقنوط إلى قلبي. بل أكثر من ذلك، فإن نفسي الظالمة المجرمة، لو دخلت جهنم فسوف تبقى متطلعة إلى رحمتك وغفرانك.

(٢) أنا ـ أيها العبد ـ الضعيف أقترف الذنب وأعرف أنه عظيم لا يليق بالعبد أن يبادر به مولاه ولكن شعوراً داخلياً قوياً، يراودني بأنك ستعفو ترحماً منك وتفضلاً.

(٣) رحم الله الإنسان الذي يعرف مولاه حق المعرفة، يعرفه برّاً رحيماً غفاراً، إنه لفرط وجده ومحبته لهذا الإله الكريم، تكاد أجفانه تفيض دماً شوقاً وامتناناً.

(٤) إنه يحيي ليله قائماً متبتلاً يذكر ربه ويتذلل إليه، ويتقرب من جنابه، وكأنه يندب نفسه ويقيم لها مأتماً على ما فرّط في جنب مولاه الكريم.

(٥) ها هو ذا يُرزق الفصاحة في القول، عندما يستجدي فضل مولاه وكرمه، فلسانه لا يعجز عن الاستغفار والشكر، وكأنما تُصبّ الفصاحة عليه صباً، وفيما سوى ذلك عندما يخاطب الخلائق فكأنه يصاب بالعيّ والحصر.

(٦) ولا يزال الندم يراوده، آناً بعد آن، فهو يتذكر أيام شبابه وكيف أنه أنفق معظمها غافلاً عن ذكر مولاه وشكره، وكيف أنه كان سادراً في صحراء الجهالة والذنوب، يضرب فيها بسهام وافرة من الغواية.

فَصارَ قَرينَ الهَمِّ طُولَ نَهارِهِ أَخا السُّهدِ وَالنَّجوى إذا اللَّيلُ أَظلَما[1]
يَقولُ: حَبيبي أَنتَ سُؤلي وَبُغيَتي كَفى بِكَ لِلرَّاجينَ سُؤلاً وَمَغنَما[2]
أَلَستَ الَّذي غَذَّيتَني وَهَدَيتَني ولاَ زِلتَ مَنّاناً عَلَيَّ وَمُنعِما[3]
عَسى مَن لَهُ الإِحسانُ يَغفِرُ زَلَّتي وَيَستُرُ أَوزاري وَما قَدْ تَقَدَّما[4]

أولئك أصحابي[5]

أجاعتْهُمُ الدُّنْيا فخافُوا ولم يَزَلْ كذلكَ ذوُ التَّقوى عنِ العَيْشِ مُلجَما[6]

---

(١) السهد: السهر وعدم النوم. إن تلك الذكريات المؤلمة أورثته همّاً كبيراً، لزمه بياض نهاره، ثم لا يلبث أن يعود إليه إبان نومه ورقاده، فيحرمه الكرى، ويظل يحدث نفسه ويلومها نادماً مستغفراً.

(٢) ينادي مولاه الحبيب الرحيم: رضاك مطلوبي وغاية تضرعي، وإنك نعم المستجيب لمن يأتيك راجياً عفوك وصفحك. فإن ظفر بذلك فليس وراء ذلك من مغنم.

(٣) خالقي العظيم! ألست الذي منحني الحياة ولم أكن شيئاً مذكوراً؟ فيسرت لي سبل الحياة بما وفّرته لي من غذاء، ومهدت لي طريق السعادة الأبدية عندما مننت علي بالهداية والرشاد، ولا تزال مناناً ومتفضلاً ومنعماً عليّ، طالما امتد بي العمر إلى أن ألقى أجلي المحتوم.

(٤) أوزاري: مفردها وزر وهو الإثم والذنب. أرجو رجاء العبد الواثق من رحمة ربه وعفوه، أن تكرمني بمغفرة منك تمحو لي آثار ما زلّت به قدماي، وتستر آثامي التي ارتكبتها جهلاً وضعفاً، وأن يعم إحسانك جميع ما تقدم مني، فإنك أهل لذلك، وأنت على كل شيء قدير.

(٥) البداية والنهاية لابن كثير ١٠/ ١٤٨.

(٦) أصحابي كرام ورعون، إنهم لم يلهثوا خلف متع الدنيا، لذلك كانوا أكثر دهرهم جائعين وكذلك هم أولو الصلاح والتقوى، لا ينالون من العيش إلا القليل فهم يلجمون أنفسهم عن الانغماس في الشهوات.

أخـو طـيءٍ داودُ مِنهُـم ومُسعَـرٌ ... ومنهم وهيبٌ والعريبُ بنُ أدْهَمَا[1]

وفي ابنِ سعيدٍ قدوةُ البِرِّ والنُّهَى ... وفي الوارِثِ الفاروقِ صِدْقاً مُقدَّمَا[2]

وحسبُكَ منهم بالفُضَيْلِ معَ ابنِهِ ... ويوسفَ إنْ لم يألُ أنْ يَتَسَلَّمَا[3]

أولئكَ أصحابِي وأهـلُ مودَّتي ... فصلَّى عليهم ذو الجلال وسلَّما[4]

فمـا ضَـرَّ ذا التَّقـوى نِصَـالُ أسنَّـةٍ ... وما زالَ ذو التَّقوى أعزَّ وأكرما[5]

وما زَالتِ التَّقوى تُرِيكَ على الفَتَى ... إذا محَّضَ التَّقوى مِنَ العِزِّ مَيْسَمَا[6]

أخرج الفخر الرازي أن المزني قال: قلت للشافعي رضي الله عنه: أنت توالي أهل البيت فلو عملت في هذا الباب أبياتاً، فقال:

ومـا زالَ كتمـانِيـكَ حتَّـى كـأنَّنِي ... بِـرَدِّ جَـوابِ السَّـائِلِيـنَ لأَعْجَـمُ[7]

---

(١) مـن هـؤلاء داود أخـوطـيء، ومسعـر، ومنهـم كـذلـك وهيـب، والعريب بن أدهم.

(٢) ولك في ابن سعيد قدوة للبر والتقوى، وفي من جاء بعد الفاروق، سلوك صادق يجعل صاحبه في مقدمة الزاهدين الصادقين.

(٣) ويكفيك أن تعرف الفضيل وابنه، ويوسف إن لم يقصر في تسليم الأمور كلها لمولاه.

(٤) هؤلاء هم أصدقائي وأصحابي الذين أودهم، وأكن لهم الحب الخالص، وأدعو الله الكريم أن يرحمهم ويغفر لهم ويعلي منازلهم.

(٥) إن التقي الحق لا يضيره لسان حقود يطعن به، ويحط من قدره، لأن هذا الإنسان التقيّ أكبر وأعز من أن يهبط إلى مستوى هؤلاء المبغضين.

(٦) وإن التقوى تضفي على صاحبها عزاً وكرماً يميّزانه، فيصبح علماً من أعلام الهدى، وذلك بفضل من المولى وكرمه. والميسم: العلامة والسمة.

(٧) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٧٠، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ٥٠، وقد نسب صاحب الحلية البيتين لنصيب الشاعر وإنما تمثل الشافعي بهما، انظر حلية الأولياء.

وأكتمُ وُدّي في صَفاءِ مَوَدَّتي لتَسْلَمَ مِنْ قَوْلِ الوُشَاةِ وَأسْلَمُ

عزَّة الله العظمى[1]

بِمَوقِفِ ذُلّي دونَ عِزَّتِكَ العُظْمَى بِمَخفِيِّ سِرٍّ لا أُحيطُ بِهِ عِلْمَا[2]

بِإطراقِ رَأسي باعتِرافي بِذِلَّتي بِمَدِّ يَدي أَستَمطِرُ الجودَ وَالرُّحما[3]

بِأَسمائِكَ الحُسنى الَّتي بَعضُ وَصفِها لِعِزَّتِها يَستَغرِقُ النَّثرَ وَالنَّظما[4]

بِعَهدٍ قَديمٍ مِن: (أَلَستُ بِرَبِّكُم)؟ بِمَن كانَ مُكنوناً فَعَلَّمتَهُ الأَسما[5]

أَذِقنا شَرابَ الأُنسِ يا مَن إِذا سَقى مُحِبّاً شَراباً لا يُضامُ وَلا يَظْمَا[6]

---

(١) نور الأبصار ٢٣٩، وأحسن القصص ١/ ١٠٤ وهو ينقل عن الجوهر النفيس.

(٢) إني أقف ذليلاً خاشعاً دون عزك الذي لا يوصف، وبحقّ أسرارك التي تودعها بعض الخلائق، والتي لا نحيط بعلمها، إلا ما أذنت لنا به.

(٣) وأسألك بحقّ إطراق رأسي إجلالاً لعظمتك وهيبتك، وأسألك باعترافي بذلي أمام عزتك التي لا تُرام، وأسألك مادّاً يديّ طالباً منك الرحمة التي كتبتها على نفسك تفضلاً.

(٤) وأستعطفك بحق أسمائك الحسنى وصفاتك الفضلى، التي لا يستطيع إيفاءها حقها من البيان نثر أو نظم.

(٥) مكنوناً: مستوراً ومخفياً. وأسألك ربي بعهدك القديم عندما كنت في عالم الذّرّ، عندما قلت: (ألست بربكم)، فأجبنا طائعين: بلى. وبكل ما لم أعرف من الأسماء الشريفة.

(٦) إلهي بما قدمت من ذل وخضوع واستعطاف، أرجوك أن تذيقني من شراب أنسك، هذا الشراب الذي إذا مننت به على مخلوق، برى من الظمأ والظلم والقهر.

العلم جلاء القلوب[1]

مع العلم فاسلُكْ حيثُما سلَكَ العِلْمُ ... وعنه فسائِلْ كلَّ مَنْ عندَهُ فَهْمُ[2]

ففيه جلاءٌ للقُلوبِ مِنَ العمى ... وعَوْنٌ على الدِّينِ الَّذي أمرهُ حَتْمُ[3]

فإنِّي رأيتُ الجهلَ يُزرِي بأهلِهِ ... وذو العِلمِ في الأقوامِ يرفعُهُ العلْمُ[4]

فأيُّ رَجَاءٍ في امرئٍ شابَ رأسُهُ ... وأفنى شَبَاباً وهو مستعْجِمٌ فَدْمُ[5]

وهل أبصرَتْ عيناكَ أقبحَ منظراً ... مِنَ الشَّيبِ لا علمٌ لديهِ ولا حِلْمُ[6]

---

(١) نتيجة الأفكار (ص ٣). (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات. .).

(٢) أيها الإنسان العاقل؛ ابحث عن طريق العلم الذي ينير لك طريق حياتك، واسلكه ولا تتهاون في سبيل إدراكه، وفتش عن أهل العلم والمعرفة، والزمهم وسائلهم في كل ما لا يظهر لك منه.

(٣) ففي العلم نور كاشف، يجعل القلب مجلوّاً من الظلام الذي يغشاه ويحجب عنه كل فائدة، فكأنه الدليل الذي يأخذ بيديك إلى طريق الرشاد، وهو قبل هذا كله عون على أن يدرك المرء تعاليم دينه، الذي هو قوام حياته كلها، فبمعرفته يسلك طريق جنة الخلد.

(٤) إن العالم مكرّم في قومه رفيع القدر يشار إليه بالبنان، ويتسابق الناس لمصاحبته والاستفادة منه. أما الجهل فهو الذي يضع من مكانة أهله، فلا يقيم لهم الناس وزناً، ولا يشعرون بوجودهم، كما أنهم لا يشعرون بغيابهم إذا غابوا.

(٥) فدم: قليل الفهم، هل يرتجى من امرئ تقدّمت به السنون، واشتعل منه الرأس شيباً، هل يرجى من مثل هذا الإنسان خير؟ لقد أضاع عمره سدىً، وهو أعجم لا يفقه شيئاً مما يسمع من المعارف، فاستحق بذلك أن يكون من زمرة أولئك الذين يُصنَّفون بأنهم لا يفقهون شيئاً.

(٦) ولا أظن أن هناك منظراً يثير الاشمئزاز، ويحيطه القبح من كل جانب، أكثر=

وخالِطْ رواةَ العِلْمِ واصحَبْ خيارَهُمْ فصُحبتُهم نفعٌ وخلطَتُهم غُنْمُ[١]

ولا تعـدُوَنْ عينَـاك عَنْهُـمْ فـإنَّهُـمْ نجومُ هدًى ما مِثْلُهم في الورَى نَجْمُ[٢]

فَو اللهِ لولا العِلْمُ ما فَصَحَ الهُدَى ولا لاحَ مِنْ غَيبِ السَّماءِ لَنَا رَسْمُ[٣]

وقال رضي الله عنه مرغباً بالتجمُّل[٤]:

حَسِّنْ ثيابَكَ ما استطعتَ فإنَّها زيـنُ الـرِّجـالِ، تُعِـزُّ وتُكـرِمُ[٥]

وَدَعِ التَّخَشُّنَ في الثِّيابِ تَواضُعاً فـاللهُ يعلَـمُ مـا تُسِـرُّ وتَكْتُـمُ[٦]

فجـديـدُ ثـوبِـكَ لا يَضُـرُّكَ بعـدَمَـا تخشَـى الإلـهَ وتَتَّقِـي مـا يحْـرُمُ[٧]

= من منظر إنسان بلغ من العمر عتياً، ولكنه لا يملك شيئاً من الحلم أو العلم، إن هذا لشيء ممقوت.

(١) فعليك أيها الإنسان أن تخالط أرباب العرفان، وأن تبحث عنهم في كل مكان، وعليك أيضاً أن تختار الصالح منهم، لأن فيهم من ليسوا كذلك، فتش عن الصالحين منهم والزمهم فإن مخالطتهم ومعاشرتهم غنيمة لا تعدلها غنيمة أخرى.

(٢) إذن عليك أن تصحبهم وألا تصرف أنظارك عنهم لأنهم نجوم هداية ورشاد إلى الحق والخير، وليس لهم نظراء بين الخلائق الذين تقع عيناك عليهم.

(٣) فصح: بان ووضح، لاح: ظهر وبدا. إنني أقسم ـ صادقاً ـ أنه لولا العلم الذي امتن الله تعالى به على البشرية، لما استبان للهدى طريق في حياة الناس ولا ظهر لنا أثر امتنّ المولى به علينا من السماء.

(٤) سمير المؤمنين ١٦٠.

(٥) البس من الثياب أجملها، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، فإن الثياب الحسنة، تزين الرجال وتُضفي عليهم مظهراً من العزّ والكرامة.

(٦) ولا تتبع سبيل الخشونة في الملبس، تبغي من وراء ذلك التواضع، فالله تعالى يعلم السر وأخفى، فهو العليم بخفايا النفوس.

(٧) وإن ارتداء الثوب الجميل، وحسن منظره، لا يضرك شيئاً، إن كنت تحمل=

وَرثِيثُ ثوبِكَ لا يَزيدُكَ رِفعةً عندَ الإلهِ وأنتَ عَبدٌ مُجرِمُ[1]

وقد نسب صاحب (تحفة الأدباء وسلوة الغرباء) إلى الشافعي:

فيك انقباض[2]

يِقولونَ لي فيكَ انقباضٌ وإنَّما رَأوا رَجُلاً عنْ موقِفِ الذُّلِّ أحجَمَا[3]

أرى النَّاسَ، مَنْ داناهُمُ هانَ عندَهُم ومَنْ أكرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفسِ أكْرِمَا[4]

ولم أَقضِ حقَّ العِلمِ إنْ كانَ كُلَّما بَدَا طَمَعٌ صيَّرتُهُ لِيَ سُلَّمَا[5]

= بين جنبيك قلباً مفعماً بالتقوى، ويتجنب ما حرمه الله تعالى.

(١) رثيث ثوبك: ثيابك الرثة البالية. إن ثوبك البالي الممزق، لا يزيدك رفعة عند مولاك العليم بما تخفي الصدور إن كنت من العصاة المجرمين.

(٢) جاء في الهامش (٢٤٣) ص ٧١ التعليق الآتي: هذه القطعة لـ(علي بن عبد العزيز الجرجاني) صاحب الوساطة على شعر المتنبي، ترجمه صاحب اليتيمة وغيرها، وذكر هذه القطعة ولم أقف لأحد من المؤرخين وغيرهم على نسبتها للإمام الشافعي رضي الله عنه.
هذه القصيدة مشهورة ومعروفة للجرجاني وقد أخطأ الرحالة بنسبتها إلى الإمام الشافعي. انظر الخياري المدني، تحفة الأدباء وسلوة الغرباء ٣/ ٧١ـ ٧٢. وهامش ٧١ الذي أثبته الدكتور رجاء محمود السامرائي محقق الكتاب.

(٣) يقول أصحابي، إننا نراك في غالب أحوالك منقبضاً، لا يكاد التجهم يفارقك. والحق أنهم لو أنصفوا، لرأوا فيّ رجلاً يأنف الذل ولا يرضاه بحال.

(٤) لقد رأيت الناس أكثرهم من تقرّب منهم كثيراً وخالطهم فإنهم يستخفون به، ويهون عليهم أمره، والحقيقة أنّ من شعر بعزة نفسه وأكرمها، فإن الآخرين سيكرمونه ويعلون قدره.

(٥) وسأكون هاضماً حق العلم ومضيّعاً لمنزلته السامية، إذا صيّرته =

إذا قيلَ: هذا مَورِدٌ، قُلتُ: قَدْ أَرى	ولكنَّ نَفْسَ الحُرِّ تحتمِلُ الظَّمَا[١]
ولم أبتذلْ في خدمةِ العِلْمِ مُهجَتِي	لأخدُمَ مَنْ لاقيتُ، لكنْ لأُخْدَمَا[٢]
أأغرسُهُ عِزّاً وأجنيهِ ذِلَّةً	إذنْ فاتِّباعُ الجَهْلِ قَدْ كان أحْزَمَا[٣]
ولو أنَّ أهلَ العِلمِ صانُوهُ صانَهُم	ولو عظَّموهُ في النُّفوسِ لَعَظَّمَا[٤]
ولكنْ أهانُوهُ فهانُوا، ودنَّسُوا	مُحيَّاهُ بالأطماعِ حَتَّى تَجهَّمَا[٥]
وإنِّي لَراضٍ عَنْ فتىً مُتعفِّفٍ	يَروحُ ويغْدُو ليسَ يملِكُ دِرْهمَا[٦]

= سلَّماً أرتقي به إلى آفاق الطمع والمنافع العارضة.

(١) وإن أُغريَ بي، وقيل لي هذا مورد عذب يغنيك، أجبتهم بأنني سأنظر في الأمر، ولكن نفسي الأبية تأنف من كل ما يشينها، وتحتمل الظمأ ولا تُفرّط في الحفاظ على كبريائها.

(٢) إنني لم أبذل أغلى ما عندي، خادماً للعلم والمعرفة، لأضعه بين يدي من ألقاه، سواء كان من محبّي العلم أو ممن لا يقدِّرونه. لكنني بذلت ذلك كله لأكون موضع احترام، يتسابق الناس لخدمتي وإكرامي.

(٣) لست مستعداً أن أطلب العلم عزيزاً، مجتهداً دؤوباً، ثم أجني بعد هذا الجهد والعناء ذلاً وتزلّفاً، لو حصل ذاك مني فكان الأجدر بي أن أفضل الجهل وأسرح في جنباته.

(٤) إن من واجب العلماء أن يصونوا العلم، ويحفظوا له كرامته، إنهم إن فعلوا ذلك حفظهم وأعلى منـزلتهم، ولو أنهم عظّموه في نفوسهم لعظمهم بين الناس.

(٥) ولكنهم ـ ويا للأسف ـ أهانوه، ولم يعرفوا خطره ومكانته، فهانوا على الناس، كما أنهم شوّهوا وجهه المشرق بأطماعهم البخسة فصار عبوساً متجهّماً، وهو من كل ذلك بريء.

(٦) إن نفسي مفعمة بالرضى والحبور لمرأى ذلك الفتى المتعفف، الذي أكرم نفسه بإكرامه العلم الذي يحمله بين جنبيه، فهو يغدو ويروح عزيزاً كريماً، وقد يكون في حقيقة أمره، لا يملك ديناراً ولا درهماً.

يَبِيتُ يُراعِي النَّجْم مِنْ سُوءِ حالِهِ ... ويُصبحُ طَلْقاً ضَاحِكاً مُتبسِّمَا[1]
ولا يســألُ المثـرِيـنَ مـا بـأكفِّهــم ... ولو ماتَ جُوعاً غصَّةً وتكرُّمَا[2]
وإني إذا ما فاتنِي الأمرُ لم أَبِتْ ... أُقلِّــبُ كَفِّــي إثــرَهُ مُتَنــدِّمَــا[3]
ولكــنْ إذا مــا جَــاءَ عَفْــواً قبلتُــهُ ... وإنْ فاتَ لم أُتبِعْهُ هَلاَّ ولَيْتَما[4]

* * *

(١) هذا الفتى الأبيّ، يسهر مع النجوم مفكراً فيما هو من سوء الحال، ينتظر مخرجاً لما هو فيه، وفي الصباح تراه طلق الوجه مستبشراً، وكأنه مخلوق آخر.

(٢) إنه لا يقف بباب غني يسأله شيئاً ليصلح به حاله، مهما اشتد به الأمر، ولو أن ذلك سيسوقه إلى موت محتم، حفاظاً على كرامته.

(٣) أنا مؤمن بأن ما أخطأني من الأمر لم يكن ليصيبني، لذلك فإني لا أبيت نادماً، أقلّب كفي على أمرٍ فاتني، ولم أستطع تحقيقه.

(٤) أما إذا جاءني عفواً وتفضلاً من المولى الكريم، فإني أقبله شاكراً، ولو انصرف عني لم أكثر من قول: هلاَّ وليتما، بل سأكون راضياً بما وقع، لأن هذا قدري.

قافية النون

مناظرة[1]

تناظر الشافعي رضي الله عنه مع بشر المريسي في حضرة الرشيد، فقال بشر:

هـذَا أوانُ الشَّـدِّ فـاشتـدِّي زِيَـمْ ... قَـدْ لَفَّهـا اللَّيـلُ بسُـواقٍ حُطَـمْ

فأجابه الشافعي رضي الله عنه:

سَيعلـمُ مـا يُـريـدُ إذا التَقينَـا ... بِشـطِّ الـزَّابِ أيَّ فَتـىً أَكـوُنُ

مشيئة الله[2]

مـا شئـتَ كـانَ وإنْ لـم أشـأْ ... وما شئتُ إنْ لم تشأْ لم يَكنْ[3]

خَلقـتَ العبـادَ علـى مـا عَلمْـتَ ... ففِي العِلمِ يجري الفَتَى والمُسِنْ[4]

---

(١) حلية الأولياء: ٩/ ٨٣.

(٢) البداية والنهاية ١٠/ ٢٦٥، وطبقات الشافعية للسبكي ١/ ١٥٦، والمخلاة ٢٤٧، ومناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ١٠٩، وتوالي التأسيس للعسقلاني ٧٥، وتاريخ دمشق ١٠/ ١٩١.

(٣) إلهي! كلّ ما شئت أن يكون في الكون فهو كائن، وإن كان ذلك مخالف لمشيئتي وإرادتي، أما الذي أريده، فإن لم تكن لك مشيئة في وجوده، فلن يكون ولن يحدث أبداً.

(٤) لقد خلقت العباد بإرادتك، وعرفنا عظمتك بالتفكر في مخلوقاتك، والعلم وحده هو طريق الإنسان لمعرفة خالقه، وسننه التي أودعها في الكون.

علـى ذا مَنْنـتَ وهــذا خَـذلْـتَ وهــذا أعنْـتَ وذا لــم تُعِــنْ[1]

فَمِنهُــمْ شَقِــيٌّ ومنهُــمْ سَعيــدٌ ومنهُــم قبيــحٌ ومنهُــم حَسَــنْ[2]

أفضل العلوم[3]

كُـلُّ العُلـوم سِـوى القُـرآنِ مَشغَلَـةٌ إلاّ الحَديثَ وَإلاّ الفِقهَ في الدِّينِ[4]

العِلمُ ما كانَ فيهِ: قالَ، حَدَّثَنا وَما سِوى ذاكَ وَسواسُ الشَّياطينِ[5]

عزاء[6]

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه معزياً:

إنّـي مُعـزّيـكَ لا أنّـي عَلـى ثِقـةٍ مِنَ الخُلودِ وَلَكِنْ سُنَّةُ الدِّينِ[7]

---

(١) إنك تمنُّ على من تشاء وتغمره بفضلك ونعمك، وتحجب فضلك وعطاءك عمن لا تريد له ذلك، وكذلك فإنك أعنت أناساً وحجبت معونتك عن آخرين لحكمة لا نعلمها.

(٢) والناس بعد هذا، صنفان: شقي وسعيد، وكذلك فإن منهم القبيح في شكله وأفعاله، ومنهم الحسن في خَلْقِه وخُلُقِهِ.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ١٠/ ٢٥٤، وطبقات الشافعية للسبكي ١/ ١٥٧.

(٤) العلم الذي ينفع الإنسان ويرفعه في الدنيا والآخرة، هو العلم بالقرآن الكريم، وما يتبعه من شروح كالحديث الشريف الذي هو تفصيل لمجمله، والفقه الذي استنبطه المجتهدون من الكتاب والسنة.

(٥) العلم المفيد هو ما كان من مصادره الموثوقة، والذي يقال فيه: حدثنا فلان عن فلان... وما سوى ذلك، فقد تخالطه وسوسة الشيطان.

(٦) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٩٠، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ١٧/ ٣٠٨، وتاريخ دمشق ١٠/ ٢٠٦، ومنهاج اليقين شرح أدب الدنيا والدين ٥٦.

(٧) أنا عندما أعزّي أخاً بوفاة قريب له، لست واثقاً من أن الخلود من نصيبي، فالناس كلهم ميتون، ولكن التعزية من سنن الدين التي نؤديها.

فَمـا المُعَـزِّي بِبـاقٍ بَعـدَ صـاحِبِـهِ وَلا المُعَزَّى ، وَإِنْ عاشا إِلى حينِ[(١)]

ودُّك طالق[(٢)]

خُـذهـا إليـكَ فـإنَّ وُدَّكَ طـالِـقٌ مِنِّـي وليـسَ طَـلاقُ ذاتِ البَيْـنِ[(٣)]

فـإنِ ارْعَـوَيْـتَ فـإنَّهـا تطليقـةٌ ويَـدُومُ وُدُّكَ لـي علـى ثِنْتَيْـنِ[(٤)]

فـإنِ التَـويْـتَ شَفَعْتُهـا بِنَظيـرِهَـا ويكـونُ تَطليقَيْـنِ فـي حَيْضَيْـنِ[(٥)]

فـإذا الثَّـلاثُ أَتتـكَ منِّـي طـائِعـاً لـم تُغْـنِ عَنْـكَ ولايـةُ السَّبيبيـنِ[(٦)]

لم أرضَ أنْ أَهجُو حُصيناً وحدَهُ حتَّـى أُسَـوِّدَ وَجْـهَ كـلِّ حُصَيْـنِ[(٧)]

---

(١) إن هذا الذي يعزي صاحبه بوفاة إنسان قريب منه، لن يبقى مخلداً بعد صاحبه، وكذلك المعزَّى فالجميع أمام حقيقة الموت سواء، مهما امتد بهم العمر، وطال الزمن.

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٩٦، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ١١٧.

(٣) إني أعلمك بأن ودّك لي طالق، ولكنه طلاق يمكن إصلاحه، وعودته إلى ما كان عليه.

(٤) ارعويت: اتعظت ورجعت عن غيك. فإذا استفدت من هذا وأخذت العبرة، فإنها تطليقة واحدة، ويبقى بعدها الودّ قائم على اثنتين أخريين.

(٥) أما إذا سلكت السبيل الملتوي في المعاملة، أتبعتها بتطليقة أخرى، فتكون تطليقتين في حيضين منفصلين فلا يبقى لك عندي إلا طلقة واحدة.

(٦) وإذا أتتك التطليقة الثالثة مني، فإن الأمر لا صلاح له بعدها، ولو أنك أصبحت والياً لهاتين الكورتين من سواد الكوفة، لأن ذلك لن يفيد. السبيين: كورة من سواد الكوفة وهما سبيان الأعلى والأسفل، انظر معجم البلدان ٥/ ١٩٠.

(٧) أنا لا أرضى أن أهجو المدعو حصيناً وحده ولكنني أطلق هجائي لكل من كان على هذه الشاكلة من الخُلق والسلوك.

أمتُّ مطامعي[1]

أَمَـتُّ مَطـامِعـي فـأَرَحـتُ نَفسِـي ... فَـإِنَّ النَّفسَ مـا طَمِعَـتْ تَهـونُ[2]

وَأَحيَيْـتُ القُنُـوعَ وَكـانَ مَيْتـاً ... وفـي إِحيـائِـهِ عِـرضِـي مَصُـونُ[3]

إِذا طَمَـعٌ أَلَـمَّ بِقَلـبِ عَبـدٍ ... عَلَتـهُ مَهـانَـةٌ وَعَـلاهُ هُـونُ[4]

جنون الجنون[5]

جُنـونُـكَ مَجنـونٌ وَلَسـتَ بِـواجِـدٍ ... طَبيباً يُداوي مِن جُنونِ جُنون[6]

الحلم والأدب[7]

مـا تـمَّ حِلْـمٌ ولا عِلـمٌ بِـلا أدَبٍ ... ولا تَجـاهَـلَ فـي قَـومٍ حَليمـانِ[8]

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٦٧، وتاريخ دمشق ١٠/ ٢٠٧، وطبقات الشافعية للأسنوي ١٤، والبداية والنهاية لابن كثير ١٠/ ٢٥٤.

(٢) النفس الإنسانية كثيرة المطامع ولكني حكمت على مطامعي بالموت، وبذلك حصلت على راحة نفسية أحسد عليها، إن الجري وراء مطامع النفس يجعلها تهون على الناس.

(٣) مصون: محفوظ. ولكني بعثت في نفسي القناعة وغذيتها، بعد أن كانت ميتة، لأن إحياء القناعة وبعثها من جديد في النفس، يجعل العرض مصوناً والكرامة موفورة.

(٤) مهانة وهون بمعنى واحد وهو الذل. إن الطمع عندما يسكن قلباً، يستعبد صاحبه، فلا يقيم وزناً لكرامته، ولا يغضب لإهانات تلحق به، وفي هذا موت حقيقي للإنسان.

(٥) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٩٧ وطبقات الشافعية للسبكي ١/ ١٥٧.

(٦) إذا كان جنون المرء مجنون هو نفسه، فإنه لن يجد طبيباً مهما علا كعبه في الطب أن يداويه من جنون جنونه.

(٧) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ١٠٠، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ١١٨.

(٨) لا يكتمل علم المرء مهما تزوّد منه، ولا يعتبر حليماً مهما بلغ إلا إذا توج=

وما التَّجاهُلُ إلا ثَوْبُ ذِي دَنَسٍ وليـــسَ يلبَسُـــهُ إلا سَفيهـــانِ[1]

لا تغفل عن الإحسان[2]

إذا هَبَّـــتْ رِيـــاحُـــكَ فَـــاغتَنِمهـــا فَعُقبـــى كُـــلِّ خـــافِقَـــةٍ سُكُـــونُ[3]

وَلا تَغفَـــلْ عَـــنِ الإِحســـانِ فيهـــا فلا تَدري السُّكونُ مَتى يَكونُ[4]

وَإِنْ دَرَّتْ نِيـــاقُـــكَ فَـــاحتَلِبهـــا فَما تَدري الفَصيلُ لِمَن يَكونُ[5]

= ذلك كله بالأدب، فالأدب حلية لا يستغنى عنها بحال، ولن تجد حليمين يتخاصمان ويتشاجران في قوم.

(١) سفيهان: مفردها سفيه وهو الأحمق. أما الجهل فهو كالثوب الذي تلوث بالدنس والقذر، ولا يرغب في لبس هذا الثوب إلا السفهاء الذين لا خلاق لهم من مكارم الصفات.

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ١٠٥، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ٢٠٥، وأدب الدنيا والدين ٢٠٢، ونسبت الأبيات للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، انظر الديوان المنسوب إليه ص ١٢٢. ونسبت لابن هندو، انظر غرر الخصائص للوطواط.

(٣) إذا أقبلت عليك الدنيا وقدر لك أن تنال منها حظاً وافراً، فاغتنم ذلك واستعمله فيما ينفعك وينفع إخوانك من الناس، لأن كل هبوب من الرياح يعقبه هدوء وسكون.

(٤) وعلى هذا فعليك ألا تقصر في معروف تقدر عليه، ولا أن تتقاعس في عمل خير يُرضي المولى تعالى، إذ أنك لا تدري متى ستحرم من هذه النعم.

(٥) وإن كنت ذا نوقٍ، فاغتنم فرصة كثرة الحليب في ضروعها وأكثر منه، فإنك لا تدري لمن سيكون هذا الفصيل الذي أنجبته.

مداخل العلم[1]

أخـي لـن تَنـالَ العِلـمَ إلا بِستَّـةٍ   سَـأُنْبِيـكَ عَـنْ تَفصيلِهـا بِبَيَـانِ[2]
ذَكاءٌ، وحِرْصٌ، واجتهادٌ، وبُلغَةٌ   وصُحْبَـةُ أُستـاذٍ وطُـولُ زَمَـانِ[3]

صنت نفسي[4]

قنِعـتُ بِـالقـوتِ مِـنْ زَمـانـي   وَصُنـتُ نَفسـي عَـنِ الهَـوانِ[5]
خَـوفـاً مِـنَ النَّـاسِ أَنْ يَقـولـوا   فَضَّـلَ فُـلانـاً عَلـى فُـلانِ[6]
مَـنْ كُنـتُ عَـنْ مـالِـهِ غَنِيّـاً   فَـلا أُبـالـي إِذا جَفـانـي[7]

---

(١) مرآة الجنان ٢/ ٢٦، وهدية الأمم ١٢، ونسب في تعليم المتعلم ص١٤ إلى الإمام علي بن أبي طالب.

(٢) أيها الأخ الكريم، عليك بطلب العلم فإنه النور الذي تستضيء به، وإنك لن تملك هذا النور وتفيد منه إلا بستة أشياء، سأخبرك بها وأبينها لك.

(٣) أولها الذكاء وهو هبة من الله تعالى، ثم الحرص على طلبه والجدّ في سبيل ذلك، وبعد ذلك الاجتهاد الذي هو شرط للنجاح في كل عمل، وبعد هذا أن تطلب من العلم ما أنت بحاجة إليه من غير زيادة ولا تكلّف. ومن الأمور الهامة في هذا المجال، أن تصحب أستاذك بالتواضع والاحترام، وأخيراً فإن العلم لا يتحصل إلا في زمن طويل ومعاناة حقيقية.

(٤) المستطرف ٢/ ٥٩. الإنسان حيث يضع نفسه، فإن أكرمها كانت عزيزة وإلا فلا..

(٥) الكريم من يقنع بالقليل في سبيل عزة نفسه، لقد رضيت بالقليل ولم أطمع بالكثير، وبذلك حفظت نفسي أن تهون أو تذل أمام الآخرين.

(٦) لقد آثرت هذا الطريق، وسلكته حتى لا أسمع إنساناً يقول: إن لفلان فضلاً عليّ، فالفضل كله لله تعالى يهبه لمن يشاء من عباده.

(٧) جفاني: قاطعني وخاصمني. إنني عندما لا أطمع في مال أحد، ولا أرتجي منه نوالاً أو عطاء، فإنني أعيش حراً كريماً لا يهمني من بادرني بجفاء أو=

وَمَــــنْ رَآنــــي بِعَيــــنِ نَقــــصٍ   رَأَيتُـــــهُ بِـــــالّـــــذي رَآنــــي[1]
وَمَـــــنْ رَآنـــــي بِعَيـــــنِ تِـــــمٍّ   رَأَيتُـــــهُ كـــامِـــلَ المَعـــانِـــي[2]

احفظ لسانك[3]

قال الشافعي رضي الله عنه: كنت باليمن فقرأت على باب صنعاء أو عدن:

إِحفَــظ لِســانَــكَ أَيُّهــا الإِنســانُ   لا يَلــدَغَنَّــكَ إِنَّـــهُ ثُعبـــانُ[4]
كَم في المَقابِرِ مِنْ قَتيلِ لِسانِهِ   كـانَـت تَهـابُ لِقـاءَهُ الأَقـرانُ[5]

سوء الظَّنّ[6]

لا يَكُـــــن ظَنُّـــــكَ إِلاّ سَيِّئـــــاً   إِنَّ سوءَ الظَّنِّ مِنْ أَقوى الفِطَنْ[7]

= بُعد، بل أكون معه نِدّاً لا يفضلني بشيء.

(١) أما ذلك الذي لا يعرف قدري، ولا يرعى لي مكانة، بل يحاول أن يضع من كبريائي وعزتي، فإني لن أكون متسامحاً معه، بل سأبادله بما بدا منه نحوي.

(٢) ومن أكرمني ونظر إليَّ بعين المودة والرضا، نظرت إليه بعينٍ مماثلة، وسوف يزداد فضله لديّ، وأراه مثال الكمال الإنساني.

(٣) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٨٧.

(٤) اللسان نعمة من الله تعالى، إن عرف الإنسان كيف يستفيد منها، وهو كالثعبان المخيف إن لم يُحفظ ويُضبط.

(٥) الأقران: الأبطال. إن كثيراً من نزلاء القبور قد يكونون ضحايا لزلات لسانهم، وكانوا في حياتهم شجعاناً لا يجرؤ أحدٌ من الأقران على منازلتهم والنيل منهم.

(٦) لعل الإمام الشافعي يعني بهذا أن يكون الإنسان حذراً في تعامله مع الناس ولا يخدع بالظاهر.

(٧) لا نعتقد أن الإمام رحمه الله تعالى يعني حرفياً ما يقول، بل إنه يريد من الإنسان أن يكون حذراً وأن يكون لسوء الظن نصيب في تعامله مع الناس، ويعدّ ذلك من الذكاء.

مـا رَمـى الإنسـانَ فـي مَخمَصَـةٍ غَيرُ حُسنِ الظَّنِّ وَالقَولِ الحَسَنْ[1]

العيب فينا[2]

نَعيـبُ زَمـانَنـا وَالعَيـبُ فينـا وَمـا لِـزَمـانِنـا عَيـبٌ سِـوانَـا[3]

وَنَهجـو ذا الـزَّمـانِ بِغَيـرِ ذَنـبٍ ولَـو نَطَـقَ الـزَّمـانُ بِـهِ هَجـانـا[4]

وَلَيسَ الـذِّئـبُ يَـأكُـلُ لَحـمَ ذِئـبٍ وَيَـأكُـلُ بَعضُنـا بَعضـاً عيـانـا[5]

لَبِسْنـا للتَّخـادُعِ مُسُـوكَ ضَـانٍ فـويـلٌ للمغيـرِ إذا أَتـانَـا[6]

ديـانَتُنـا التَّصَنُّـعُ والتَّـرائـي فَنَحـنُ بِـهِ نُخـادِعُ مَـنْ يَـرانَـا[7]

---

(١) وكثيراً ما يعاني المرء من المجاعة، أو أي مأزق آخر، نتيجة حسن ظنّه بالناس، وانخداعه بمعسول الكلام الذي يصدر من مخادع.

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٨٤، وقال: الأبيات الأربعة الأولى كتبها بعض النساخ لعيون الأخبار عقب فراغه من كتاب العلم، وقد نسبت الأبيات في معجم الأدباء ١٩/ ٧ لأبي الحسن محمد بن محمد المعروف بابن لنكك البصري.

(٣) كثير من الناس يعيبون زمانهم، ويتهمونه بالمراوغة والخداع، ولو عادوا إلى الحق والصواب لوجدوا أن العيب فينا وليس للزمان يدٌ في ذلك.

(٤) ونشتم هذا الزمان ونسبّه، وهو لم يقترف ذنباً أو جريرة، إنه مظلوم في ذلك، ولو أنه أوتي طبيعة النطق لردّ علينا وهجانا بأكثر مما نهجوه.

(٥) إن الذئاب تأنف أن يأكل بعضها لحم بعض، ولكننا مع الأسف نفعل ذلك على مرأى من بعضنا ومسمع.

(٦) جعلنا أنفسنا وُدَعاء، فلبسنا ثياب الضأن زوراً وبهتاناً، والويل لنا والعذاب عندما تنكشف الحقائق ونبلغ نهاية العمر.

(٧) أصبح الرياء والمصانعة هما ديدننا الذي ارتضيناه، وقد تأصّل ذلك فينا، فأخذنا نخادع جميع من حولنا من الذين نعيش معهم.

أصبحوا مثلاً[1]

تَحَكَّموا فَاستَطالوا في تَحَكُّمِهِم ... وَعَمّا قَليلٍ كَأَنَّ الأَمرَ لَم يَكُنِ[2]

لَو أَنصَفوا أُنْصِفوا لَكِن بَغَوا فَبَغى ... عَلَيهِمُ الدَّهرُ بِالأَحزانِ وَالمِحَنِ[3]

فَأَصبَحوا وَلِسانُ الحالِ يُنشِدُهُم ... هَذا بِذاكَ وَلا عَتبٌ عَلى الزَّمَنِ[4]

يا سميع الدُّعاء[5]

يـا سَميـعَ الـدُّعـاءِ كـنْ عنـدَ ظَنّـي ... واكفِنـي مَـنْ كفَيتَـهُ الشَّـرَّ مِنّـي[6]

وَأَعِنّـي علـى رِضـاكَ وَخِـرْ لِـي ... في أُموري وَعافِني واعفُ عَنِّي[7]

---

(١) الكشكول ١/ ٣٢.

(٢) العدل أساس الملك، وأولئك أشخاص وهبهم الله تعالى الملك، فتحكموا بالناس وتمادوا في طغيانهم، وبعد فترة زال سلطانهم وكأن الأمر لم يكن بيدهم.

(٣) هؤلاء لو أنصفوا وعدلوا لكانوا ممن ذكرهم التاريخ بالإنصاف، ولكنهم اختاروا طريق البغي والظلم، فكان الدهر لهم بالمرصاد، فبغى عليهم كما بغوا، وخلّف لهم الأحزان والمصائب.

(٤) لقد أصبح حالهم بائساً، وكأنّ لسان الحال يخاطبهم قائلاً: هذا الشقاء الذي أنتم فيه، إنما هو نتيجة ما قدمتم فلا تعتبوا على الزمن، لأنه لا يبقى على حال واحدة.

(٥) بهجة المجالس ٢/ ٢٧٧، وقد نسبهما لمنصور الفقيه وللشافعي رضي الله عنه، وقال: فقد تكون لأحدهما وتمثل بها الآخر.

(٦) يا من يجيب المضطر إذا دعاه، كن عند حسن ظني بك، فإنك قلت: أنا عند حسن ظنّ عبدي بي. اصرف عني شر من صرفت شرّي عنهم، وعاملني بالمثل.

(٧) وكن عوناً لي ـ يا مولاي ـ على أن أعمل ما يرضيك عني قولاً وفعلاً، واختر=

تركوا الدُّنيا[1]

إِنَّ لِلَّـــــهِ عِبـــــاداً فُطَنـــــا ... تـرَكـوا الـدُّنيـا وَخـافـوا الفِتَنـا[2]

نَظَـــروا فيهـــا فَلَمّـــا عَلِمـــوا ... أَنَّهـــا لَيسَـــت لِحَـــيٍّ وَطَنـــا[3]

جَعَلـــوهـــا لُجَّـــةً وَاتَّخَـــذوا ... صـالِـحَ الأَعمـالِ فيهـا سُفُنـا[4]

سهرت أعين

سَهِـرَتْ أَعيـنٌ وَنـامَـت عُيـونُ ... فـي أُمـورٍ تَكـونُ أَو لا تَكـونُ[5]

فَادرَأِ الهَمَّ ما استَطَعتَ عَنِ النَّفـ ... ـسِ فَحِملانُكَ الهُمومَ جُنونُ[6]

إِنَّ رَبّـاً كَفـاكَ بِـالأَمـسِ مـاكـا ... نَ سَيَكفيـكَ فـي غَـدٍ مـا يَكـونُ[7]

= لي من أمري ما يصلحني، وامنحني الصحة والعافية واختم لي بالعفو فإنك أهل التقوى والمغفرة.

(١) مقدمة رياض الصالحين ص ٣٢ دون نسبة، وقال صاحب الكشكول ٢/ ٧٠ ومما نسب للشافعي . . .

(٢) حبّ الدنيا رأس كل خطيئة، وإن لله تعالى من عباده أناساً أذكياء، عرفوا حقيقة الدنيا فانصرفوا عنها، وخافوا من الفتن التي عمت وطغت.

(٣) أَعْمَلوا النظر والفكر فيها، فأرشدهم المنطق السليم أنها ليست دار إقامة لأحد من خلق الله تعالى، فالجميع سيرحلون عنها.

(٤) لجة: بحراً. عندما تحققوا من ذلك، جعلوها بحراً، واتخذوا من أعمالهم الصالحة سفناً للنجاة من شرورها وأخطارها فنجوا.

(٥) وساوس الشيطان، تؤرق الإنسان وتحرمه طيب المنام، وهناك عيون أخرى تنام، وذلك بسبب التفكير في أمور قد تحدث أولا تحدث، لأن المولى تعالى وحده عليم بذلك.

(٦) ادرأ: أبعد. وأنت أيها الإنسان العاقل المؤمن، أبعد الهموم عن نفسك ما استطعت، لأن حمل الهموم واجترارها قد يودي بالمرء إلى الجنون.

(٧) إن رباً كريماً تكفل برزقك وكل ما يقيم أمرك أمس؛ سيكفيك مما =

العلم يهدي(١)

إذا لم يزِدْ عِلمُ الفتى قلبَهُ هُدىً وسيرتَهُ عَدلاً وأخلاقَهُ حُسْنا(٢)

فبَشِّـــرْهُ أنَّ اللهَ أولاهُ نِقْمَـــةً يُسَاءُ بها مثلَ الَّذي عَبَدَ الوثْنَا(٣)

الكريم و اللئيم

إذا امتلأتْ أيدِي اللَّئيمِ مِنَ الغِنَى تزايَدَ كالمِرحاضِ فاحَ وأنتَنَا(٤)

وأمَّا كريمُ الأصلِ كالغُصْنِ كلمَّا تحمَّـلَ مِـنْ خيـرٍ تَـزايَـدَ وانْثَنـى(٥)

حنين إلى غزَّة(٦)

وإنِّــي لَمُشتــاقٌ إلــى أرضِ غـزَّةٍ وإنْ خانني بعدَ التَّفرُّقِ كتماني(٧)

= يطرأ عليك غداً، ويصلح شأنك كله.

(١) حاشية الصاوي.

(٢) العلم نور وهدىً، فإذا كان العلم الذي يحمله الفتى لا يزيد قلبه تقى وصلاحاً، ولم يجعل سيرته عدلاً ومثالاً يحتذى، ويزينه بأخلاق فاضلة كريمة.

(٣) الوثْن: الأصنام. مفرده الوَثَن. جديرٌ بهذا الإنسان أن يُبَشَّر بأنه غير مرضيّ عنه من خالقه جلّ وعلا، بل إن هذا العلم نقمة عليه، ومَثُله في الآخرة مثل الذي عبد الأوثان.

(٤) اللؤم من أقبح الصفات، واللئيم إذا أيسر وكثر ماله، وبلغ النهاية من دنيء الصفات، أصبح ينشر رائحة منتنة كالتي تصدر عن الكنيف.

(٥) أما كريم الأصل، وعريق النسب، فإنه كالغصن الرطيب، كلما كثر ثمره، ازداد تواضعاً.

(٦) توالي التأسيس ٧٣.

(٧) المرء يحنّ دائماً إلى مسقط رأسه، وإني لفي شوقٍ شديد إلى أرض غزة، إذ إنّ هذا الكتمان لم يعد يفيدني بعد هذا التفرق.

سقى اللهُ أرضاً لو ظفرتُ بِتُربِها كَحَلتُ بِهِ مِنْ شِدَّةِ الشَّوقِ أجْفانِي(١)

المنَّة

رَأَيتُكَ تَكويني بِمِيسَمِ مِنَّةٍ كَأَنَّكَ كُنتَ الأَصلَ في يَومِ تَكويني(٢)

فَدَعني مِنَ المَنِّ الوَخيمِ فَلُقمَةٌ مِنَ العَيشِ تكفيني إِلى يَومِ تَكفيني(٣)

ضعفتُ عن الأنين(٤)

أقولُ لِعائدِي وشجَّعُوني وغرَّهُم فُتورُ حُمَّى جبينِي(٥)

سَأَصبِرُ لِلحِمامِ وَقَد أَتاني وَإِلاّ فَهُوَ آتٍ بَعدَ حينِ(٦)

---

(١) أسأل المولى القدير، أن يديم عليها سحائب خيره، وإني لو قدر لي أن أرى ترابها لاتخذت من هذا التراب كحلاً، أكحل به أجفاني لشدة حبي لها.

(٢) تكويني الأولى بمعنى تؤذيني وتحرقني، والثانية بمعنى: خلقي من التكوين. لا تبالغ في الإساءة إليّ، وتحرقني بالآلة التي تُحَمّيها فتؤذي بها جلدي، وهل تظنّ أنك كنت سبباً في مجيئي إلى هذا العالم. والميسم: العلامة والسمة. واسم للآلة التي يوسم بها كالمكواة.

(٣) الوخيم: المؤذي، تكفيني الأولى: من الكفاية، والثانية: من الكفن. اعفني من منّك وأبعده عني، فإن المنّ يحبط المعروف، واعلم علم اليقين بأن لقمة من مصدر شريف تكفيني، حتى أفارق هذه الحياة، وأُلفَّ بالكفن.

(٤) معجم الأدباء ١٩/ ٢٥٩، وبهجة المجالس ١/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤. الصّبر على الشدائد والمرض من شيم الرجال..

(٥) يعودُني الزائرون ليخفّفوا عني وطأة المرض، ويخاطبوني بكلمات تبعث فيّ الشجاعة والأمل، ولقد غرّهم أن جبيني أصابه شيء من الفتور فظنوا الأمر سهلاً.

(٦) إنني أستمد الصبر من خالقي، وسألقى الموت إن كان قُدِّرَ لي الآن على ما أنا عليه، وإلا تكن منيتي الآن، فسوف تكون في غد قريب، لأن الموت سيزور كل مخلوق لا محالة.

وَإِنْ أَسلَـمْ يَمُـتْ قَبلـي حَبيـبٌ ... وَمَـوتُ أَحِبَّتي قَبلي يَسـونـي[1]
تَعـزُّوا بـالتَّصبُّـرِ عـنْ أخيكُـم ... فَضَجُّـوا بـالبُكـاءِ ووَدَّعـونِـي[2]
فلـم أدعِ الأنيـنَ لقـلِّ سُقْمِـي ... ولكنِّـي ضَعُفْـتُ عـنِ الأنيـنِ[3]
وفـي تَـركِ الأنيـنِ لكُـم دليـلٌ ... علـى ضـدِّ الَّـذي أوهمتُمُـونِـي[4]

نصيحة[5]

إِذا رُمتَ أَن تَحيا سَليماً مِنَ الرَّدى ... وَدينُكَ مَوفورٌ وَعِرضُكَ صَيِّنُ[6]
فَـلا يَنطِقَـنْ مِنـكَ اللِّسـانُ بِسَـوأَةٍ ... فَكُلُّكَ سَوءاتٌ وَلِلنَّاسِ أَلسُنُ[7]
وَعاشِرْ بِمَعروفٍ وَسامِحْ مَنِ اعتَدى ... وَدافِعْ وَلَكِنْ بِالَّتي هِيَ أَحسَنُ[8]

---

(١) وإنْ منَّ الله عليّ بالشفاء، فسأفجع بموت أحباء لي، وموت الأحبة من المصائب التي تحيل حياة الإنسان شقاء وبؤساً.

(٢) ولما قلت لهم، عليكم أن تتحملوا مفارقتي لكم، والانتقال إلى الحياة الأخرى، ضجوا بالبكاء والعويل، ثم لم يلبثوا أن ودّعوني.

(٣) وعند ذلك لم أطق أن أصدر أنيناً، وليس ذلك لأني تماثلت للشفاء، ولكن نفسي المريضة عجزت أن تصدر الأنين لتُعلم من حولي بأني أتوجع.

(٤) إني إذا تركت الأنين والشكوى، فليس ذلك دليلاً على الصحة والسلامة، ولكنه نذير بأن الذي أوهمتموني به من السلامة سرابٌ وليس حقيقة.

(٥) المخلاة: ١٣٠، ونتيجة الأفكار ١٢، وقد نسبت الأبيات لابن الرومي.

(٦) صين: محفوظ. إذا رغبت أيها الإنسان، أن تعيش حياة هانئة، لا يعكر صفوها شيء، وأردت أن تكون عقيدتك سليمة نقية، وعرضك مصان من كلّ ما يخدشه.

(٧) فعليك أولاً أن تحفظ لسانك من ذكر سوءات الناس، وذلك لأن فيك مساوئ ومعايب لا تُحصى، والألسن التي تحيط بك حادة لا ترحم.

(٨) ولتكن معاشرة الخلق بالمعروف هي شعارك، واجعل التسامح ديدناً لك، وتحمّل شيئاً من عداوة الناس، ومع ذلك دافع عن نفسك وكرامتك، ولكن=

وَعَينـاكَ إنْ أَبـدَتْ إلَيـكَ مَعَـايبـاً ... لِقَولٍ فَقُلْ يا عَينُ لِلناسِ أَعيُنُ[1]

يا جامع المال[2]

يا جامِعَ المالِ تَرجُو أنْ تفوزَ بهِ ... كُلْ ما أَكَلْتَ وقَدِّمْ للمَوَازِينِ[3]

ولا تكنْ كالَّذي قَدْ قال إذْ حضَرَتْ ... وَفاتُه: ثلثُ مالِي للمساكينِ[4]

العزُّ الزَّائل[5]

يـا مَـنْ تعـزَّزَ بـالـدُّنيـا وَزِينَتِهـا ... الدَّهرُ يأتي على المبنِيِّ والبَاني[6]

ومَـنْ يكُـنْ عِـزُّهُ الـدُّنيـا وزينتَهـا ... فَعِـزُّهُ عـن قليـلٍ زائـلٌ فـانـي[7]

واعلمْ بأنَّ كنوزَ الأرضِ مِنْ ذَهَبٍ ... فاجعلْ كُنُوزَكَ مِنْ بِرٍّ وإيمانِ[8]

= بطريقة حسنة لا تجعلك بغيضاً في أعين الناس.

(١) وتعهد عينيك بألا تبدي لك المعايب، وتخفي المحاسن، ازجرها وخاطبها قائلاً: لست وحدك التي تبصرين، فللناس أيضاً أعين يرون بها معايبي.

(٢) نتيجة الأفكار.

(٣) ليس المال دائماً نعمة، فأنت يا من تجمع المال، وترجو أن تفوز به من كل سبيل، هلاّ عدت إلى صوابك، كُلْ واشرب من غير سرف، وقدّم شيئاً بين يديك لتكون في ميزان حسناتك يوم القيامة.

(٤) ولا تكن بخيلاً به، حريصاً عليه، كالذي يوصي إذا حضرته الوفاة، قائلاً لورثته: وزعوا ثلث مالي للمساكين. وهل يضمن المرء ما سيفعله الورثة؟.

(٥) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٨٩.

(٦) الدنيا ليست دار بقاء، وأنت يا من يغتر بها، ويؤخذ بما فيها من متع، اعلم حق اليقين، أنّ تعاقب الأيام لا يُبقي أحداً من الذين بنوا وشادوا، كما أنه يُفني البناء أيضاً، فلا يُبقي منه شيئاً.

(٧) ومن جعل عزه في الدنيا وزخارفها، فإن هذا العز، وهذه النعم المغرية، عما قريب ستفنى وتزول، وتصبح أثراً بعد حين.

(٨) إن وجه الأرض تراب، وكنوز الذهب دفينة فيها، أما أنت فاجعل كنوزك =

وكتب رجل رقعة يستفتي بها الشافعي رضي الله عنه[١] :

مـاذَا تقـولُ هـداكَ اللهُ فـي رَجُـلٍ أَمْسىَ يُحِبُّ عَجُوزاً بِنْتَ تِسعينِ

فأجابه الشافعي رضي الله عنه :

نَبْكِـي عليـهِ فَقَـدْ حَـقَّ البُكـاءُ لَـهُ حُبُّ العَجوزِ بِتَركِ الخُرَّدِ العِينِ[٢]

لبَّيك يا كرمي[٣]

ولـو تُنـازِعُنـي كَفِّـي إلـى خُلُـقٍ يُزرِي لقلتُ لها : أَلقيهِ أو بيني[٤]

خيمي كريمٌ ونفسي لا تُحدِّثُني أنَّ الإلـهَ بـلا رزقٍ يُخلِّينـي[٥]

= مزيداً من البرّ والتقوى ، وتوج ذلك كله بإيمان متين يُرضي ربّ العالمين .

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٩٤ .

(٢) الخرد : الأبكار العين . ذوات العيون السوداء الواسعة . إن هذا الذي اختار أن يعشق امرأة في التسعين من عمرها ، هو جدير أن نحزن عليه ونبكي ، لأنه ترك محبة الصبايا الحسان ، وانصرف إلى تلك التي شابت وهرمت .

(٣) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٢٢٧ . الجود خصلة يحبها الله تعالى والخلق أجمعون . .

(٤) يزري : يسيء . بيني : ابعدي . الطبيعة السوية في الإنسان تهوى الفضائل ، وعلى رأس هذه الفضائل الجود ، فلو أن كفي غالبتني ودعتني إلى خلق ذميم والبخل في مقدمتها ، لقلت لها تنحي عن هذا الخلق وانبذيه وإلاَّ تفعلي ذلك ففارقيني وابعدي عني ، فأنت لست مني .

(٥) خيمي : طبعي وسجيتي . جبلني الله تعالى على خلق كريم ، وحَبَّب إلي الجود والبذل إلى كل من هو بحاجة إليه ، فكوني معي على وفاق لسلوك هذا السبيل ، أما الفقر وفقد المال ، فذاك ما هو بعيد عن خاطري ، لأني أعتقد جازماً أن المولى الكريم ، لن يتخلى عني ويحبس عني الرزق ويدعني هائماً مهملاً .

هذا وما زالَ مالِي مِنْ أذى طمعٍ ومِنْ ملامةِ أهلِ اللَّومِ يُغرينِي[1]
بل ما اشتريتُ بمالي قَطُّ مَحْمَدَةً إلا تيقَّنْتُ أنِّي غَيرُ مغبونِ[2]
ولا دُعيتُ إلى مجدٍ ومَكرُمةٍ إلا أجبتُ: ألا مَنْ ذا يُنادينِي[3]
لبَّيكَ يا كرمِي لبَّيكَ ثانيةً لبَّيكَ ثالثةً مِنْ حيثُ تدْعُونِي[4]
واللهِ لو كرِهَتْ نفسِي مُساعَدَتِي لَقُلْتُ للكفِّ بينِي إذ كَرِهْتينِي[5]

* * *

(١) على الرغم من كرمي وثقتي برزق الله، إلا أن مالي يحاول إغرائي بجمعه وتكثيره، ويخوّفني من إنفاقه وتتعرض نفسي للوم الناس على ذلك.

(٢) مغبون: مظلوم. ولكني مهما أنفقت من مال ابتغاء رضوان الله تعالى، والسير في طرق الغايات الحميدة، إلا تيقنت أنّ الإنفاق ليس خسارة، وأني في تصرفي هذا غير مظلوم، بل أنا الرابح حقاً.

(٣) وإن دعا الداعي إلى فعل المكرمات، واكتساب الأمجاد التي تسطر في صحائف الإنسان أسرعت ولبيت من يناديني، وكنت سباقاً في الحصول على قصب السبق.

(٤) أنا أحبّ كرمي الذي يحث نفسي دائماً وأبداً على العطاء، ويُبغِّضُ إليّ البخل والإمساك، فحبّاً وكرامة، وتلبية بعد تلبية لندائك السامي.

(٥) وختاماً، فإني أقسم مخلصاً، لو أن نفسي التي بين جنبي، أحجمت عن مساعدتي على تحقيق خلق العطاء، لخاطبت كفي الباخلة قائلاً، انفصلي عني، لأن الكره فرّق بيننا فأنت في وادٍ وأنا في واد آخر.

قافية الهاء

السَّفيه والفقيه[1]

ومنــزلــةُ السَّفيــهِ مِــنَ الفَقيــهِ   كمَنــزلــةِ الفَقِيــهِ مِــنَ السَّفيــهِ[2]
فهــذا زاهِــدٌ فــي عِلْــمِ هــذَا   وهــذَا فيــهِ أزهــدُ منــهُ فيــهِ[3]
إذا غَلَــبَ الشَّقــاءُ علــى سَفيــهٍ   تنطَّــعَ فــي مُخــالفَــةِ الفقيــهِ[4]

عندك الإسلام والعافية[5]

لا تــأسَ فــي الــدُّنيــا علــى فــائــتٍ   وعنــدكَ الإســلامُ والعــافيَــهْ[6]

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٩٧، وتوالي التأسيس ١٤٣، وطبقات الشافعية للسبكي ١/ ١٥٩.

(٢) إن الأحمق في هذه الدنيا، ينظر إلى العالم الفقيه نظرة بعيدة عن الاحترام والتقدير، وبالمقابل فإن العالم الفقيه ينظر إلى هذا السفيه النظرة نفسها.

(٣) فالجاهل الأحمق يستغني عن فقه العالم، ولا يهتم به، وكذلك العالم فإنه أكثر غناء عن ذلك الجاهل.

(٤) تنطع: بالغ. أما إذا ازداد شقاء السفيه وجهله، فإنه يتصدى لمجابهة هذا الفقيه، ويمعن في الجدال والنقد، جهلاً وسفاهة.

(٥) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٦٦، ومناقب الشافعي للرازي ١١٢، وتاريخ دمشق ١٠/ ٢٠٧.

(٦) الدنيا كثيرة مباهجها، متنوعة مفاتنها، وقد لا يستطيع امرؤ أن يتمتّع بالكثير منها، فإن كان الأمر كذلك، فاحرص على ألا تحزن على شيء فاتك منها، طالما ملكت الإسلام، وتمتعت بالعافية.

إن فـاتَ أمـرٌ كنـتَ تسعـى لـهُ ففيهمـا مِـنْ فـائـتٍ كـافِيَـهْ[1]

أعرض عن الجاهل

أَعـرِضْ عَـنِ الجـاهِـلِ السَّفيـهِ فَكُـلُّ مـا قـالَ فَهُـوَ فيـهِ[2]
مـا ضَـرَّ بَحـرَ الفُـراتِ يَـومـاً أنْ خاضَ بَعضُ الكِلابِ فيهِ[3]

عيادة المريض[4]

مَـرِضَ الحبيـبُ فعُـدتُـهُ فمـرضـتُ مِـنْ حَـذَرِي عليـهْ[5]
وَأَتـى الحبيـبُ يَعـودُنـي فبـرئـتُ مِـنْ نَظَـرِي إليـهْ[6]

روى الفخر الرازي قال: جاء رجل برقعة مكتوب فيها[7]:

رجـلٌ مـاتَ وخلَّـفَ رَجُـلاً ابـنُ عـمٍّ ابـنِ أخِـي عـمٍّ أبيـهِ

---

(١) إن لم تستطع بلوغ أمر كنت تسعى إليه وتحرص على بلوغه، ففي سعيك له، وعدم تمكنك منه عافية لك، فالغيب لا يعلمه إلا الله تعالى.

(٢) كثيراً ما يتعرض السفهاء والجهلاء لذوي الفضل، فيبدون لهم ما لا يليق بمكانتهم، فإن حدث ذلك لك مع واحد من هؤلاء، فأعرض عنه، واعلم أن ما نطق به من القبيح هو من صفاته.

(٣) وتذكر أن نهر الفرات العظيم، بأمواجه المتلاطمة، يغوص فيه كلب يريد أن يعكر مياهه ولكن أنّى له هذا، وذلك مثل هذا الجاهل الأحمق.

(٤) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٩٣.

(٥) إن مرض من تحب يجعلك حزيناً، وقد مرض من أحبه فذهبت لزيارته، وإذا بي أشعر بالمرض، لشدة خوفي عليه والحذر من أن يصاب بمكروه.

(٦) وعندما مرضت زارني من أحب، وسرعان ما شعرت بالراحة والبرء وذلك عندما نظرت إلى وجهه، وسعدت بلقائه.

(٧) مناقب الشافعي للفخر الرازي ٢٣. والرجل الذي ورث هو والد المتوفى.

فأجاب الشافعي رضي الله عنه في الحال فقال:

صارَ مالُ المُتَوفَّى كامِلاً ... باجتماعِ القَولِ لا مِرْيَةَ فيهِ

للَّذي أخبرَ عنهُ أنَّهُ ... ابنُ عمٍّ ابنِ أخِي عمٍّ أبيهِ

سأترك حبَّكم[1]

سأتركُ حبَّكُمْ مِنْ غيرِ بُغضٍ ... وذاكَ لكثرةِ الشُّركاءِ فيهِ[2]

إذا سقطَ الذّبابُ على طعامٍ ... رَفعْتُ يدِي ونفسِي تَشتهيهِ[3]

وتَجتَنِبُ الأسودُ ورودَ ماءٍ ... إذا كانَ الكلابُ ولَغْنَ فيهِ[4]

إذا شَرِبَ الأسد مِنْ خَلفِ كلبٍ ... فها ذاكَ الأسد لا خيرَ فيهِ[5]

ويرتجعُ الكريمُ خميصَ بَطْنٍ ... ولا يَرضى مُساهمةَ السَّفيهِ[6]

---

(١) منهاج اليقين شرح أدب الدنيا والدين، والمستطرف ٢/ ٢١١.

(٢) سأنصرف عن حبكم لا عن بغض وكراهية، ولكني نظرت فوجدت كثيراً من الناس يشاركونني هذا الحبّ، وأنا لا أستطيع تحمل ذلك.

(٣) وإني إذا كنت جائعاً أرغب في طعام وأشتهيه، غير أني إذا شاهدت الذباب يحط على هذا الطعام، ويفسده بتكاثره عليه، عند ذلك أنصرف عنه، وأنا في أشد الحاجة إليه.

(٤) وكذلك السباع فإنها تتجنب الإقبال على ماء لتشرب منه، إذا علمت أن الكلاب قد شربت منه.

(٥) أما إذا نسي الأسد مكانته وشرب من ماء سبقه إليه كلب، فاعلم أن هذا السبع لا خير فيه، وصار في منزلة الحيوانات الأخرى.

(٦) إن الكريم من الناس، يتحمل الجوع والظمأ، ويتصبر ويبالغ في ذلك، ولا يرضى مشاركة السفيه في طعامه وشرابه.

اكتبوا الدَّين[١]

أَنلْنِـي بـالَّـذي استقـرضـتَ خطَّـاً وَأَشْهِـدْ مَعشـراً قـد شـاهـدُوهُ[٢]

فــإنَّ اللهَ خـــلاَّقَ البَـــرايـــا عَنَـتْ لجـلالِ هَيبتِـهِ الـوُجـوهُ[٣]

يقــولُ: «إذا تَــدايَنْتُــم بِـدَيْــنٍ إلـى أَجـلٍ مُسَمّـىً فَـاكتُبـوهُ»[٤]

عمدة الخير[٥]

عُمــدةُ الخيــرِ عِنْــدَنــا كلمــاتٌ أَرْبَــعٌ قــالَهُــنَّ خيــرُ البــريَّــه[٦]

اتَّــقِ المُشبهــاتِ وازهــدْ ودعْ مــا ليــسَ يعنيــكَ واعْملَــنَّ بِنِيَّــه[٧]

---

(١) البرهان في علوم القرآن ١/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣ .

(٢) العلاقات الموثّقة بين الناس ضمان لعدم الوقوع في الخلاف، فإذا استقرضتُ منك شيئاً من المال فاكتبه بيدك، وأَشهدْ على ذلك معشراً من الناس الذين حضروا.

(٣) فإن الله العظيم، الذي خلق الخلائق كلها، وذَلّت لجبروته الوجوه جميعاً.

(٤) هذا الخالق العظيم يرشدنا إلى هذا السبيل بقوله: «إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه».

(٥) معاهدة التنصيص ٤/ ١٨٦ .

(٦) أعمدة الخير عندنا ـ نحن المسلمين ـ هي كلمات أربع نطق بها رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى.

(٧) أول هذه الكلمات: الابتعاد عن الأمور المشتبهة وهي التي ليس فيها حكم صريح، والثانية: الزهد في الدنيا؛ لأن في الزهد راحة للمؤمن، والثالثة: هي ترك ما لا يعنيك من القول أو العمل، فإن في ذلك عزاً وكرامة، وأما الرابعة وهي أجلّ ما فيهن، ألا وهي النية، لأن الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى.

حشو الكلام[1]

لا خَيـــرَ فـــي حَشـــوِ الكَـــلامِ ... إِذا اهتَـــدَيـــتَ إِلـــى عُيـــونِـــهِ[2]

وَالصَّمـــتُ أَجمَـــلُ بِـــالفَتـــى ... مِـــن مَنطِـــقٍ فـــي غَيـــرِ حينِـــهِ[3]

وَعَلـــى الفَتـــى لِطِبـــاعِـــهِ ... سِمَـــةٌ تَلـــوحُ عَلـــى جَبينِـــهِ[4]

مَـــن ذا الَّـــذي يَخفـــى عَلَيـــكَ ... إِذا نَظَـــرتَ إِلـــى خَـــدينِـــهِ[5]

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٨٨، وتوالي التأسيس ٧٣، ونسبت الأبيات لأبي العتاهية، انظر ديوانه ٤٠٣ بتحقيق الدكتور المرحوم شكري فيصل، وبهجة المجالس ٢/ ٢٥٥ وقد زاد بيتين:

رُبَّ امْـــــرِىءٍ مُتَيَقّـــــنٍ ... غَلَـــبَ الشَّقـــاءُ عَلَـــى يقِينِـــهْ

فَـــأَزَالَـــهُ عَـــنْ رَأْيِـــهِ ... وابْتَـــاعَ دُنْيَـــاهُ بِـــدِينِـــهْ

إن من الكلام ما هو كالدرر، ومنه كالحجارة أو أقل . . .

(٢) وهبنا خالقنا تعالى نعمة النطق، لنذكره ونتذكر نعمهُ وآلاءه، والكلام المفيد هو الذي يجعل لحياة الفرد والجماعة معنى سامياً، أما حشو الكلام وسقطه فلا خير فيه ولا غناء.

(٣) إذا لم يكن للمقال مناسبة، ولم يكن به من فائدة، فما الجدوى من شقشقة اللسان، والتبجح في الألفاظ دون أن يكون لها فائدة ترتجى، فالصمت في هذا المقام ربح وسموّ.

(٤) والفتى النبيه ذو السجايا الراقية، والطباع المحمودة، يلوح ذلك على مظهره كله، وتستطيع أن ترى ذلك كضوء لامع يشع من جبينه دالاً عليه.

(٥) خدينه: صاحبه وقرينه. وأنى لك أن تعرف طباع من تصاحبه؟! إن الفطن الذكي يستدل على ذلك من أقرانه، فإن كانوا فضلاء فهو مثلهم، وإن كانوا غير ذلك فهو شبههم أيضاً، لأن الصاحب ساحب، وكل قرين بالمقارن يقتدي.

ارجعْ إلى ربّ العباد[1]

زِنْ مَنْ يَزِنْكَ بِما اتَّزَنْتَ ... وَما يَزِنْكَ بِهِ فَزِنْهُ[2]

مَن جا إلَيكَ فَرُحْ إلَيهِ ... وَمَنْ جَفاكَ فَصُدَّ عَنهُ[3]

مَن ظَنَّ أَنَّكَ دونَهُ ... فَاتْرُك هَواهُ إذَنْ وَهِنْهُ[4]

وَارجِع إلى رَبِّ العِبادِ ... فكُلُّ ما يَأتيكَ مِنْهُ[5]

عمر الفتى[6]

واحسرةً للفَتى ساعةً ... يَعيشُها بَعْدَ أَوَدَّائهِ[7]

عُمرُ الفَتى لو كانَ في كَفِّهِ ... رَمَى بِهِ بَعدَ أَحبَّائِهِ[8]

---

(١) نور الأبصار ٢١٤، والمخلاة ١٣٧، وكذلك ذكر الأبيات صاحب غرر الخصائص.

(٢) انظر بعين الاحترام والتقدير للذي يُعطيك قدرك، وانظر إلى الناس كما ينظرون إليك، وزنهم بنفس الميزان الذي يزنونك به.

(٣) من جاء متودداً إليك، فاذهب إليه وبادله الودّ بالودّ، ومن صدّ عنك وأظهر لك الجفاء فأعرض عنه ولا تلتفت إليه.

(٤) ومن نظر إليك نظرة دونية ووضع نفسه في مرتبة أعلى منك، فانصرف عنه ولا تخطب وده، وبادله الشعور نفسه.

(٥) ارجع في أمرك كله إلى الله تعالى، الذي بيده الملك والأمر، فهو الذي يقدر لك الخير ويجعل قلوب الخلق تميل إليك، ولا يغب ذلك عنك أبداً.

(٦) الإمام الشافعي للأستاذ عبد الحليم الجندي ٦٤.

(٧) أودّائه: جمع وديد وهو الصاحب. ينعم الإنسان بالحياة، ويشعر بجمالها عندما يكون مع أصدقائه وأحبائه، وإذا ما فارقوه، فوا حسرتاه له.

(٨) لو كان الأمر بيده لقضى على نفسه بالموت بعدهم، ولكن الموت والحياة بيد الله تعالى، وإليه يرجع الأمر كله.

الصبر على الأحبَّاء[1]

مَـــنْ يَتَمَـــنَّ العُمــرَ فَليـــدَّرِعْ صَبــراً علـــى أحبَّـــائـــهِ[2]
وَمـــنْ يُعَمَّـــرْ يلـــقَ فـــي نفســـهِ مَـــا يَتمنَّـــاهُ لأعـــدائِـــهِ[3]

الشَّيب نذير الفناء[4]

خَبَتْ نارُ نَفسي بِاشتِعالِ مَفارِقي وَأَظلَـمَ لَيلي إِذ أَضـاءَ شِهـابُهـا[5]
أَيا بومَةً قَد عَشَّشَت فَوقَ هامَتي عَلى الرَّغمِ مِنّي حينَ طارَ غُرابُها[6]

---

(١) جاء في تاريخ اربل ١/٢٢٨: وأنشدني أبو الرضا أحمد الموصلي.. وذكر أنهما للشافعي.

(٢) فليدرع: يجعل الصبر درعاً له. إذا أراد الإنسان أن ينعم بحياة هادئة رغيدة، فليتخذ الصبر درعاً وملاذاً له.

(٣) ومن كتب له طول البقاء يهرم وتتوالى عليه النوائب، عند ذلك يتمنى لنفسه ما يتمناه الإنسان عادة لأعدائه، ألا وهو الموت.

(٤) قال ابن المستوفي في تاريخ اربل ١/ ٢٨٣ في ترجمة أبي العباس أحمد بن أحمد بن عبد العزيز ابن الحسن: فأنشدني.. والأبيات منسوبة إلى الإمام الشافعي رحمه الله فنبهته على ذلك ونبهه من حضر غيري وكررنا عليه ذلك فأصر أن الشعر له وأنه عمله مذ اثني عشر سنة هكذا. مختصر تذكرة القرطبي ١٦، وانظر الفتوحات الوهبية ٢٥١، وشذرات الذهب ٢/ ٩٠. الشيب زائر يزور الناس بلا إذن، وهو بمثابة رسول يحمل رسالة، فيبلغها بأمانة.

(٥) خبت النار: أطفئت. المفرق: وسط الرأس. وحين غزا البياض مفرق الرأس، خمدت نار الشباب والحماسة في نفسي، وشعرت بالكمد والظلمة عندما أضاء الشيب بنوره وأخذ يتسلل رويداً رويداً.

(٦) أيها الشيب! إنك أشبه بطائر البومة، طاب لها العيش فوق رأسي دون إذنٍ مني ولا رضىً، وقد تجرأت على ذلك عندما انصرف الغراب. ويقصد سواد الشعر.

رَأَيتِ خَرابَ العُمرِ مِنّي فَزُرتِني ... وَمَأواكِ مِن كُلِّ الدِّيارِ خَرابُها[1]
أَأَنعَمُ عَيشاً بَعدَ ما حَلَّ عارِضِي ... طَلائِعُ شَيبٍ لَيسَ يُغني خِضابُها[2]
وعِـزَّةُ عُمـرِ المـرءِ قبـلَ مشيبــهِ ... وَقدْ فَنِيَتْ نفسٌ تَولَّى شبابُها[3]
إذا اصفَرَّ لَونُ المَرءِ وَابيَضَّ شَعرُهُ ... تَنَغَّـصَ مِـن أَيّـامِـهِ مُستَطـابُهـا[4]
فَـدَعْ عَنـكَ سَـوآتِ الأُمـورِ فَـإِنَّهـا ... حَرامٌ عَلى نَفسِ التَّقيِّ ارتِكابُها[5]
وَأَدِّ زَكــاةَ الجــاهِ وَاعلَـم بِـأَنَّهـا ... كَمِثلِ زَكاةِ المالِ تَمَّ نِصابُها[6]
وَأَحسِنْ إِلى الأَحرارِ تَملِكْ رِقابَهُم ... فَخَيرُ تِجاراتِ الكِرامِ اكتِسابُها[7]

---

(١) وكأن هذا الطائر المشؤوم قد رأى الخراب يدب في عمري، فطابت له الزيارة، وهو في كل الأحوال لا يرتاد إلا الأماكن الخربة.

(٢) العارض: صفحة الخد. فهل يطيب لي عيش بعد أن غزت طلائع الشيب صفحتَي خدّي، هذه الطلائع التي لا يغني معها خضاب مهما أتقن صنعه.

(٣) إنني أقول مقالة صدق: عزة المرء وعنفوانه في شبابه، أما عندما تبدأ معالم الشيب في الظهور فإن ذلك إيذان بالفناء والزوال.

(٤) تنغص: تكدر وساء. ويظل الإنسان متفائلاً نشيطاً طالما كان يرفل في ثياب الشباب، أما حين يصفر لونه ويبيض شعره، فإنه يعدم ذلك التفاؤل والنشاط اللذين كانا يغمرانه، وتبدأ منغصات الأيام تتوالى عليه.

(٥) سوءات الأمور: قبيحها وساقطها. وإذا كان الأمر كما ذكرنا فاترك ـ أيها العاقل ـ منذ اللحظة الساقط من الأمور والسيِّئ من الأفعال، إذ إنها محرمة على نفس التقي، الذي يحاسب نفسه، ويرجو لها النجاة يوم نشر الصحائف.

(٦) وإن كنت ممن حباه الله تعالى بجاه، فاعلم أن هذا كالمال الذي يجب عليك أداء الزكاة فيه، فبادر إلى أداء هذه الفريضة، وإلا فإنك لن تكون من الشاكرين لهذه النعمة.

(٧) وخير سبيل للإنسان في هذه الحياة، هو اصطناع المعروف، وخاصة مع =

وَلا تَمشِيَنْ في مَنكِبِ الأَرضِ فاخِراً ... فَعَمّا قَليلٍ يَحتَويكَ تُرابُها[1]
وَمَن يَذُقِ الدُّنيا فَإِنّي طَعِمْتُها ... وَسيقَ إِلَينا عَذبُها وَعَذابُها[2]
فَلَم أَرَها إِلاّ غُروراً وَباطِلاً ... كَما لاحَ في ظَهرِ الفَلاةِ سَرابُها[3]
وَما هِيَ إِلاّ جِيفَةٌ مُستَحيلَةٌ ... عَلَيها كِلابٌ هَمُّهُنَّ اجتِذابُها[4]
فَإِنْ تَجتَنِبْها كُنتَ سِلْماً لأَهلِها ... وَإِن تَجتَذِبْها نازَعَتْكَ كِلابُها[5]
فَطوبى لِنَفسٍ أُولِعَت قَعرَ دارِها ... مُغَلَّقَةَ الأَبوابِ مُرخَىً حِجابُها[6]

= الأحرار الذين يقدرون ذلك حق قدره، وبذلك تملك القلوب وتربح النفوس الكريمة، وهما من الغنائم التي لا تُقَدَّر.

(١) يحتويك: يضمك. وإياك أن تختال في الأرض مرحاً متفاخراً، فمصيرك ـ مهما طال بك العمر ـ أن تستقر في بطنها ولا يبقى منك بعد ذلك سوى الذكر الحسن.

(٢) عذبها: ما طاب ولَذَّ منها، عذابها: مرها وما ساء منها. لقد ذقت في حياتي السعادة والحزن، والقوة والضعف، ولم يبق منها شيءٌ إلا وقد خبرته.

(٣) الفلاة: الصحراء الواسعة. السراب: ما يحسبه الظمآن ماء في منتصف النهار. وبعد هذا كله، ترسخت لدي قناعة تامة، هي أن الحياة الدنيا في كثير من جوانبها غرور باطل، وهي كالسراب الذي يلوح للمسافر في الصحراء يحسبه ماء، ولكنه وهم لا يلبث أن يزول.

(٤) اجتذابها: الجذب الشد والمنازعة، والجر. وأكثر من ذلك فإني أشبهها بجيفة نتنة، تجمع الكلاب حولها من كل حدب، كل كلبٍ منها ينافس الآخر على الظفر بقطعة منها.

(٥) تجتنبها: تبتعد عنها وتتجنبها. نازعتك: خاصمتك. نصيحتي ـ أيها العاقل ـ ألا تتعلق بها، وتنازع مَن حولك مِن أجلها، فإن أعرضت عنها أحبك الناس وكانوا سلماً لك، وإلا فإنهم أعداء لك.

(٦) أولعت: لزمت. وبعد هذا الذي عرفتُ من أمر الدنيا والناس اللاهثين =

فَلَنْ تَخرَبَ الدُّنيا بموتِ شِرارِهَا　　ولكنْ بموتِ الأكرَمِينَ خَرابُها[1]

التَّرفُّع[2]

إذا سَبَّنـي نَـذلٌ تَـزايَـدْتُ رِفعَـةً　　وَما العَيبُ إلاّ أن أكونَ مُسابِبُه[3]

وَلَو لَم تَكنْ نَفسي عَلَيَّ عَزيزَةً　　لَمَكَّنتُها مِن كُلِّ نَذلٍ تُحارِبُه[4]

وَلَو أَنَّني أَسْعى لِنَفعي وَجَدْتَني　　كَثيرَ التَّواني لِلَّذي أَنا طالِبُه[5]

وَلَكِنَّـني أَسعـى لأَنفَـعَ صـاحِبـي　　وَعارٌ عَلى الشَّبْعانِ إنْ جاعَ صاحِبُه[6]

= وراءها، أزمعت أن أرضى بعيش متواضع، لا مجال للمنافسة فيه، وأن أغلق بابي وأعيش ناعم البال مطمئن النفس.

(١) فاللاهثين وراء هذه الجيفة وجودهم وعدمهم في الدنيا سواء، أما الذين حصلوا على المكانة الرفيعة بين الناس بسبب تعففهم عنها، تهتز الدنيا لفقدهم.

(٢) أحسن القصص: ٤/١٠٦. الكريم إذا شتمه إنسان يربأ بنفسه أن يرد عليه...

(٣) فإذا شتمني لئيم وتمادى في غيّه، ازددت رفعة واحتقاراً له، وليس عيباً مني ألاّ أرد عليه، أو أجاريه في سلوكه.

(٤) والنفس العزيزة أرفع من أن تهبط إلى مستوى أولئك المنبوذين، ولولا عزة النفس لهيأت لكل واحد من أولئك الأشرار ما يناسبه، ولكني أُعرض عنهم ترفّعاً.

(٥) والمنفعة الشخصية ليست همي الأول في الحياة، ولو كان ذلك مطلبي لوجدتني زاهداً في ذلك وكأنني لا أريده.

(٦) غير أن منفعة صاحبي وخيره هما مسعاي في هذه الدار، ومن العار أن تكون متخماً منعماً وصاحبك يتخبط في مستنقع البؤس والشقاء.

غنيٌّ بلا مال[1]

بلَـوْتُ بَنـي الـدُّنيـا فَلَـم أَرَ فيهُـمُ ... سِوى مَن غَدا وَالبُخلُ مِلءَ إِهابِهِ[2]

فَجَرَّدْتُ مِن غِمدِ القَناعَةِ صارِماً ... قَطَعـتُ رَجـائي مِنهُـمُ بِـذُبـابِـهِ[3]

فَـلا ذا يَـرانـي واقِفـاً فـي طَـريقِـهِ ... وَلا ذا يَراني قاعِداً عِندَ بابِهِ[4]

غَنـيٌّ بِـلا مـالٍ عَنِ النَّـاسِ كُلِّهِـم ... وَلَيسَ الغِنى إِلاَّ عَنِ الشَّيءِ لا بِهِ[5]

إِذا ما ظالِمٌ استَحسَنَ الظُّلمَ مَذهَباً ... وَلَـجَّ عُتُـوّاً فـي قَبيـحِ اِكتِسـابِـهِ[6]

---

(١) المستطرف ٢/٥٩ وتنسب الأبيات لـ (محرز بن خلف) وهو من علماء تونس وكانت وفاته ٤١٣ هـ. ليس الغنى عن كثرة المال، ولكن الغنى غنى النفس . . .

(٢) الإهاب: الجلد الذي لم يدبغ. لقد خبرت هذه الدنيا التي هي معاش للخلائق فما رأيت من الكرام إلا القليل أما الكثرة الكاثرة فهم أولئك الذين سرى البخل في أجسادهم، وكأنه أصبح كجلدهم الذي لا يفارقهم.

(٣) ذباب السيف: حد السيف وأطرافه. فأشهرت سيف القناعة من غمده وقطعت بحدِّه كل رجاء يأتيني من الناس حتى لا تحدثني نفسي بطلب شيء من أحدهم.

(٤) فأصبحت كريماً لا يمكن لأحد من أولئك الذين يحرصون على الدنيا أن يراني واقفاً في طريقه طامعاً في نواله أو يجدني جالساً عند بابه أبتغي منه معروفاً.

(٥) الغنى يكون عن الشيء وليس به. أنا أشعر بالغنى الذي لا يوصف لأنني قطعت الأمل من المخلوقين، والغنى الحق هو أن تستطيع الترفع عن طلب أي شيء مهما بلغ، لا أن تعيش لاهثاً في طلبه.

(٦) العتو: التجبر والمبالغة في ارتكاب المعاصي. وهؤلاء الظالمون الذين جمعوا الأموال من أي وجه وأخذوا يعيثون في الأرض فساداً وبالغوا في الطغيان وفي كسب المال من الحرام.

فَكِلْهُ إِلى صَرْفِ اللَّيالي فَإِنَّها ... سَتُبدي لَهُ ما لَم يَكُن في حِسابِهِ[1]
فَكَم قَد رَأَينا ظالِماً مُتَمَرِّداً ... يرى النَّجمَ تيهاً تَحتَ ظِلِّ رِكابِهِ[2]
فَعَمَّا قَليلٍ وَهُوَ في غَفَلاتِهِ ... أَناخَتْ صُروفُ الحادِثاتِ بِبابِهِ[3]
فَأَصبَحَ لا مالٌ وَلا جاهٌ يُرتَجى ... وَلا حَسَناتٌ تَلتَقي في كِتابِهِ[4]
وَجُوزِيَ بِالأَمرِ الَّذي كانَ فاعِلاً ... وَصَبَّ عَلَيهِ اللهُ سَوطَ عَذابِهِ[5]

سوء الإنصاف[6]

وحدّث ياقوت الحموي بإسناد رفعه إلى ابن عمر الشافعي قال: كان لأبي عبد الله الشافعي امرأة تزوجها من قريش بمكة وكان يمازحها ويقول:

---

(١) صرف الليالي: حوادثها ومصائبها. لا بدَّ أن المولى تعالى سوف يحاسبهم بما يبعثه عليهم من مصائب الدهر التي لا يمكن دفعها لأنها من جنس أعمالهم وسيلقى المتكبرون مالم يضعوه في حسبانهم.

(٢) تيهاً: تكبراً وتجبراً. والأيام ترينا نماذج كثيرة من هؤلاء لقد كان واحدهم يختال متمرداً، فيرى نفسه من شدة تكبره أرفع مكانةً من النجوم التي في السماء.

(٣) أناخت: بركت وجلست وحلّت. وبينما هو غارق في ضلاله وتيهه وفساده، غافل عما ستأتي به الأيام، إذ بالمصائب والنكبات قد حلّت به، فوقف عاجزاً لا يستطيع حراكاً من هول ما يجد.

(٤) وكانت عاقبته أن غدا صفر اليدين، لا مال ولا ثروة، ولا جاه ولا سلطان، والأسوأ من هذا كله، أنه لا يملك من صالح الأعمال شيئاً ينقذه مما آل إليه حاله.

(٥) سوط عذابه: أشد العذاب. لقد كان جزاؤه وفاقاً لما قدمته يداه، إذ لم يكن شاكراً للنعمة والجاه اللذين أنعم الله تعالى بهما عليه، بل كان جاحداً لها، فاستحق من المولى العادل سوط عذاب وبئس المصير.

(٦) معجم الأدباء ياقوت الحموي ١٧/ ٣٠٨، حلية الأولياء ٩/ ١٥٣.

وَمِــــــنَ البَلِيَّــــــةِ أنْ تُحِـ ـــبَّ ولا يُحِبُّـكَ مَـنْ تُحِبُّـهْ[1]

فتردُّ عليه بقولها:

وَيَصُــــدُّ عنــكَ بـــوجهِــهِ وتُلِــحُّ أنــتَ فــلا تُغِبُّــهْ[2]

آداب التَّعلُّم[3]

تَصَبَّرْ عَلـى مُرِّ الجَفـا مِـنْ مُعَلِّـمٍ فَإِنَّ رُسوبَ العِلمِ في نَفَراتِهِ[4]

وَمَـن لَـم يَـذُقْ مُـرَّ التَّعَلُّـمِ سـاعَـةً تَجَرَّعَ ذُلَّ الجَهلِ طولَ حَياتِهِ[5]

وَمَـن فـاتَـهُ التَعليـمُ وَقـتَ شَبـابِـهِ فَكَبِّـر عَلَيـهِ أَربَعـاً لِـوَفـاتِـهِ[6]

---

(١) المصيبة الكبرى التي قد تُصيب الإنسان؛ أن يُبتلى بحب شخص ما وهو يعلم علم اليقين أن هذا الشخص لا يُكنّ له شيئاً من المودة.

(٢) ومما يزيد الأمر صعوبة أن ينصرف عنك بوجهه ولا يبالي بك، بينما تبقى مُلحاً على لقائه ومودته، ولا تستطيع الابتعاد عنه.

(٣) شذرات درِّية وفؤائد لؤلؤية؛ مخطوط في الظاهرية قسم الأدب ص ٣٣٠. اثنان لا يتعلمان: مُستحٍ ومُتكبر.

(٤) نفراته: جمع نفرة وهي غضبه وزجره... يا من تريد التزود من العلم وأن تزيح عن نفسك غشاوة الجهل، ما عليك إلا أن تتخذ الصبر ممن تتعلم منه عدة وشعاراً، فإنك قد تلقى منه في بعض حالاته جفاء وقسوة، ولكن هذه القسوة وهذا الجفاء، تكونان من أسباب رسوخ ما تتلقاه وتثبيته.

(٥) تجرع: شرب. إن الإنسان الأنوف، والذي لا يتدرّع بالصبر على مرارة التعلم ساعة، سوف يبقى متجرعاً كؤوس الجهل، وقداح التخلف طول حياته.

(٦) وعلى العاقل أن يغتنم سنّ الشباب، فيتزود بالعلم ويغترف من مناهل العرفان ما أمكنه، وإن من يغفل عن ذلك، فهو بمثابة الأموات، الذين تكبر الخلائق أربعاً لوفاتهم.

حيـاةُ الفَتـى وَاللهِ بِـالعِلـمِ وَالتُّقـى ... إذا لَـم يَكـونـا لا اعتِبـارَ لِـذاتِـهِ[1]

القُضاة[2]

قُضـاةُ الـدَّهـرِ قـد ضَلُّـوا ... فقـدْ بـانَـتْ خَسـارَتُهُـمْ[3]

فبَـاعُـوا الـدِّيـنَ بـالـدُّنيـا ... فَمَـا رَبِحَـتْ تِجـارَتُهُـمْ[4]

التَّسامح[5]

مـن نـالَ منِّـي أَوْ عَلِقْـتُ بِـذِمَّتِـهِ ... أَبـرأتُـهُ للهِ شَـاكِـرَ مِنَّتِـهْ[6]

أَأُرى مُعَـوِّقَ مُـؤمـنٍ يـومَ الجـزَا ... أَوْ أنْ أسوءَ مُحَمَّداً في أمَّتِهْ؟[7]

---

(١) وجوهر المقال ـ علم الله تعالى ـ أن كيان الإنسان لا يستقيم إلا بالعلم والتقى فالعلم ينير له الطريق ويرشده إلى الصواب، والتقى يقربه من الخالق جلَّ وعلا، ومن افتقدهما كان كالمفتقد لذاته والمضيّع لها.

(٢) عن المجموعة المباركة وخزينة الأسرار للنازلي.

(٣) عندما ينحرف قضاة الدهر، عن إحقاق الحقّ، يضلون، وتبدو خسارتهم للعيان.

(٤) ذلك أنهم باعوا دينهم بدنياهم، ومن فعل ذلك، فإن تجارته خاسرة لا محالة، وسيلقى جزاءه في محكمة قاضيها رب العالمين.

(٥) شذرات الذهب لابن العماد الأصفهاني ٢/ ١١.

(٦) من نالني بسوء بلسانه أو فعله، فإني أسامحه، مسقطاً حقي في ذلك، أمام الله تعالى، وإني أبادله الشكر.

(٧) ولن أكون عائقاً في طريق مؤمن يوم الحساب، ليقُتصّ منه بسببي، لأني حريص على ألاَّ أسوء نبينا محمداً ﷺ في أحد من أمته.

حديث الضَّيف[1]

مــاذا يُخَبِّــرُ ضَيــفُ بَيتِــكَ أَهلَــهُ ... إِنْ سِيْلَ كَيفَ مَعادُهُ وَمَعاجُهُ[2]

أيَقولُ جاوَزتُ الفُراتَ وَلَم أَنَلْ ... رِيّاً لَدَيهِ وَقَد طَغَتْ أَمواجُهُ[3]

وَرَقيتُ في دَرَجِ العُلا فَتَضايَقَتْ ... عَمَّــا أُريــدُ شِعــابُــهُ وَفِجــاجُــهُ[4]

ولَتُخبِــرَنَّ خَصــاصَتــي بِتَمَلُّقــي ... وَالماءُ يُخبِرُ عَن قَذاهُ زُجاجُهُ[5]

---

(١) وفيات الأعيان ٣/ ٣٠٨، وقد علق عليه الأستاذ إحسان عباس بقوله: لم ترد الأبيات في المختار وحاش لله أن ينسب مثل هذا الشعر للإمام الشافعي أو غيره من أئمة المسلمين، وقد أنشده ابن السمعاني في المذيل لشخص يعرف بكنية غريبة لا أستحضرها الآن وَرَدَ على حضرة الصاحب بن عباد فلم ير منه براً فكتب إليه فجاءه واعتذر إليه وبره.

(٢) معاجه: مقامه. إذا جاءك ضيف فأقام عندك، ثم عاد إلى أهله وسئل عن نمط حياتك ومقامك.

(٣) ترى هل سيصفك بالبخل، فيقول لقد مررت بإنسان ذي مال كثير، لكنني لم أفد منه شيئاً، وكأنني جاوزت نهر الفرات ولم أستطع الحصول على شربة ماء منه.

(٤) شعابه: مفرده شعب وهو الطريق إلى الجبل. فجاجه: مفرده فجوة وهي الفتحة والمتسع بين الشيئين. ولقد بلغت من العلا درجات، ولكنه لم يبتهج لذلك، بل ضاق بي ذرعاً، وكأنما ضاقت سبله ومسالكه عن استيعاب ما وصلت إليه.

(٥) خصاصتي: الخصاصة. الفقر والحاجة. قذاه: القذى ما يقع في الماء والعين ويأتي بمعنى العيب. وهل أن فقري سيخبرُ بما يبدو عليّ من تملق وتقرب منه، فإن الماء يظهر ما فيه من عيب وشوائب من خلال الزجاج الذي يضمه.

عِنـدي يَـواقيـتُ القَـريـضِ وَدُرُّهُ وَعَلَـيَّ إِكليـلُ الكَـلامِ وَتـاجُـهُ[1]

تَـربـى عَلـى رَوضِ الـرُّبـا أَزهـارُهُ وَيَرُفُّ في نادِي النَّدى ديباجُهُ[2]

وَالشّـاعِـرُ المِنطيـقُ أَسـوَدُ سـالِـخٌ وَالشِّعـرُ مِنـهُ لُعـابُـهُ وَمُجـاجُـهُ[3]

وَعَـداوَةُ الشُّعَـراءِ داءٌ مُعضِـلٌ وَلَقَد يَهونُ عَلى الكَريمِ عِلاجُهُ[4]

الأوجه الكالحة[5]

أُقسِـمُ بـاللهِ لَـرَضْـخُ النَّـوى وشُـربُ مَـاءِ القُلُـبِ المـالِحَـهْ[6]

أَحسَـنُ بـالإنسـانِ مِـنْ حِـرْصِـهِ وَمِـنْ سُؤَالِ الأوجُـهِ الكَـالِحَـهْ[7]

---

(١) لقد وهبني الله تعالى شعراً كأنه الدر والياقوت، وغمرني بفضله إذ أحاطني بإكليل من الحفظ والرعاية.

(٢) الرُّبا: المرتفع من الأرض. إن هذا الشعر يربو ويرتفع في رياض المعرفة كالأزهار الفواحة، وهو يخفق في أندية المعالي، خفاقة أنسجته الملونة.

(٣) أسود سالخ: الثعبان الخارج من جلده. مجاجه: الريق الذي تمجه من فمك. أما ذلك الشاعر البليغ فكأنه ثعبان أسود انسلخ من جلده، وبدأ ينفث من شعره ما يشبه السمّ الزعاف.

(٤) وعداوة الشعراء مرض يصعب مداواته من قبل الكثيرين، لكن الإنسان الكريم يستطيع أن يجد علاجاً لهذا المرض العضال، فيستطيع مداراة الشعراء وإتقاء عداوتهم بشيء من الحكمة.

(٥) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٦٥، ومناقب الشافعي للرازي ٩٩.

(٦) رضخ النوى: كسره لاستخراج ما في قلبه من نسغ. القُلُب: جمع قليب وهو البئر. طلاقة الوجه نعمة لكل إنسان، وإني أقسم أن كسر النوى لاستخراج ما فيه من نسغ، وشرب مياه آبار مالحة لا تسيغها النفوس بحال.

(٧) إن هذين الأمرين أهون على الإنسان من أن يوصف بالحرص والبخل، أو من أن يمد يده ليطلب معونة من إنسان كالح الوجه، مقطب الجبين.

الوحدة خير[1]

إِذا لَـم أَجِـد خِـلاً نَقِيّـاً فَـوِحـدَتـي أَلَذُّ وَأَشهى مِن غَوِيٍّ أُعاشِرُه[2]
وَأَجلِـسُ وَحـدي لِلعِبـادَةِ آمِنـاً أَقَرُّ لِعَيني مِن جَليسٍ أُحاذِرُه[3]

احذر الناس

كُـنْ سَـائـراً فـي ذَا الـزَّمـانِ بِسَيـرِهِ وَعَنِ الوَرَىَ كُنْ رَاهِباً في دَيْرِهِ[4]
واغسِلْ يديكَ مِنَ الزَّمانِ وأهلِهِ واحْذرْ مَودَّتَهُمْ تَنَلْ مِنْ خَيرِهِ[5]
إِنيِّ اطَّلعْتُ فلَمْ أَجِدْ لِيَ صَاحِباً أصحَبُهُ في الدَّهرِ وَلا في غَيْرِهِ[6]
فَتـركـتُ أَسفَلَهُـمْ لِكَثـرةِ شَـرِّهِ وتَـركـتُ أعـلاهُـم لِقلَّـةِ خَيـرِهِ[7]

---

(١) نور الأبصار ٢٣٦، وأحسن القصص ٤/ ١١٩، وغرر الخصائص ٤٦٢.
(٢) الإنسان اجتماعي بطبعه، يحب معاشرة الإخوان، وإني إذا لم أجد صديقاً طاهراً صدوقاً أكون معه، فإن وحدتي عند ذاك ألذّ وأكبر من صحبة امرئ ضال.
(٣) وإن جلوسي وحيداً، أتعبد مولاي وخالقي، أدعى لسرور قلبي وانشراحه، من المكوث مع جليس أحذره ويحذرني، فلا يأمن أحدنا صاحبه.
(٤) قيل قديماً: حسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة. الإنسان اجتماعي بطبعه، ولا بد له من معاشرة من حوله والتعامل معهم لكن عندما يفسد الزمان، وينحرف معظم أهله، فالحذر عندها واجب. في مثل هذا الزمن على المرء أن يسير بتؤدة وحذر، وأن يبتعد عن كثير من البشر، وأن يكون كالراهب الذي يعيش منفرداً في الدّير.
(٥) وقد يحسن بك ألاّ ترجو خيراً من أحدهم، واجتنب عدم إظهار الود لهم تعش بسلامة وأمان.
(٦) لقد خبرت الكثيرين، وكانت لي معهم تجارب ومواقف، فلم أجد ـ ويا للأسف ـ صاحباً أركن إليه، فأمحضه الود، وأبادله الإخلاص.
(٧) لذلك فقد ابتعدت عن الأدنين منهم، وذلك لأن أذى هؤلاء وشرهم، =

العاقل الورع[1]

والمَـرءُ إِنْ كـانَ عـاقِـلاً وَرِعـاً يَشْغَلُـهُ عَـن عُيُـوبِهِـم وَرَعُـهْ[2]
كَمـا العَليـلُ السَّقيـمُ يَشْغَلُـهُ عـنْ وَجَـعِ النَّـاسِ وَجَعُـهْ[3]

الرَّأي[4]

لا تُعْطِيَـنَّ الـرَّأْيَ مَـنْ لا يُـرِيـدُهُ فَلا أَنتَ مَحمودٌ وَلاَ الرَّأيُ نَافِعُهْ[5]

حبُّ الصَّالحين[6]

عَـزِيـزُ النَّفْـسِ مَـنْ لَـزِمَ القَنَـاعَـه ولـم يَكْشِـفْ لِمخلُـوقٍ قِنَـاعَـهْ[7]

= يسبقان الزمن للإساءة، وتجنبت الأعلون منهم، وذلك لأن هؤلاء يضنّون بالمعروف، ولا يراعون حق الصحبة.

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٨٨، وتوالي التأسيس لابن حجر العسقلاني ٧٥.

(٢) طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، والعاقل الورع الذي يخشى مولاه، ينظر إلى عيوبه ويحاول ما استطاع إصلاحها، لأن ورعه يدفعه إلى ذلك.

(٣) حاله في ذلك حال المريض العليل، لا يشغله شيء إلا التفكير بآلامه، وما هي السبيل للشفاء منها، إنه يهتم بآلامه ناسياً آلام غيره.

(٤) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٩٧، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ٢٧٦، وآداب الشافعي ومناقبه للرازي ٢٧٦.

(٥) على الإنسان ألا يبدي النصيحة ويقدم الرأي لمن لا يبغي منه ذلك، فإن أبى الإنسان وقدم الرأي والنصح لمن لا يريد، فإنه لن يحظى بالشكر ولن يكون للرأي الذي قدمه فائدة.

(٦) سمير المؤمنين ١٥٨. حب الصالحين ومعاشرتهم ربح عظيم، وقليل من يحرص عليه.

(٧) قناعه: بكسر القاف ما يستر الإنسان به وجهه. عزة النفس وإكرامها من المروءة، والسعيد في هذه الحياة من يعيش عزيزاً كريماً، ومن لوازم هذه الصفة الشريفة، أن يلتزم القناعة، ويتجنب الطمع بما في أيدي الناس، =

أَفَـــادَتنـــي التَّجــاربُ كُـــلَّ عِـــزٍّ وَهَـلْ عِـزٌّ أَعَـزُّ مِـنَ القَنـاعَـهْ؟[1]

فَصَيِّـــرهـــا لِنَفسِـــكَ رَأسَ مـــالٍ وَصَيِّرْ بَعدَها التَّقوى بِضاعَهْ[2]

وِلا تُطِـعِ الهـوَىَ والنَّفـس واعْمَـلْ مِنَ الخَيْراتِ قَدْرَ الاسْتِطَاعَهْ[3]

أُحِـبُّ الصَّـالِحيـنَ وَلَسـتُ مِنهُـم لَعَلّـي أَنْ أَنـالَ بِهِـم شَفـاعَـهْ[4]

وَأَكـرَهُ مَـن تِجـارَتُـهُ المَعـاصـي وَلَـو كُنّـا سَـواءً فـي البِضـاعَـهْ[5]

= وعزيز النفس لا يشكو لمخلوق ما به من ضرٍّ، بل يظل مرتدياً ثياب العزّ، ولا يطلع على أسراره أحداً.

(١) إن تجارب الحياة تفيد الإنسان وتغنيه و تقدم له النصح الكامل، بأن عزّ الإنسان يكمن أولاً وآخراً في جعل القناعة شعاراً له، والزهد بما في أيدي الناس.

(٢) صيرها: اجعلها. والعاقل الذي يبتغي عزة نفسه، يجعلها ـ أي القناعة ـ رأس ماله الذي يخوض به غمار الحياة، ولا يفرط برأس ماله هذا أبداً، ويصيّرها في الوقت ذاته البضاعة التي يعرضها على الناس مفتخراً بها، ومعتزاً بامتلاكها.

(٣) أما الهوى فهو العدو الذي يردي الإنسان ويهوي به إلى مدارك الشقاء والذل، وكذلك مطاوعة النفس، فالنفس ـ إلاّ ما رحم ربي ـ أمارة بالسوء، تزين في كثير من الأحيان القبيح، وتغريك بارتكاب المساوئ، فعليك أن تفعل الخيرات، وتساهم في إشاعة المكرمات ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

(٤) إنني أحب الصالحين، وأتطلع دائماً إلى صحبتهم، غير أني أخشى ألا أكون منهم، فليس كل ما يتمنى المرء يدركه، ولكني أطمع من ربي تعالى أن أنال بحبهم شفاعة تبلغني بعض ما أحب.

(٥) إن الهوى يقود إلى المعاصي ويزينها للإنسان وأنا أكره تجارة المعاصي، ولو أنني يخيل إليّ أنني لست نقياً من المعاصي، ولكنه الرجاء الذي يبعث فيّ الأمل.

أدب النُّصح

تَعَمَّدْني بِنُصحِكَ في انفِرادي ... وَجَنِّبني النَّصيحَةَ في الجَماعَةْ[1]

فَإِنَّ النُّصحَ بَينَ النّاسِ نَوعٌ ... مِنَ التَّوبيخِ لا أَرضى استِماعَهْ[2]

وَإِنْ خالَفْتَني وَعَصَيْتَ قَولي ... فَلا تَجزَعْ إِذا لَمْ تُعطَ طاعَهْ[3]

أبو حنيفة[4]

لَقَد زانَ البِلادَ وَمَنْ عَلَيها ... إِمامُ المُسلِمينَ أَبو حَنيفَه[5]

بِأَحكامٍ وَآثارٍ وَفِقهٍ ... كَآياتِ الزَّبورِ عَلى الصَّحيفَه[6]

فَما بِالمَشرِقَينِ لَهُ نَظيرٌ ... وَلا بِالمَغرِبَينِ وَلا بِكوفَه[7]

---

(١) يا من يريد نصحي، أرجوك أن تكرمني به في معزل من الناس، ولا تقدمه إليّ جهراً وعلى ملأ من الخلق.

(٢) إنك إن قدمت لي النصائح، وأنا بين الناس، فإن ذلك بمنزلة توبيخ توجهه إليّ لا أرضى عنه، ولا آخذ به.

(٣) وإنك إن لم تستمع لقولي، ولم تلق بالاً لما قلته لك، فلا تغضب إن لم تجد مني أذناً صاغية لنصيحتك.

(٤) الأبيات لعبد الله بن المبارك انظر الفهرست ٢٨٤، وعيون التواريخ حوادث سنة ١٥٠ م. وهل من أحد يجهل هذا الإمام المجتهد العالم الورع . . .

(٥) إن الإمام أبا حنيفة رحمه الله تعالى هو زينة كل بلد سكنها أو مرّ بها، فهو إمام للمسلمين مجتهد، أنار بفكره الثاقب طريقاً للمسلمين لا يزال أثره باقياً.

(٦) لقد ترك أحكاماً فقهية، ينعم بها جمهور كبير من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وآثاره لا تزال باقية، وفقهه يدرس في العالم الإسلامي كله، وهو مكتوب في صفحات الكتب والأوراق.

(٧) وفي اعتقادي أن الأيام لا تجود بمثله، لا في المشرق و لا في المغرب، ولا حتى في الكوفة التي كانت إقامته فيها.

فـــرَحمَـــةُ رَبِّنـــا أبَـــداً عَلَيـــهِ مَدى الأيّامِ ما قُرِئَتْ صَحيفَه[1]
رَأيــتُ العــايِبيــنَ لــهُ سَفـاهَــاً خِلافَ الحقِّ مع حُجَجٍ ضعيفَه[2]

بالعمل لا بالكلام

إنَّ الفَقيــهَ هُــوَ الفَقيــهُ بِفِعْلِــهِ لَيــسَ الفَقيــهُ بِنُطقِــهِ وَمَقــالِــهِ[3]
وَكَذا الرَّئيسُ هُوَ الرَّئيسُ بِخُلقِهِ لَيسَ الرَّئيسُ بِقَومِهِ وَرِجالِهِ[4]
وَكَــذا الغَنِــيُّ هُــوَ الغَنِــيُّ بِحــالِــهِ لَيــسَ الغَنــيُّ بِمُلكِــهِ وَبِمــالِــهِ[5]

آل بيت رسول الله ﷺ[6]

يــا آلَ بَيــتِ رَســولِ اللهِ حُبُّكُــمُ فَرضٌ مِنَ اللهِ في القُرآنِ أنزَلَهُ[7]

---

(١) نسألك اللهم أن تنزل شآبيب رحمتك دائماً وأبداً عليه، طالما كرت الأيام وتعاقبت الشهور، وبعدد ما يقرأ من صحائف الكتب، فهو الجدير بها.

(٢) إن من يعيب هذا الإمام الجليل، وينتقص حقه من الفضل والعلم، لا شك أنه سفيه وهو يجافي الحقّ والمنطق، وحججه واهية لا وزن لها ولا برهان.

(٣) الألقاب وحدها إن لم تقترن بالفعل، فهي لا ترفع صاحبها، فالفقيه الذي أصبح حديث الناس، ليس بشيء إن لم يكن فعله مطابقاً لما يُعلّمه ويتحدث به.

(٤) وكذلك الرئيس فإن المنصب لن يرفعه إن لم يكن مثالاً للخلق الكريم، والأدب الرفيع، وليس الرئيس هو الذي يجمع أعداداً لا تحصى من الرجال حوله.

(٥) وقل ذلك في الغني أيضاً، إن لم يكن غني النفس، سخي اليدين، فإن غناه لن يرفعه، لأن الغنى الحقيقي ليس بما يملكه الإنسان من مال ومتاع.

(٦) نور الأبصار ص١٢٧.

(٧) حب رسول الله ﷺ وحب بيته فرض على كل من عرف مكانة هذا النبي الكريم ﷺ، ويبقى إيمان المرء ناقصاً غير كامل إن لم يحب النبي ﷺ وآل بيته، ويقدم ذلك الحب على نفسه وأهله.

يَكفيكُـمُ مِـنْ عَظيـمِ الفَخـرِ أَنَّكُـمُ   مَنْ لَم يُصَلِّ عَلَيكُم لا صَلاةَ لَهُ[1]

مشاكلة الناس[2]

وَأَنـزلَنـي طـولُ النَّـوى دارَ غُـربَـةٍ   إِذا شِئتُ لاقَيتُ امْرأً لا أُشاكِلُهْ[3]

أُحـــامِقُـــهُ حَتّـــى تُقـــالَ سَجِيَّـــةٌ   وَلَو كانَ ذا عَقلٍ لَكُنتُ أُعاقِلُهْ[4]

استعارة الكتب[5]

استعار الشافعي رضي الله عنه من محمد بن الحسن، الكوفي الفقيه،

---

(١) إن الفخر كل الفخر لآل البيت الطاهرين، وهو أنه الصلاة عليهم مقترنة بالصلاة على النبي ﷺ، وتعتبر الصلاة مقبولة إن فعل ذلك، وإلا فلا.

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٨١، ومعجم الأدباء ١٧/ ٣١١، وحلية الأولياء ٩/ ١٥٢، ونسبهما صاحب عيون الأخبار ٣/ ٢٤ للمعيطي (عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي)، وطبقات الشافعية للسبكي ١/ ٦٢.

(٣) النوى: البعد. أشاكله: أوافقه. لقد اضطرني طول البعد عن الأهل والوطن أن أكون في دار غربة، في هذه الغربة كثيراً ما ألقى فتى لا يوافق طبعه طبعي.

(٤) سجية: طبيعة. ومع ذلك فإني أظهر الحمق معه، حتى يقول عني من لا يعرفني، إن هذا الحمق طبيعة فيّ، والحق أن صاحبي هذا لو كان عاقلاً لوجدني مثله أهوى العقل والحكمة.

(٥) توالي التأسيس للعسقلاني ٥٥، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ١١١، وطبقات الحنفية ٢/ ٤٣، وقد رواهما ابن خلكان في وفياته ٣/ ٣٢٤، وقال: رأيت هذه الأبيات في ديوان منصور بن إسماعيل المصري وقد كتبها إلى أبي بكر بن القاسم.

تلميذ أبي حنيفة شيئاً من كتبه، فلم يسعفه به، فكتب إليه الشافعي رضي الله عنه:

قُـــلْ للَّـــذي لـــم تـــرَ عَيْنَـــا ... مَـــــنْ رآهُ مِثْلَـــــهُ
ومَـــنْ كـــأنَّ مَـــنْ رآهُ ... قَـــدْ رأى مَـــنْ قَبلَـــهُ
لأن مـــا يُجنُّـــهُ ... فـــاقَ الكـــمـــالَ كُلَّـــهُ
العلـــمُ يَنهَـــى أهلَـــهُ ... أن يَمنعُـــوهُ أهْلَـــهُ
لعلَّـــهُ يَبـــذُلُـــهُ ... لأهلِـــهِ لعلَّـــهُ

مدارة الحسود

وَدارَيتُ كُلَّ النَّاسِ لَكِنَّ حاسِدي ... مُـداراتُـهُ عَـزَّتْ وَعَـزَّ مَنـالُهـا[1]
وَكَيفَ يُداري المَرءُ حاسِدَ نِعمَةٍ ... إِذا كـانَ لا يُـرضِيـهِ إِلاّ زَوَالُهـا[2]

فضل الإمام أحمد بن حنبل

وقال في أحمد بن حنبل رضي الله عنهما[3]:

قـالـوا يـزورُكَ أحمـدٌ وتـزورُهُ ... قلتُ: الفضائلُ لا تُفارقُ منزلَهْ[4]
إِنْ زارَنِـي فَبِفَضْلِـهِ أو زُرْتُـهُ ... فَلِفَضْلِهِ، فالفَضْلُ في الحالَيْنِ لَهْ[5]

---

(١) استطعت ـ بفضل الله تعالى ـ أن أعيش مع الناس بسلام إلا ذلك الحاسد، فإن مداراته كانت فوق طاقتي، ولم أستطع ذلك.

(٢) وكيف يستطيع إنسان أن يعيش مع آخر يحسده على نعمة هو فيها، إن كان هذا الحاسد لا يهنأ له عيش إلا إذا رأى النعمة تزول عني؟.

(٣) أحسن القصص ٤/ ١٣٠، وهو ينقل عن الجوهر النفيس.

(٤) لا يعرف الفضل إلا أصحابه، وإن الناس قالوا: إننا نراك تكثر زيارة أحمد، وهو يزورك أيضاً، قلت لهم: إني أفعل ذلك لأني أرى أن الفضائل قد اجتمعت في منزل هذا الرجل، فلا تفارقه أبداً.

(٥) إن كان يزورني فهو يتفضل عليّ بزيارته، وإن زرته فلأني ألتمس المزيد من=

التَّهنئة والتَّعزية[1]

لما قرأ هارون الرشيد كتاب الولاية للأمين والمأمون بمكة ؛ قام فتى شاب فقال : يا أمير المؤمنين :

لا قُصِّـــرا عَنهـــا وَلا بُلِّغتَهـــا ... حَتّـى يَطـولَ بهـا لـدَيْكَ طَـوالُهـا

فقال الناس : من هذا الشاب الذي جمع التهنئة والتعزية في بيت واحد؟ فقيل : هذا فتى من قريش يقال له محمد بن إدريس الشافعي .

فضل العلم[2]

العِلـمُ مِـنْ فَضلِـهِ لِمَـن خَـدَمَـهْ ... أَنْ يَجعَلَ النَّاسَ كُلَّهُم خَدَمَهْ[3]

فَـواجِـبٌ صَـونُـهُ عَلَيـهِ كَمـا ... يَصونُ في النَّاسِ عِرضَهُ وَدَمَهْ[4]

فَمَـنْ حَـوى العِلـمَ ثُـمَّ أَودَعَـهُ ... بِجَهلِـهِ غَيـرَ أَهلِـهِ ظَلَمَـهْ[5]

وكـانَ كـالمُبْتَنِـي البِنـاءَ إذا ... تَـمَّ لَـهُ مـا أرادَهُ هَـدَمَـهْ[6]

= الفضل الذي لديه ، والأمر في كلا الحالين مندرج وعائد في الفضل له .

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٨٥ .

(٢) طبقات الشافعية للسبكي ١/ ١٥٩ ، وهدية الأمم ٣٦ .

(٣) العلم نور يقذفه الله تعالى في قلوب عباده ، فمن أكرمه الله تعالى بالعلم ، أفاض عليه من بركاته وجعل الناس يخدمونه ، وينفذون له ما يريد طواعية .

(٤) صونه : حفظه . لذلك فإن صيانة العلم وحفظه من قبل صاحبه واجب كبير ، على من أوتي العلم ، فعليه أن يحافظ على هذا العلم كما يحافظ على عرضه ونفسه .

(٥) حوى : ضم وجمع . أودعه : أعطاه . أما الذي وهبه الله سبحانه علماً ، فلم يعرف له قدراً ، وبذله جاهلاً قيمته لمن لا ينتفعون به ولا يقدرونه حق قدره ، فقد ظلمه .

(٦) ومثله في ذلك ، مثل من يشيد بناء بذل فيه جهداً عظيماً ، حتى إذا اكتمل هذا=

أهين نفسي[1]

أُهيـنُ لَهُـم نَفسـي لأُكـرِمَهـا بِهِـم ... وَلن تُكرَمَ النَّفسُ الَّتي لا تُهينُها

إذا شئت أن تحيا غنياً[2]

إذا شئـتَ أنْ تَحيـا غنِيَّـاً فـلا تَكُـنْ ... على حَالـةٍ إلاَّ رَضِيت بِدُونِهـا[3]

* * *

= البنيان أو كاد، بعث إليه من هدمه، وأضاع ما بذل فيه من تعب سدىً.

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ١٠١، وآداب الشافعي ومناقبه للرازي ١٢٧، وحلية الأولياء ٩/ ١٤٨، وقد نسب الجاحظ البيت لأعرابي حجب عن باب السلطان، انظر البيان والتبين ٢/ ١٨٩، وقيل هو للحسن بن عبد الحميد رُئِيَ وهو يزاحم الناس على باب محمد بن سليمان العباسي.

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ٨٤، ومناقب الشافعي للفخر الرازي ١١٤.

(٣) ومن منّا لا يحب أن يحيا في غنى وبحبوحة، إن كنت تبغي ذلك، فانظر إلى الحالة التي أنت فيها الآن، ووطّن نفسك على أن ترضى بأقل منها، عند ذلك تشعر بالراحة والغنى.

قافية الياء

عين الرِّضا[1]

وَعَينُ الرِّضا عَن كُلِّ عَيبٍ كَليلَةٌ ... وَلَكِنَّ عَينَ السُّخطِ تُبدي المَساوِيا[2]

وَلَســتُ بِهَيّــابٍ لِمَــنْ لا يَهــابُنــي ... وَلَستُ أَرى لِلمَرءِ ما لا يَرى لِيا[3]

فَإِنْ تَدنُ مِنّي تَدنُ مِنكَ مَوَدَّتي ... وَإِنْ تَنأَ عَنّي تَلقَني عَنكَ نائِيا[4]

---

(١) هذه الأبيات لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، انظر زهر الآداب ١/ ١٢٥، وشعر عبد الله الجعفري ٨٩/ ٩٠ جمع عبد الحميد الراضي. عين المحب لا ترى عيباً فيمن تحب، وعين المبغض لا ترى إلا السوء..

(٢) إذا أحببت إنساناً وأنست بصحبته، فإنك لن ترى منه إلا كل جميل من القول والفعل. أما إن كرهت إنساناً أو كرهك هذا الإنسان، فإن العين لا ترى شيئاً له من الفضل، بل قد تقلب الحسن إلى سيء.

(٣) إنني معتد بنفسي، ولا أحسب حساباً لمن لا يهابني، وينظر إليّ نظرة لا تنم عن المودة والاحترام، ولست أرى لإنسان حقاً عليّ مالم يبادلني به مهما علا شأنه.

(٤) تنأ: تبعد. إنك أيها الصديق! إن تقربت مني بفعالك المحمودة ومودتك الصادقة، فسوف ترى مودتي تسابقني إليك، أما إن ابتعدت عني بروحك وتجاهلتني، فسوف تلقى مني الأمر نفسه، فنحن في هذا الأمر سواء.

وسِيَّانَ عندِي أنْ أَمُوتَ وأَنْ أُرَى ... كبعضِ الرِّجالِ يُوَطِّنُونَ المَخازِيَا[1]
وأدلَيْــتُ دَلْــوِي فــي دِلاءٍ كَثيــرةٍ ... فَأُبْنَ ملاءً غيرَ دلوِي كما هِيَا[2]
فلســتُ بــلاقٍ ذَا حِفــاظٍ ونَجْــدةٍ ... مِنَ القومِ حُرّاً بالخسيسةِ راضِيَا[3]
كِــلانــا غَنــيٌّ عَــنْ أَخيــهِ حَيــاتَــهُ ... وَنَحــنُ إذا مِتنــا أَشَــدُّ تَغــانِيــا[4]

كساني ربِّي[5]

كَسَــانِيَ رَبِّي إذْ عَــرِيــتُ عمــامــةً ... جَديداً وكانَ الله يختارُها لِيَا[6]
وقَيَّــدنــي رَبِّــي بقيــدِ مُــداخــلٍ ... فــأعْيَــتْ يَمينِي حَلَّــهُ وشِمَــالِيَــا[7]

---

(١) يوطنون المخازيا: تعودوا على الفواحش. إني أفضل أن أشرب كأس المنون، من أن أرى بين أصحابي ومن يعاشرني، أرتكب المخازي، أو أقوم بأيّ شيء من شأنه أن يخدش كرامتي، أو ينتقص من مروءتي.

(٢) أُبْنَ: رَجعْن، لقد خالطت الناس وسرت معهم، وأرسلت دلوي كما أرسلوا، لكن الأمر مختلف بيني وبينهم، فكل واحد منّا يشرب من مشرب مختلف، لذلك عادت دلوي كما هي فارغة. أما الآخرون فقد امتلأت دلاؤهم، لأننا مختلفون من حيث المبدأ.

(٣) أرسلت طرْفي في هؤلاء الناس، فلم أر إنساناً ذا أنفة وحمية يرضى بالذل أو الهوان وهو بعيد كل البعد عن أن يرضى بالخسيس من الأعمال أو الأقوال.

(٤) إنني غنيّ عن صاحبي الذي لا يعرف معنى الصحبة الحقة والأخوة الصادقة، طالما نحن على قيد الحياة، فإذا فاجأنا الموت الذي هو نهاية كل حيّ، عند ذلك فكل واحد منا سيزداد غنى عن صحبة الآخر، إذ لا فائدة ترجى من أحد بعد هذا الفراق الأبديّ.

(٥) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/ ١١٠.

(٦) كساني ربي الرحيم بعد أن عريت من العمامة ـ ثوباً جديداً، وكان هو تعالى الذي اختارها لي وأكرمني بها.

(٧) وقُيِّدت بقيود منه تعالى، فلم أستطع تجاوزها، وعجزت يميني أن تحل هذه=

أمر فوق أمري

أُفكِّـرُ فـي نـوى إلْفِـي وَصَبْـرِي ... وَأَحْمَـدُ هِمَّتِـي وأَذمُّ دَهـرِي[1]

ومَـا قَصَّـرْتُ فـي طَلَـبٍ وَلكِـنْ ... لِـرَبِّ النَّـاسِ أمـرٌ فـوقَ أمْـرِي[2]

* * *

= المداخل وكذلك الشمال، إنه المتصرف في كل شيء.

(١) يفارقني من ألفت، فأمعن التفكير في ذلك، فأحمد الله تعالى أن وهبني همة عالية وصبراً عالياً، وأذم الأيام التي تكدر صفوي.

(٢) إنني لم أُقصِّر في الطلب، ولم أكسل في طلب المعالي والمكارم، ولكن إرادة الله تعالى وأمره، لا رادَّ لهما، فإرادته وقضاؤه نافذان لا محالة، وهما فوق كل شيء.

حكم الإمام الشّافعي

المنثورة

مناجاة

أعوذ بالله من مقام الكاذبين، وإعراض الغافلين، اللهم لك خضعت قلوب العارفين، وذلَّت لك رقاب المشتاقين، إلهي هب لي جودك، وجلِّلني بسترك، واعف عن تقصيري بكرم وجهك.

* * *

اعلم أن من صدق الله نجا، ومن أشفق على دينه سلم من الردى، ومن زهد في الدنيا قرَّت عيناه مما يراه من ثواب الله تعالى غداً.

ومن كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الإيمان:

١ ـ من أمر بالمعروف وائتمر به.

٢ ـ ونهى عن المنكر وانتهى عنه.

٣ ـ وحافظ على حدود الله تعالى.

* * *

كن في الدنيا زاهداً، وفي الآخرة راغباً، واصدقِ الله تعالى في جميع أمورك، تنجُ مع الناجين.

* * *

من لم يصُن نفسه لم ينفعه علمه.

* * *

ما من أحد إلا وله محب ومبغض، فإذا كان كذلك فكن مع أهل طاعة الله عزَّ وجلَّ.

* * *

وقيل له: متى يكون الرجل عالماً؟ قال: إذا تحقق في علم فَعَلِمَه، وتعرَّض لسائر العلوم فنظر فيما فاته، فعند ذلك يكون عالماً.

* * *

إذا خفت على عملك العُجْبَ فانظر رضا من تطلب؟ وفي أي ثواب ترغب؟.

ومن أي عقاب ترهب؟ وأي عافية تشكر؟ وأي بلاء تذكر؟ فإنك إذا تفكَّرت في واحدة من هذه الخصال، صَغُرَ في عينيك عملك.

* * *

سُئل عن حاله رضي الله عنه فقال: كيف حال من يصبح ويطالبه ثمانية:

١ ـ كتاب ربِّه بالعمل.

٢ ـ وسنة نبيِّه بالمتابعة.

٣ ـ ونفسُه بالشهوات.

٤ ـ وشيطانه بالمخالفات.

٥ ـ وعياله بالقوت.

٦ ـ وهواه بطول الأمل.

٧ ـ والدهر بصروفه.

٨ ـ وملك الموت بقبض روحه.

* * *

إذا دخلت بلدة ولم تجد فيها حاكماً عدلاً، ولا ماء جارياً، ولا طبيباً رفيقاً، فلا تسكنها.

* * *

لا تسكن بلدة لا يكون فيها عالم ينبئك عن دينك، ولا طبيب ينبئك عن أمر بدنك.

* * *

اثنان أغفلهما الناس: الطب والعربية.

* * *

الفول يزيد في الدماغ.

أكل اللحم يزيد في العقل.

* * *

ما أفلح سمين قطُّ إلا أن يكون محمد بن الحسن[1]، فقيل له: فلم؟ فقال: لأنه لا يعدو العاقل من إحدى حالتين: إما أن يهتم لآخرته ومعاده، أو لدنياه ومعاشه، والشحم مع الهمِّ لا ينعقد، فإذا خلا من المعنيين صار في حدِّ[2] البهائم لعقد الشحم.

* * *

ثلاثة أشياء ليس لطبيب فيها حيلة: الحماقة، والطاعون، والهرم.

* * *

(١) هو محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه.

(٢) حد البهائم: مرتبة البهائم.

ثلاثة أشياء دواء الذي لا دواء له وأعيا الأطباء أن تداويه : العنب ، ولبن اللقاح ، وقصب السكر .

* * *

الورَّاق إنما يأكل من دية عينيه .

* * *

ما تخلَّل الإنسان بالخلال من بين أسنانه فليقذفه، وما أخرجه بأصابعه فليأكله .

* * *

احذر الأعور والأحول والأعرج والأحدب والأشقر والكوسج[1] وكلَّ من به عاهة في بدنه، وكل ناقص الخلق فاحذره، فإنه صاحب التواء، ومعاملته عسرة .

وقال مرة أخرى : فإنهم أصحاب خِبٍّ[2] .

* * *

أخشى على من طلب هذا العلم بغير نية ألا ينتفع به[3] .

* * *

زينة العلماء التقوى ، وحليتهم حسن الخلق ، وجمالهم كرم النفس .

* * *

---

(١) الكوسج : الذي لا شعر على عارضيه .

(٢) خِبٌّ : حيلة ومكر .

(٣) إنما الأعمال بالنيات .

طلب العلم أفضل من صلاة النافلة .

* * *

ليس بعد أداء الفرائض شيء أفضل من طلب العلم. فقيل له: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله .

* * *

لو أن أهل كورة[1] اجتمعوا على ترك العلم لرأيتُ للحاكم أن يجبرهم على طلب العلم .

* * *

من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم .

* * *

ما تُقرِّب إلى الله بشيء بعد أداء الفرائض أفضل من طلب العلم .

* * *

عليك بالفقه فإنه كالتُّفاح الشاميِّ يحمل من عامه .

* * *

ما أفلح في العلم إلا من طلبه بالقلة، ولقد كنت أطلب ثمن القرطاس فيعزُّ عليّ .

* * *

لا يصلح طلب العلم إلا لمفلس وإن كان مكفيّاً .

* * *

---

(١) كورة: قرية أو مدينة .

لا يطلب هذا العلم أحد بالملك وعزِّ النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذلة وضيق العيش، وخدمة العلم، وتواضع النفس، أفلح.

* * *

لا يفلح الرجل في هذا الشأن ـ يعني في طلب العلم ـ حتى يكون له قميص ولا يكون له سراويل، ويكون له سراويل ولا يكون له قميص.

* * *

يحتاج طالب العلم إلى ثلاث خصال، أولها: طول العمر، والثاني: سعة ذات اليد، والثالث: الذكاء.

* * *

تفقَّه قبل أن ترأس، فإذا ترأست فلا سبيل إلى التفقُّه.

* * *

من تعلَّم علماً فليدقِّق فيه لئلا يضيع دقيق العلم.

مَثَلُ الذي يطلب العلم بلا حُجَّة، كمثل حاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدري.

* * *

قيل له: كيف شهوتك للأدب؟.

قال: أسمع بالحرف منه مما لم أسمعه فتودُّ أعضائي أن لها أسماعاً تتنعم به مثل ما تنعمت الآذان.

قيل: وكيف حرصك عليه؟.

قال: حرص الجموع المنوع على بلوغ لذته في المال.

قيل: وكيف طلبك له؟.

قال: طلب المرأة المضِلَّة ولدَها وليس لها غيره.

* * *

من لا يحب العلم فلا خير فيه، ولا يكن بينك وبينه معرفة ولا صداقة.

* * *

ذُكر له أصحابُ الحديث وما هم فيه من المجانة والضحك، وأنهم لا يستعملون الأدب فقال: يا سبحان الله! لو استعمل أصحاب الحديث ما تقولون لكانوا علماء كلَّهم. ثم التفت إلينا فقال: ما أعلم أني أخذت شيئاً من الحديث، أو القرآن، أو النحو، أو العربية، أو شيئاً من الأشياء مما كنت أستفيده، إلا كنت أستعمل فيه اجتناب ما ذكرتم، وكنت أفعل هذا قديماً، وكان ذلك طبعي إلى أن قدمت المدينة، فرأيت من مالك بن أنس ما رأيت من هيبته وإجلاله للعلم، فازددت لذلك، حتى ربما كنت أكون في مجلسه فأريد أن أصفح الورقة فأصفحها صفحاً رقيقاً هيبة له لئلا يسمع وقعها.

وقيل له: مالك تدمن إمساك العصا ولست بضعيف؟ فقال: لأذكر أني مسافر من الدنيا إلى الآخرة.

* * *

الموعظة للعوام، والنصيحة للإخوان، والتذكرة للخواص منهم، فرضٌ افترضه الله تعالى على عقلاء المؤمنين، ولولا ذلك لبطلت السُّنّة، وتعطلت الفرائض.

* * *

لا عيب بالعلماء أعظم من رغبتهم فيما زهَّدهم الله فيه، وزُهْدِهم فيما رَغَّبهم الله فيه.

* * *

زينة العلماء: الورع، والحلم.

* * *

لا يُحمل العلم ولا يَحسُن إلا بثلاث خصال: تقوى الله، وإصابة السُّنَّة، والخشية.

* * *

كتب حكيم إلى حكيم: يا أخي، قد أوتيتَ علماً، فلا تُدنِّس علمك بظلمة الذنوب، فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم.

* * *

ليس العلم ما حُفِظ، العلم ما نفع.

* * *

قد أنسِتُ بالفقر حتى لا أستوحش منه.

أَزْيَنُ شيءٍ بالعلماء: الفقر مع القناعة، والرضا بهما.

* * *

فقر العلماء فقر اختيار، وفقر الجُهَّال فقر اضطرار.

* * *

المِراء[1] في العلم يقسِّي القلب، ويورث الضغائن[2].

* * *

(١) المراء: الجدال.

(٢) الضغائن: الأحقاد.

من إهانة العلم أن تناظر كل من ناظرك، وتقاول من قاولك.

* * *

العلم جهل عند أهل الجهل، كما أن الجهل جهل عند أهل العلم.

* * *

قال الشافعي: سمعت (مالك بن أنس) يقول: سمعت (محمد بن عجلان) يقول: إذا أغفل العالم (لا أدري) أُصيبت مقاتله.

* * *

ما أحد أورع لخالقه من الفقهاء.

* * *

إن لم يكن الفقهاء العاملون أولياء الله في الآخرة فما لله وليّ.

* * *

كفى بالعلم فضيلة أنه يدّعيه من ليس فيه، ويفرح إذا نُسب إليه، وكفى بالجهل شراً أن يتبرأ منه من هو فيه، ويغضب إذا نُسب إليه.

العلم مروءة من لا مروءة له.

* * *

وددت أنّ كل علم أعلمهُ يعلمه الناس، أؤجر عليه ولا يحمدونني.

* * *

الأكفاء في الدين، ليس الأكفاء من الحسب في شيء.

* * *

من لم تُعِزُّه التقوى فلا عزّ له، ولقد ولدت بغزَّة، ورُبِّيت بالحجاز، وما عندنا قوت ليلة، وما بتنا جياعاً.

* * *

لا يستوحش أحدكم من الإفلاس، فإني قد أفلست ثلاث مرات ثم أيسرت.

* * *

طلب فضول الدنيا عقوبة عاقب الله بها أهل التوحيد، لو أن الدنيا (علَق) يباع في السوق لما اشتريته برغيف، لما أعلم ما فيه من الآفات.

* * *

أبين ما في الإنسان ضعفه، فمن شهد الضعف من نفسه نال الاستقامة مع الله تعالى.

* * *

من غلبت عليه شدة الشهوة لحب الدنيا، لزمته العبودية لأهلها، ومن رضي بالقنوع زال عنه الخضوع.

* * *

خير الدنيا والآخرة في خمس خصال:

غنى النفس، وكف الأذى، وكسب الحلال، ولباس التقوى، والثقة بالله عزَّ وجلَّ على كل حال.

* * *

لَلزُّهد على الزاهد؛ أحسن من الحُليِّ على المرأة الناهد.

* * *

أنفع الذخائر التقوى، وأضرُّها العدوان.

* * *

من أحب أن يفتح الله له قلبه أو ينوِّره، فعليه بترك الكلام فيما لا يعنيه، وترك الذنوب، واجتناب المعاصي، ويكون له فيما بينه وبين الله خبيَّة من عمل، فإنه إذا فعل ذلك فتح الله عليه من العلم ما يشغله عن غيره، وإنَّ في الموت لأكثر الشغل.

* * *

من أحب أن يفتح الله قلبه، ويرزقه الحكمة فعليه: بالخلوة، وقلة الأكل، وترك مخالطة السفهاء، وبغض أهل العلم الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب.

* * *

المسلمون شهداء الله بعضهم على بعض.

* * *

لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتَك ولم تملكها.

* * *

لو جهدت كل الجهد على أن تُرضي الناس كلهم فلا سبيل إليه، فإذا كان كذلك فأخلص عملك ونيَّتك لله عزَّ وجلَّ.

* * *

لا يعرف الرياء إلا مخلص.

* * *

أيُّ راحة في المرض إلا رجاء ثوابه، وأنه كفارة للذنوب.

* * *

يا أخي؛ إنّ الدُّنيا دحض مُزلَّة، ودار مذلَّة، عمرانها إلى الخراب صائر، وساكنها للقبور زائر، شملها على الفرقة موقوف، وغناها إلى الفقر مصروف، الإكثار فيها إعسار، والإعسار فيها يسار، فافزع إلى الله تعالى، وارض برزق الله، ولا تستلف من دار بقائك في دار فنائك، فإن عيشك فَيء زائل، وجدار مائل، وأكثِرْ من عملك، وقَصِّرْ من أملك.

* * *

لَيأتينَّ على الناس زمان لو تُمْسِ الأرض مفروشة دنانير، مكتوب على كل دينار: لا إله إلا الله، من أخذ هذا الدينار دخل النار، لأصبحت الأرض وما عليها دينار.

* * *

كل ما قلته لكم ولم تشهد عليه عقولكم، أو تقبله أو تراه حقاً فلا تقبلوه، فإن العقل مضطر إلى قبول الحق.

* * *

الكلام يقظة العقل، والسكوت نومه، فانظر كيف مراعاتك له في نومه ويقظته.

سياسة الناس أشد من سياسة الدواب.

* * *

الذي يحتاج إليه الناس من المِران، أكثر مما يُحسب، وإن الدَّواب لَترُاضُ فتستقيم.

* * *

إن للعقل حدّاً ينتهي إليه، كما أن للبصر حداً ينتهي إليه.

* * *

العاقل من عَقَلَهُ[1] عَقْلُهُ عن كل مذموم .

* * *

واللهِ الذي لا إله إلا هو، لو علمت أن شرب الماء البارد يُنقص من مروءتي ما شربته، ولو كنت اليوم ممن يقول الشعر لرثيت المروءة .

* * *

للمروءة أربعة أركان :

حسن الخلق، والسخاء، والتواضع، والنُّسك .

* * *

المروءة عِفَّةُ الجوارح عما لا يعنيها .

* * *

جوهر المرء في خلالٍ ثلاث : كتمان الفقر حتى يظنَّ الناس من عفتَّك أنك غنيّ، وكتمان الغضب حتى يظنَّ الناس أنك راضٍ، وكتمان الشِّدَّة حتى يظنَّ الناس أنك متنعِّم .

من أحبَّ أن يُقضى له بالحسنى فليحسن بالناس الظنَّ .

* * *

لا يكمل الرجل في الدنيا إلا بأربع : الديانة، والأمانة، والصيانة، والرزانة .

* * *

(١) عقله : منعه .

قال لابنه: يا بني؛ رفقاً، رفقاً، فإن العجلة تُنقص الأعمال، وبالرفق تُدرك الآمال.

* * *

الانبساط إلى الناس مجلبة لقرناء السوء، والانقباض عنهم مكسبة للعداوة، فكن بين المنقبض والمنبسط.

* * *

ما أكرمتُ أحداً فوق مقداره، إلا اتَّضع من قدري عنده بمقدار ما أكرمته به.

* * *

ثلاثة إن أهنتهم أكرموك، وإن أكرمتهم أهانوك: المرأة، والمملوك، والنِّبطيّ.

* * *

لا وفاء لعبد، ولا شكر للئيم، ولا صنيعة عند نذل.

* * *

صحبة من لا يخاف العار، عار يوم القيامة.

* * *

أربعة لا يعبأ الله بهم يوم القيامة: تقوى جندي، وزهد خصيّ، وأمانة امرأة، وعبادة صبي.

* * *

عاشر كرام الناس تعش كريماً، ولا تعاشر اللئام فتنسب إلى اللؤم.

* * *

أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه، ورغب في مودَّة من لا ينفعه، وقبل مدح من لا يعرفه.

* * *

الحسب ينهى دائماً عن دنايا الأمور.

* * *

ليس لي ولا لعالم أن يقول في إباحة شيء ولا حظره، ولا أخذ شيء من أحد ولا إعطائه.

* * *

ما حلفت بالله لا صادقاً ولا كاذباً قطُّ.

* * *

إذا وجدت مُقَدَّمي أهل المدينة على شيء، فلا يدخل قلبك شك أنه حق.

* * *

السخاء والكرم يُغطيان عيوب الدنيا والآخرة بعد أن لا تلحقهما بدعة.

* * *

شيئان أغفلهما الناس: النظر في الطب، والنظر في النجوم.

إذا ربطت كتاباً فاربطه في اليمين، فإنه لو رام رجل حلَّه كان أصعب عليه.

* * *

لم أر أنفع للوباء من التسبيح.

* * *

أُسِّسَ التصوف على الكسل .

* * *

الجمعة فريضة ، والسعي فريضة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * *

من كان ذا عاهة في بدنه فاحذروه .

* * *

الكوسج خبيث ، والأزرق خبيث .

* * *

من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وخانه .

* * *

من زعم أنه يرى الجنَّ أبطلنا شهادته ، يقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ .

* * *

إذا رأيتم الكتاب فيه إصلاح وإلحاق فاشهدوا له بالصحة .

* * *

إذا أردت أن تعرف الرجل أكاتب هو؟ فانظر إلى دواته فإن وضعها عن شماله ، أو بين يديه ، فاعلم أنه ليس بكاتب .

* * *

إذا ثبت الأصل في القلب، أخبر اللسان عن الفروع.

* * *

قيل للشافعي: أخبرنا عن العقل يولد به المرء؟ فقال: لا ولكن يُلقَّح من مجالسة الرجال ومناظرة الناس.

* * *

وقد كان الرجل الصالح يشبِّه سهولة مفارقة الصديق، بصبي يطرح في البئر حجراً عظيماً فيسهل طرحه عليه، ويصعب إخراجه على الرجال.

* * *

الساعي ممقوت إذا كان صادقاً؛ لهتكه العورة، وإضاعته الحرمة. ومعاقَبٌ إن كان كاذباً؛ لمبارزته الله بقول البهتان، وشهادة الزور.

* * *

تنقَّص رجل محمد بن الحسن عند الشافعي فقال له: مه؛ تلمَّظت[1] بمضغة طالما لفظها الكرام.

* * *

إن أصبتم الحجة في الطريق مطروحة فاحكوها عني فإني قائل بها.

* * *

قال أبو محمد ابن بنت الشافعي: سألت أبي فقلت: يا أبتي أيُّ العلم أطلب؟ فقال: يا بني؛ أما الشعر فيضع الرفيع ويرفع الخسيس، وأما النحو

---

(١) تلمَّظت: تلمَّظ فلان: لمظ. ويقال ما تلمَّظتُ اليوم بشيء: ماذقتُ شيئاً، وبذكره: عابه واللماظه: بقية الطعام في الفم. (المعجم الوسيط) (٢/ ٨٤٥).

فإذا بلغ الغاية صار مؤدباً، وأما الفرائض فإذا بلغ صاحبها فيها الغاية صار معلم حساب، وأما الحديث فتأتي بركته وخيره عند فناء العمر، وأما الفقه فللشاب وللشيخ وهو سيد العلم.

* * *

ما اشتدَّ عليّ فوت أحد من العلماء مثل فوت ابن أبي ذئب والليث بن سعد.

* * *

الحسد إنما يكون من لؤم العنصر، وتعادي الطبائع، واختلاف التركيب، وفساد مزاج البنية، وضعف عقد العقل.

* * *

الحاسد طويل الحسرات، عادم الدرجات.

* * *

من طلب الرياسة فرَّت منه، وإذا تصدَّر الحدَثُ فاته علم كثير.

* * *

من نظَّف ثوبه قلَّ همه، ومن طاب ريحه زاد عقله.

* * *

لن يجفو فعل من يصفو.

* * *

لولا أن يطول على الناس، لوضعت في كل مسألة جزء حجج وبيان.

لقد ألَّفتُ هذه الكتب ولم آل فيها، ولا بد أن يوجد فيها الخطأ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:

٨٢]. فما وجدتم في كتبي هذه مما يخالف الكتاب والسنة فقد رجعت عنه.

* * *

إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بها ودعوا ما قلته.

* * *

متى رويت عن رسول الله ﷺ حديثاً صحيحاً ولم آخذ به، فأشهدكم أنْ عقلي قد ذهب.

* * *

كل ما قلت فكان عن رسول الله ﷺ خلاف قولي مما يصح، فحديث رسول الله ﷺ أولى.

* * *

إذا وجدتم سُنَّة صحيحة فاتبعوها، ولا تلتفتوا إلى قول أحد.

* * *

كل مسألة تكلمت فيها، وصحَّ الخبر فيها عن رسول الله ﷺ عند أهل النقل بخلاف ما قلت، فأنا راجع عنها في حياتي وبعد موتي.

* * *

أيُّ سماء تُظِلُّني وأيُّ أرض تُقِلُّني إذا رويت عن النبي ﷺ حديثاً ولم أقل به.

* * *

إذا صحَّ الحديث فهو مذهبي.

كل متكلم من الكتاب والسنة فهو الحق وسواه هذَيان.

* * *

عليكم بأصحاب الحديث فإنهم أكثر صواباً من غيرهم .

* * *

المعتزلة إذا سلموا للعلم خصموا به .

* * *

سلني عن شيء إذا أخطأتُ فيه قلتَ : أخطأت ، ولا تسأل عن شيئ إذا أخطأتُ فيه قلتَ : كفرت .

* * *

تعبّد قبل أن ترأس ؛ فإنك إن ترأست لم تقدر أن تتعبد .

* * *

ما نظر الناس إلى من هم دونه ، إلا بسطوا ألسنتهم فيه .

* * *

احذر كل مستميت فإنه ملد[1] .

* * *

من أظهر شكرك بما لم تأت إليه ، فاحذر أن ينكر نعمتك فيما أتيت إليه .

* * *

لا يكاد يجود شعر القرشي ولا خطه لمكان رسول الله ﷺ .

* * *

لا تخوضنَّ في أصحاب النبي ﷺ ، فإن خصمك النبي ﷺ يوم القيامة ،

---

(١) ملد : الغول (المعجم الوسيط) .

ولا تشتغل بالكلام، فإني قد اطَّلعت من أهل الكلام على أمر عظيم، ولا تشتغل بالنجوم، فإنه يجر إلى التعطيل.

* * *

إذا رأيتُ رجلاً من أصحاب الحديث كأني رأيتُ رجلاً من أصحاب النبي ﷺ.

* * *

لأن يُبتلى المرء بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك به، خير من النظر في الكلام، فإني والله اطَّلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قطُّ.

* * *

ما ابتدى أحد بالكلام فأفلح.

* * *

لو علم الناس ما في الكلام والأهواء لفروا منه كما يفرون من الأسد.

* * *

من قال: القرآن مخلوق؛ فهو كافر.

* * *

مثل الذي نظر في الرأي ثم تاب عنه، مثل المخربق الذي عولج حتى تبرأ بأعقل ما يكون قد هاج به.

* * *

البدعة بدعتان: بدعة محمودة وبدعة مذمومة، فما وافق السنة فهو محمود، وما خالف السنة فهو مذموم، واحتجَّ بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قيام رمضان: نعمت البدعة هي.

ما ساق الله هؤلاء الذين يتقوّلون في عليٍّ، وفي أبي بكر وعمر وغيرهم من أصحاب النبي ﷺ، إلا ليُجري لهم الحسنات (أي: لأبي بكر وعمر وعلي . . .) وهم أموات.

* * *

لم أر أحداً من أصحاب الأهواء أشهد بالزور من الرافضة.

* * *

أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي.

* * *

الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١].

* * *

رأيي ومذهبي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد، ويجلسوا على الجمال، ويطاف بهم في العشائر والقبائل ينادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام.

* * *

ما شبهت رأي أبي حنيفة إلا بخيط سحاب، إذا مددته كذا خرج أصفر، وإذا مددته كذا خرج أحمر.

* * *

ما نظرت في موطأ مالك رحمه الله إلا ازددت فهماً.

* * *

اعرف الحق لذي الحق، إذا أحق الله الحق.

لن يبلغ هذا الشأن إلا من أحرق قلبُهُ البنَّ (يريد في طلب العلم).

* * *

ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته.

* * *

من صدَق في أخوة أخيه؛ قبِلَ عِللَه، وسدَّ خللَه، وعفا عن زَللِهِ[1].

* * *

المعتذر من غير ذنب يوجب على نفسه ذنباً.

* * *

إني إذا أبغضت الرجل أبغضت شِقِّي الذي يليه.

* * *

وسئل عن السفلة؟ فقال: من يكون إكرامه لمخالفيه أكثر من إكرامه لأهل مذهبه، وليس ذلك إلا لقلة فضله وعلمه، يريد أن يستكثر بهم، ومتى يوالى العدو؟!.

* * *

طُبع ابن آدم على اللُّؤم: فمِن شأنِه أن يتقرب مما يتباعد منه، ويتباعد ممن يتقرب منه.

* * *

مَن أحسن ظنه بلئيم، كان أدنى عقوبته الحرمان.

* * *

---

(١) زَللِهِ: خَطَئِهِ.

مِن علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقاً.

لا تقصِّر في حق أخيك اعتماداً على مودته.

* * *

لا تبذل وجهك لمن يهون عليه ردُّك.

* * *

إن الله خلقك حراً فكن كما خلقك.

* * *

من بَرّك فقد أوثقك، ومن جفاك فقد أطلقك.

* * *

من سمع بأذنه صار حاكياً، ومن أصغى بقلبه كان واعياً، ومن وعظ بفعله كان هادياً.

* * *

مَنْ نَمَّ لك نمَّ بك، ومن نقل إليك نقل عنك، ومن إذا أرضيته قال فيك ما ليس فيك، وإذا أغضبته قال فيك ما ليس فيك.

* * *

الكيِّس العاقل هو الفطن المتغافل.

* * *

لو أن رجلاً سوَّى نفسه حتى صار مثل القدح، لكان له في الناس من يعانده.

* * *

أصحاب المروءات في جهد .

* * *

من سام نفسه فوق ما يساوي ، ردَّه الله تعالى إلى قيمته .

* * *

الحرية هي الكرم والتقوى ، فإذا اجتمعا في شخص فهو حرّ .

* * *

الفتوّة حليّ الأحرار .

* * *

من تزيَّن بباطل هتك ستره .

* * *

إذا ذُكِرَ الرجل بغير صناعته فقد وُهص : أي كُسر .

* * *

التواضع من أخلاق الكرام ، والتكبر من شيم اللِّئام .

* * *

أرفع الناس قدراً من لا يرى قدره ، وأكثر الناس فضلاً من لا يرى فضله .

* * *

الكِبْرُ كُلُّ عَيْبٍ ، وإذا رأيت الرجل بالنهار يكسر الحطب فلا تأمن عليه بالليل .

* * *

أيّما قوم لم تخرج نساؤهم إلى رجال غيرهم، ورجالهم إلى نساء غيرهم إلا خرج أولادهم حمقى.

* * *

ليس الخطأ أن يرمي الإنسان الهدف، إنما الخطأ ما تعمَّده.

من استُغضب فلم يغضب فهو حمار، ومن استُرضي فلم يرضَ فهو شيطان.

* * *

سمعت مالك بن أنس يقول: سمعت الزهري يقول: الذُّل في خمسة أشياء:

حضور المجلس بلا نسخة، وعبور المعبر بلا قطعة، ودخول الحمام بلا كرنيب[1]، وتذلل الشريف للدنيء لينال منه شيئاً، وتذلل الرجل للمرأة لينال من مالها شيئاً.

* * *

من الذل أشياء: عبور الجسر بلا قطعة، وحضور مجلس العلم بلا نسخة، ودخول الحمام بلا سطل، وذل الشريف للوضيع يطلب نائله، وذل الرجل لإمرأته يطلب رضاها، ومداراة الأحمق فإن مداراة الأحمق غاية لا تدرك.

* * *

---

(١) الكرنيب: ويكسر: المجيع وهو حزب من الطعام يصنع من لبن وتمر. (القاموس المحيط) (٤/ ٤٣).

لا يدخل في الوصية إلا أحمق أو لصّ.

* * *

من ولي القضاء فلم يفتقر فهو لصّ.

* * *

التلطف في الحيلة أجدى من الوسيلة.

* * *

إذا كثرت عليك الحوائج فابدأ بأهمها.

* * *

من كتم سرَّه، كانت الخيرة في يده.

* * *

ليس بعاقل من لم يأكل مع عدوه في غضارةٍ[1] ثلاثين سنة.

* * *

لا بأس بالفقيه أن يكون معه سفيه يسافه به.

* * *

الشفاعات زكاة المروءات.

* * *

ليس في الطب شرف.

* * *

---

(١) الغضارة: الصحفة المتخذة من الطين.

ما نقص من أثمان السودان إلا لضعف عقولهم، ولولا ذلك لكان لوناً من الألوان، من الناس من يشتهيه ويفضله على غيره.

* * *

الوقار في النزهة سخف.

* * *

ترك العادة ذنب مستحدَث.

* * *

لا تشاور من ليس في بيته دقيق، فإنه مُدَّله[1] العقل.

* * *

ما ضحك من خطأ رجل إلا ثبت صوابه في قلبه.

* * *

ما دخل قوم بلد قوم إلا أخذ كل واحد منهم من سُنّة صاحبه، حتى إن العراقيَّ ليأخذ من سنة الشاميّ، والشاميّ من سنة العراقيّ.

* * *

إذا رأيت الرجل فضة خاتمه كثيرة وفصُّه صغير، فذاك رجل عاقل، وإذا رأيت الرجل فضته قليلة وفصُّه كبير، فذاك رجل عاجز.

* * *

ليس من المروءة أن يخبر الرجل بسنِّه.

* * *

---

(١) مدله: المدَلَّهُ من الرجال: الذاهب العقل. (المعجم الوسيط).

لا تحدث عن حي ، فإن الحي لا يؤمن عليه أن ينسى .

* * *

من كذب على أخيه فقد عضهه[1] .

* * *

السخاء في اليمن ، أهل اليمن فيهم السخاء .

* * *

إذا أخطأتك الصنيعة إلى من يتقي الله تعالى ، فاصطنعها إلى من يتقي العار .

* * *

الشعر كلام حَسَنُه كحَسَنِ الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام ، غير أنه كلام باق سائر ، فذلك فضله على سائر الكلام ، فمن كان من الشعراء لا يعرف بنقص المسلمين وأذاهم والإكثار من ذلك ، ولا بأن يمدح فيكثر الكذب ـ لم تردّ شهادته .

* * *

اتَّقِ الله ، ومثِّل الآخرة في قلبك ، واجعل الموت نُصْب عينيك ، ولا تنس موقفك بين يدي الله ، وكن من الله تعالى على وَجَل ، واجتنب محارمه ، وأدِّ فرائضه ، وكن مع الحق حيث كان ، ولا تستصغرنَّ نِعَم الله عليك وإن قلَّت ، وقابلها بالشكر ، وليكن صمتك تفكراً ، وكلامك ذكراً ، ونظرك عبرة . اعف عمن ظلمك ، وصل من قطعك ، وأحسن إلى من أساء إليك ، واصبر على النائبات ، واستعذ بالله من النار بالتقوى .

* * *

---

(١) عضهه : قطعه ، أصابه في عضده . (المعجم الوسيط) .

ليكن الصدق لسانك، والوفاء عمادك، والرحمة ثمرتك، والشكر طهارتك، والحق تجارتك، والتودُّد زينتك، والكتاب فطنتك، والطاعة معيشتك، والرضا أمانتك، والفهم بصيرتك، والرجاء اصطبارك، والخوف جلبابك، والصدقة حرزك، والزكاة حصنك، والحياة أميرك، والحلم وزيرك، والتوكل درعك، وتكون الدنيا سجنك، والفقر ضجيعك، والحق قائدك، والحج والجهاد بُغيتك، والقرآن محدّثك، والله مؤنسك. فمن كانت هذه صفته كانت الجنة منزلته.

* * *

ما ناظرت أحداً قطُّ على الغلبة، وبودِّي أن جميع الخلق تعلموا هذا الكتاب (يعني كتابه) على أن لا يُنسب إلي منه شيء.

* * *

من تكلم بكلام في الدين، أو في شيء من هذه وليس فيه إمام متقدّم من النبي ﷺ وأصحابه فقد أحدث في الإسلام حدثاً.

* * *

بذلة كلامنا صون كلام غيرنا.

* * *

إنّ الأفئدة مزارع الألسن، فازرع الكلمة الكريمة فإنها إن لم تنبت كلها نبت بعضها، وإنّ من النطق ما هو أشد من الصخر، وأنفذ من الإبر، وأمرُّ من الصبر، وأَدْوَر من الرَّحى، وأحدُّ من الأَسِنَّة، وربما اغتفرت حراً على حرارته مخافة أن يكون أحرَّ وأمرَّ وأنكرَ منه.

* * *

العلم حر، وطالب العلم عبد، فإن خدم العلم ملك العلم، وإن تجبَّر عليه فالعلم أشدُّ تجبراً من أن يخضع لمن لا يخضع له.

* * *

سُئل بعض السلف: ما بلغ من اشتغالك بالعلم؟ فقال: هو سلوتي إذا اهتممت، ولذَّتي إذا سلوت.

* * *

ما رأيت أحداً يسأل عن مسألة فيها نظر، إلا رأيت الكراهية في وجهه؛ إلا محمد بن الحسن.

* * *

إن أردت الصلاة ففي أهل المدينة، وإن أردت المناسك فعليك بأهل مكة، وإن أردت الملاحم فعليك بأهل الشام، والرأي عند أهل الكوفة.

من أراد الجدل فعليه بأبي حنيفة.

* * *

يقولون: إني أخالف (أبا فلان رحمه الله) للدنيا، وكيف يكون ذلك والدنيا معهم؟ وإنما يريد الإنسان الدنيا لبطنه وفرجه، وقد مُنِعتُ من ألذَّ المطاعم، ولا سبيل إلى النكاح.

* * *

ما ناظرت إلا على النصيحة.

* * *

ما ناظرت أحداً فأحببت أن يُخطئ.

* * *

ما كلَّمتُ أحداً قطُّ إلا ولم أبالِ بيَّن الله الحق على لساني أو لسانه.

* * *

ما ناظرت أحداً علمت أنه مقيم على بدعة.

* * *

كنت أرى إذا تناظر اثنان في مسألة، وكان أحدهما يناظر ويضحك ظنت العامة أنه هو المصيب، فقضوا له على صاحبه.

* * *

لا ينبل قرشي بمكة ولا يظهر ذكره حتى يخرج منها، وذلك أن النبي ﷺ، لم يظهر أمره حتى خرج من مكة.

* * *

من تعلَّم القرآن عَظُمت قيمته، ومن نظر في الفقه نبل قَدْرُه، وفي رواية (جعفر) نبل مقداره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن نظر في اللغة رقَّ طبعه، ومن نظر في الحساب جزل رأيه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه.

* * *

إعراب القرآن أحبُّ إلي من حفظ بعض حروفه.

* * *

تعلموا العربية، فإنها تثبت العقل وتزيد في المروءة.

* * *

من فعل ما نهى عنه وهو عالم بنهيه، فهو عاص بفعله، فليستغفر الله ولا يعود.

* * *

ما أحد يطيع الله حتى لا يعصيه، وما أحد يعصي الله حتى لا يطيعه، ولكن إذا كان أكثر عمله الطاعة، ولا يقدم على كبيرة، فهو عدل.

* * *

إذا ضاقت الأشياء اتسعت، وإذا اتسعت ضاقت.

* * *

لا يكون لك أن تقول إلا عن أصل، أو قياس على أصل، والأصل كتاب أو سُنّة، أو قول بعض أصحاب رسول الله ﷺ، أو إجماع الناس، وفي رواية المسلمين.

* * *

لا يقال للأصل: لم، ولا كيف؟ وبالله التوفيق.

* * *

ليس لأحد أبداً أن يقول في شيء حل ولا حرم إلا من جهة العلم. وجهة العلم في الخبر في الكتاب والسنة، أو الإجماع، أو القياس. فعلم الحق كتاب الله تعالى، ثم سنة نبيه ﷺ، فليس لمفتي ولا لحاكم أن يفتي، ولا يحكم حتى يكون عالماً بهما، ولا أن يخالفهما، ولا واحداً منهما بحال، فإذا خالفهما فهو عاص لله به، وحكمه مردود.

* * *

لأن يلقى الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك به خير من أن يلقاه بشيء من الهوى.

* * *

لولا أصحاب الحديث لكنا بيّاعي الفول.

* * *

من حضر مجلس العلم بلا محبرة وورق، كان كمن حضر الطاحون بغير قمح.

* * *

استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكر.

* * *

وقال موصياً مؤدب أولاد الرشيد: (ليكن ما تبدأ به من إصلاح أولاد أمير المؤمنين إصلاح نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما تستحسنه، والقبح عندهم ما تكرهه. عَلِّمْهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيمَلّوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، ثم روِّهم من الشعر أعفَّه، ومن الحديث أشرفه، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يُحكموه، فإنّ ازدحام الكلام في السمع مضلَّة للفهم).

أشدُّ الأعمال ثلاثة: (الجود في قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يُرجى ويُخاف).

* * *

لا خير في صحبة من تحتاج إلى مداراته.

* * *

قبول السعاية شر من السعاية، لأن السعاية دلالة، والقبول إجازة، وليس من دلَّ على شيء كمن قبل وأجاز.

* * *

إذا بلغك عن صديق لك ما تكرهه، فإياك أن تبادره بالعداوة وقطع الولاية، فتكون ممن أزال يقينه بشك، ولكن القَه وقل له: بلغني عنك كذا وكذا، وإياك أن تسمي له المُبَلِّغَ، فإن أنكر ذلك فقل له: أنت أصدق وأبر، لا تزيدنَّ على ذلك شيئاً، وإن اعترف بذلك فرأيت له في ذلك وجهاً بعذر فاقبل منه، وإن لم تر لذلك فقل له: ماذا أردت بما بلغني عنك، فإن ذكر ما له وجه من العذر فاقبل منه، وإن لم تر ذلك وجهاً لعذره وضاق عليك المسلك فحينئذ أثبتها عليه سيئة، ثم أنت بعد ذلك بالخيار إن شئت كافأته بمثله من غير زيادة، وإن شئت عفوت عنه، والعفو أقرب للتقوى، وأبلغ في الكرم لقول الله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، فإن نازعتك نفسك بالمكافأة ففكر فيما سبق له لديك من الإحسان فعُدَّها، ثم انذر له إحساناً بهذه السيئة، ولا تبخس باقي إحسانه السالف بهذه السيئة، فإن ذلك الظلم بعينه.

* * *

إذا كان لك صديق فشُدَّ يديك به، فإن اتخاذ الصديق صعب وفراقه سهل.

* * *

أصل كل عداوة الصنيعة إلى الأنذال.

* * *

ليس العاقل الذي يدفع بين الخير والشر فيختار الخير، ولكن العاقل من يختار أخيرهما (يريد خير الشرَّين).

* * *

نزِّهوا أسماعكم عن استماع الخنا[1] كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به، فإن المستمع شريك القائل، وإن السفيه لينظر إلى أخبث شيء في إنائه، فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم، ولو ردت كلمة السفيه لسعد رادها كما شقي بها قائلها.

* * *

الشبع يثقل البدن، ويقسي القلب، ويزيل الفطنة، ويجلب النوم، ويضعف صاحبه عن العبادة.

* * *

من ادَّعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها في قلبه فقد كذب.

* * *

من غلبته شدة الشهوة للدنيا لزمته العبودية لأهلها، ومن رضي بالقنوع زال عنه الخضوع.

* * *

التواضع يورث المحبة، والقناعة تورث الراحة.

* * *

لو رأيت صاحب بدعة يمشي على الهواء ما قبلته.

* * *

---

(١) الخنا: الكلام السيء البذيء.

الرياء فتنة عقدها الهوى حيال أبصار قلوب العلماء، فنظروا إليها بسوء اختيار النفوس فأحبطت أعمالهم.

* * *

من أطاع الله تعالى بالعلم نفعه سره.

* * *

ما أوردتُ الحق والحجة على أحد فقبلها مني إلا هبته واعتقدت محبته، ولا كابرني أحد على الحق ودافع الحجة إلا سقط من عيني ورفضته.

* * *

من قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم، ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم.

* * *

العلم علمان: علم الأبدان، وعلم الأديان.

* * *

وسئل يوماً رضي الله عنه عن مسألة فسكت؛ فقيل له: ألا تجيب رحمك الله؟ فقال: حتى أدري الفضل في سكوتي أو في جوابي.

* * *

لا تقصِّر في حق أخيك اعتماداً على مروءته أو مودته.

من كتم سره كانت الخيرة في يده.

* * *

الناس لم يخلقوا أعمالهم، بل هي مِنْ خَلْقِ الله تعالى.

* * *

قيل للشافعيِّ يوماً: أيهم أفضل؟ الصبر أو المحنة أو التمكين؟ فقال الشافعي رحمه الله: التمكين درجة الأنبياء، ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة، فإذا امتُحن صبر، وإذا صبر مُكِّن، ألا ترى أن الله عزَّ وجلَّ امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكَّنه، وامتحن موسى عليه السلام ثم مكَّنه، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكَّنه، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكَّنه. وآتاه ملكاً، و التمكين أفضل الدرجات قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾. وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مُكِّن؛ قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾.

* * *

فعزِّ نفسك بما تعزي غيرك، واستقبح من فعلك ما تستقبحه من فعل غيرك، واعلم أن أمضَّ المصائب فقدُ سرور مع حرمان أجر، فكيف إذا اجتمعا على اكتساب وزر.

* * *

أحبُّ نكاح ذات الدين والعقل، فإن أهل العقل من كل صنف أقربهم من الدوام على الخير، والانتقال من الشر.

* * *

موعظة

قال المزني: قلت للشافعي: عظني يا أبا عبد الله، فقال لي: اتَّق الله، ومثِّل الآخرة في قلبك، واجعل الموت نُصْبَ عَيْنَيْكَ، ولا تنسَ موقفك بين يدي الله عزَّ وجلَّ، وكن مع الله تعالى عزَّ وجلَّ، واجتنب محارمه، وأدِّ فرائضه، وكن مع الحق حيث كان، ولا تستصغرنَّ نعم الله عليك وإن قلَّت، وقابلها بالشكر وليكن صمتك تفكراً، وكلامك ذكراً، ونظرك عِبْرَة، اعف عمن ظلمك، وصل من قطعك، وأحسن إلى من أساء إليك، واصبر على النائبات، واستعذ بالله من النار بالتقوى.

فقلت: زدني، رحمك الله يا أبا عبد الله.

فقال: ليكن الصدق لسانك والوفاءُ عمادَك، والرحمة ثمرتكَ، والشكر طهارتك، والحق تجارتك، والتودُّد زينتك، والكتاب فطنتك، والطاعة معيشتك، والرضا أمانتك، والفهم بصيرتك، والرجاء اصطبارك، والخوف جلبابك، والصدقة حرزك والزكاة حصنك، والحياء أميرك، والحلم وزيرك، والتوكل درعك، وتكون الدنيا سجنك، والفقر ضجيعك، والحق قائدك، والحج والجهاد بغيتك، والقرآن محدِّثك، والله مؤنسك، فمن كانت هذه صفته كانت الجنة منزلته.

* * *

وصيّـــة الإمام الشّافعيّ

وصية الإمام الشافعي

هذه وصية الإمام محمد بن إدريس الشافعي
رحمة الله تعالى عليه؛ قال:

من أراد أن يخرج من الدنيا سالماً، فليستعمل عشرة أشياء:

١ ـ عطاء النفس:

وهو: قلة النوم، والأكل، والكلام، وقناعة القوت.

٢ ـ عطاء ملك الموت:

وهو: قضاء الفوائت، وإرضاء الخصماء، والاستعداد للموت، والشوق إلى الله تعالى.

٣ ـ عطاء القبر:

وهو ترك النميمة، والتنزه من البول وغيره، والصلاة بالليل، ونصرة المظلوم.

٤ ـ عطاء مُنكَر ونكير:

وهو: صدق القول، وقول الحق، وترك المعصية، ونصيحة الحق على الخلق.

٥ ـ عطاء الميزان:

وهو: كظم الغيظ، وكثرة الذكر، وإخلاص العمل، واحتمال الأذى.

٦ ـ عطاء الصراط:

وهو: ترك الغيبة، والورع الصادق، وعون المؤمن، والمشي إلى الجماعة.

٧ ـ عطاء المالك:

وهو: البكاء من خشية الله تعالى، وبر الوالدين، والتصدق في السر والعلانية، وحسن الخلق.

٨ ـ عطاء الرضوان:

وهو: الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء، والشكر على النعماء، والتوبة عن المعصية.

٩ ـ عطاء النبي ﷺ:

وهو: الصلاة عليه، والتمسك بالشريعة، والتعلق بالسنة، وحب الصحابة بالترتيب، وطلب الفضيلة.

١٠ ـ عطاء الله تعالى:

وهو: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وحب الطاعة، وبغض المعصية.

* * *

فهـــرس الديـــوان



فهرس الديوان

قافية التاء

قافية الجيم

قافية الحاء

قافية الدال

قافية الراء

قافية السين

قافية الصاد

قافية الضاد

قافية العين

قافية الفاء

قافية القاف

قافية الكاف

قافية اللام

قافية الميم

قافية النون

قافية الهاء

قافية الياء

* * *

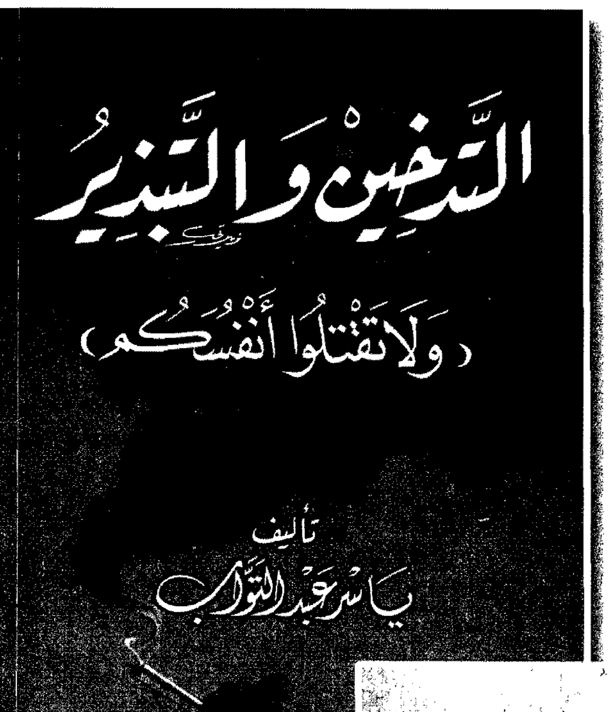


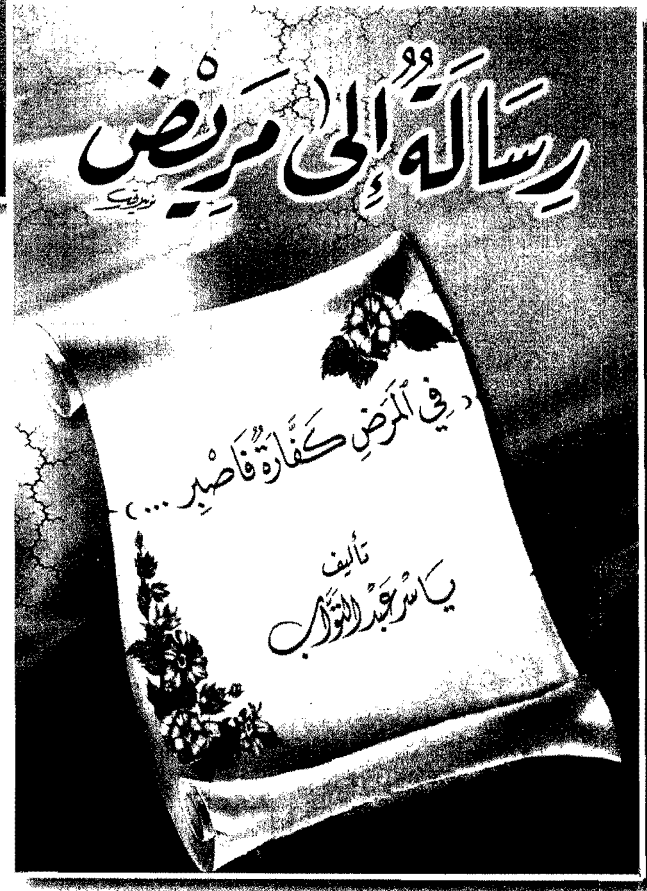
فهرس الموضوعات

* * *



من إصداراتنا





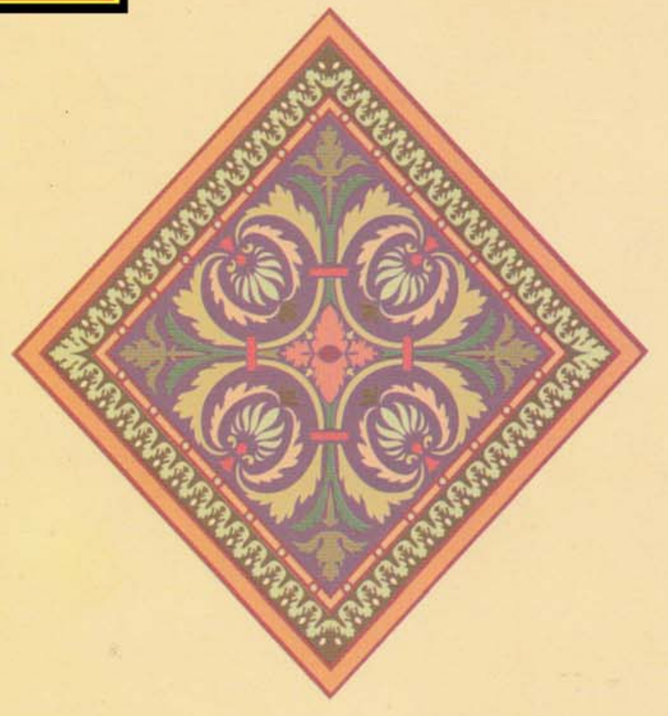




من إصداراتنا
من إصداراتنا
مصورة
مقاطعة المسلمين
إعداد: خالد خادم السروجي
رسوم: عماد الدين شيب
مصورة
الهجرة إلى الحبشة
إعداد: خالد خادم السروجي
رسوم: عماد الدين شيب
السيرة النبوية الشريفة
مصورة
في ظلال النبوة والرسالة
إعداد: خالد خادم السروجي
رسوم: عماد الدين شيب
مصورة
شباب الرسول صلى الله عليه وسلم
إعداد: خالد خادم السروجي
رسوم: عماد الدين شيب
السيرة النبوية الشريفة


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com







دمشق ـ حلبوني ـ ص.ب ٣٤٤٧٣
هاتف: ٢٢٢٨٦٩٣ ـ فاكس: ٢٢٤٦٩٦٦





دِمَشْق ـ حلبوني ـ جادَةُ ابن سِينَا